

علم السالمين
١١

العلامة المجاهد

الشيخ محمد الحارث

رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى

تأليف

عبد الحميد محمود طه

دار الفقه
دمشق

الطبعة الرابعة

١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م

حقوق الطبع محفوظة

دار القلم
للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق - حلبوني - ص.ب : ٤٥٢٣ - هاتف : ٢٢٩١٧٧

بيروت - ص.ب : ١١٣/٦٥٠١ - هاتف : ٣١٦٠٩٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة المؤلف

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، وإمام
المتقين ، وعلى آله وصحبه ، وتابعيهم ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .
أما بعد :

فإن مصيبة الاسلام الكبرى في هذا العصر ؛ فقدته لعلمائه الحاملين
لشريعته ، والمتمسكين بسنته . فقد بليتهم ركائزه الفكرية ، ودعاماته
العلمية ، وبها قيامه وعليها بنيانه . وهذا فضلاً عن خسارته للنماذج الحية
التي تتمثل الاسلام ساو كاً عملياً ، وتدعو الناس بمنهجها العملي إلى
الافتداء بها ، وإن وجودها بين الناس ؛ تذكير لهم بالاسلام وحقائقه ،
فبموت العلماء العاملين تغيب المثل العملية من صفوف الأمة ، فتضيع
عليها معالم الطريق .

والسبب الرئيسي لهذا ، إغراض المسلمين عن دينهم ، وزهدهم في
علومه ، حتى أصبحت بضاعته كاسدة وسوقه معطلة ، ولقد حذر النبي
صلى الله عليه وآله وسلم من هذا المصير السيئ ، الذي آل إليه المسلمون

في حديث شريف نفيس ، يعتبر من أعلام نبوته صلى الله عليه وآله وسلم .
 ففي صحيح مسلم أن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : سمعت رسول
 الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً من الناس ،
 ولكن يقبض العلم بقبض العلماء ، حتى إذا لم يترك عالماً ، انخذ الناس
 رؤوساً جهالاً ، فاستلوا ، فافتروا بغير علم ، فضلوا ، وأضلوا » .
 واثبت غابت عنا النماذج السلوكية الحية المتمثلة بالاسلام ، فلا أقل أن نسعى إلى
 تسجيل صفاتها ، وتحجير آرائها ، ونهج حياتها . علنا في هذا ، نضع قساً
 من النور في طريق الجماهير ، تتلمس بواسطته بعض معالم الطريق ،
 ونقدم للناس نماذج عملية سلوكية عن الاسلام ، عاشت في هذا العصر
 متحدية كل أباطيله وضلالاته ، معبرة عن حقيقة الاسلام وخلوده ،
 وصلاحيته للإنسان في كل زمان ومكان .

ولقد كان سيدي الشيخ محمد الحامد رحمه الله تعالى ، علم الأعلام
 الاسلامية في هذا العصر : فكراً ، وعلماً ، وسلوكاً . لا أقول هذا
 بدافع المحبة له رحمه الله ، إنما أقوله بقناعة الباحث المدقق المحقق ، فلست
 كـ بعض المريدين ، الذين طغت عواطف المحبة لشيخوخهم على عقولهم
 وتفكيرهم ؛ فتراهم يحلونهم المكانة السامية الرفيعة في قلوبهم وعقولهم ،
 دون أن يكون منهم نظر إلى ما يعتري الانسان من ضعف البشر أمام
 عواطفه البشرية وغرائزه الفطرية . والسبب في هذا أنه - رحمه الله
 تعالى - ما كان يعوّد تلاميذه على هذا ، إنما كان يعوّدهم على البحث عن
 الحق أياً كان مصدره . والرجل من يجمع الناس على الحق لا على نفسه ،

وكذلك كان رحمه الله تعالى ، وعلى ضوء منهجه هذا سرت في هذا الكتاب .
وسيرى القارئ ، أن الكتاب ليس مجرد مدح من تلميذ لشيخه ،
كما عهدنا في كثير من التراجم التي ألفها التلاميذ عن شيوخهم ، إنما هو
دراسة علمية ، لحياة شخصية علمية من شخصيات الاسلام الكبرى في هذا
العصر ، مع دراسة لآرائه ومنهجه ، وهي الغاية من الكتاب . فهم
المهات في هذا الزمن ، أن نتعرف على رأي ومنهج الرجل المسلم في
الكثير من قضايا العصر الحاضر .

وعلى الرغم من أني لم آل جهداً في استقصاء كل ما عرفته عن سيدي
رحمه الله تعالى ، أعترف بتقصيري عن الإحاطة بكل جوانب شخصيته
العظيمة ؛ ولهذا لن يجد من أسعده الحظ بمعرفة سيدي في هذا
الكتاب ، الصورة الكاملة التي عرفها للشيخ ، وليس الخبر كالبيان .
فمعدرة ياسيدي ، فأنتم البحر لكن بلا ساحل ، وهذا الكتاب
منكم وإلحكم ، وما هو إلا كقول القائل :

كالبحر يسقيه السحاب وماله فضل عليه لأنه من مائه
ولما لج بي الخوص على كتابة كل ما يتعلق بحياته رحمه الله تعالى ،
ماشهدته منها وما غاب عني ، استعنت بشقيقه ورفيقه على درب الحياة ،
الأستاذ الكريم عبد الغني الحامد حفظه الله تعالى ، ففتح لي قلبه ، وقدم
لي الكثير من الحقائق عن حياة سيدي رحمه الله ؛ خاصة ما يتصل
بمراحلها الأولى .

كما قام أخي الكريم ، السيد عبد المعز الحامد حفظه الله ابن سيدي
بمجهود مبرور مشكور ، في جمع آثار والده الأدبية : النثرية ، والشعرية ،

وكان فضيلة الشيخ عبد الباسط أبي النصر خلف ؛ صاحب القـدح المعلى في رفع صرح الكتاب ، فقد تفضل - حفظه الله - فقدم لي الرسائل التي كتبها سيدي - رحمه الله تعالى - إلى شيخه العظيم الشيخ محمد أبي النصر خلف قدس سره ، وهي كما سيرى القارئ زبدة الكتاب وعمدته ، خاصة في بحث التصوف ، وهذا فضلاً عن المعلومات الكثيرة التي قدمها لي عن والده وجده رحمهما الله تعالى .

فجزاه الله وكل من ساهم في هذا الكتاب خير الجزاء ، وخاصة فضيلة الشيخ محمد علي المراد ، الذي ساعدني في الحصول على بعض مراجع الكتاب العلمية .

لهم في هذا الكتاب يد شريفة كريمة ، يكافئهم الله تعالى عليها بفضله وكرمه .

أما الكتاب ، فقد جعلته خمسة أبواب :

الأول منها : لمراحل حياته رحمه الله تعالى .

وثانيها : لمنهجه العلمي ، وآثاره العلمية .

وثالثها : لتصوفه ، وآرائه في التصوف ، ونظراته إليه ، مع

تعريف بالطريقة النقشبندية وشيخه فيها .

ورابعها : لبعض شمائله الخلقية .

وخامسها : لآثاره الأدبية من شعرية ونثرية .

وإن كان لي رجاء من تأليف الكتاب ، فهو رجاء الغفران ،

والموت على الإيمان ، ودعاء الإخوان .

الفقيه إلى الله تعالى

حماة في ٤ شوال ١٣٩٠ هـ

عبد الحميد محمد طه

الموافق ١٢ / ١٢ / ١٩٧٠ م

الباب الأول

مراحل حياته

رحمة الله تعالى

حماة

حماة إحدى المدن الرئيسية الكبرى في بلاد الشام ، تقع على طريق دمشق - حلب ، شمال مدينة حمص ، على نهر العاصي . وهي من المدن القديمة ، ويرجع بعضهم أنها أنشئت في الألف الخامسة قبل الميلاد . وتعاقب على سكنها العديد من الأقوام . ازدهرت قبل الميلاد عندما سكنها الآراميون ، وجعلوها مركزاً للمملكة حماة الآرامية ، وازدهرت كذلك بعد الفتح الاسلامي ، وخاصة في عهد الأيوبيين ، وقد أعاد نور الدين زنكي بناءها ، بعد أن خربها الزلزال سنة ٥٥٢ هـ - ١١٥٧ م ، وهي المدينة الوحيدة التي لم يتمكن الصليبيون من دخولها أثناء الحروب الصليبية . وازداد ازدهارها سنة ١٣١٠ م عندما ولّى عليها السلطان ناصر^(١) المؤرخ الشهير إسماعيل أبا الفداء ، ولا زالت إلى الآن تسمى باسمه « مدينة أبي الفداء » . ولقد أنجبت حماة الكثير من العلماء والأدباء والشعراء .

اشتهرت حماة بمناظرها الطبيعية الرائعة ، وبساتينها ذات الظلال

(١) هو الملك الناصر محمد بن قلاوون .

الكثيفة الوارفة ، وبنواعيها التي سارت بذكرها الركبات ؛ حتى
سميت حماة باسم « مدينة النواعي » ، قال عنها ابن سعيد الأندلسي : « وفي
حماة مسحة أندلسية » أه . كما وصفها الرحالة ابن بطوطة ، فقال :
« حماة إحدى أمهات الشام الرفيعة ومدائنها البديعة ، ذات الحسن
الرائق والجمال الفائق ، تحفها البساتين والجنان ، عليها النواعي كالآفلاك
الدائرات ، يشقها النهر العظيم المسمى بالعاصي »^(١) ، أه

الشيخ محمود الحامد

وفي حماة عاش الشيخ محمود الحامد والسيدي رحمهما الله تعالى ، غلبت
عليه صفة التصوف واشتهر بها ، وكان حار المزاج حاد الطبع ، كثيراً
ما تطفئ عليه الأحوال الشديدة ، على جانب كبير من الصلابة الدينية
والورع ، عفيف النفس ، كريم القلب ، يعيش من كتابه الذي
أنشأه لتعليم الأطفال القراءة والكتابة . ولقد حدث سيدي كثيراً ،
فيما يذكره عن والده ، وخاصة أحواله الشديدة ؛ حتى إنه وإخوته ،
ما كانوا يجروئون أن يناموا معه في غرفة نومه ، وإذا ساروا في البيت
أثناء نومه ، حرصوا على الهدوء والسكون ؛ لذلك كانوا يسرون على
رؤوس أصابعهم . ولقد تربي وتلقى التصوف على يد الشيخ الكبير
عبد الفتاح العبد رحمه الله تعالى ، الذي تتلمذ على يد الشيخ محمد سليمان

(١) انظر مجلة العمران العدد الخاص عن حماة .

الأروادي رحمه الله تعالى ، وهو أحد خلفاء مولانا خالد النقشبندي رحمه الله تعالى .

ولقد كتب مفتي حماة السابق الشيخ محمد سعيد النعسان رحمه الله تعالى في مذكراته ، يوم الاثنين ٢٦ من شهر ربيع الأول ١٣٣٤ هـ ، فقال : « وفي اليوم نفسه كانت وفاة المرحوم الشيخ محمود الحامد شيخ الطريقة النقشبية بحجة ، خليفة المرحوم الشيخ عبد الفتاح العبد ، وكان الشيخ محمود المذكور من الصالحين الجامعين على الله ^(١) ، يلقي الطريقة ، وتلمذ له كثير من المريدين وانتفعوا به ، وكانت لجنازته وقع في نفوس الحمويين ، خرج فيها كثير من العلماء وأهل الطرق والأعيان ، وصلى عليه الشيخ محمد علي بن المرحوم شيخنا الشيخ سليم المراد » ... أه .

ومجدري ، أن أنقل فيما يلي جزءاً من مقولة كتبها سيدي رحمه الله في شبابه ، تحدث فيها عن الرحمة التي أودعها سبحانه في قلوب الآباء والأمهات ، تظهر لنا اللوعة التي كان يعاني منها لفقده والديه : « لامية أن الشفقة موجودة في كلا الوالدين ، ولكنها في الأم أكثر ، بل لو قارنا بينهما ؛ لوجدنا أن رحمة الأب جزء من أجزاء من رحمة الأم ، وهذا أمرين لا يحتاج إلى برهان ولا جدل ، لكن لو أردنا أن نعرف مقدار الحب الذي يضره الابن لأبويه ، وهل هو متفاوت ياترى ، أم هو على السواء ؟ ومن هو الأولى بزيادة الحب والبر والكرامة من الآخر ؟

(١) الجامع على الله : هو الذي يجمع الناس على تقوى الله وطاعته .

هذا السؤال يحتاج الجيب عنه ، لان يكون قد حمي حياة عائلية ،
تقلب في أعطاف نعمتها ، وحينئذ تسهل عليه الإجابة ، إذ يكون
حبه لأوفرهما عليه حناناً ، وأعظمها إليه إحساناً . أما أنا ؛ فإن أجبت
عن هذا السؤال ، فالجواب يكون بلسان العلم بما شاهدته من أحوال
الناس ، لا بلسان الذوق الكامل والوجدان التام ، إذ أني منيت بفقد
أبوي وأنا طفل يافع ، لا أقدر على التمييز والفرقة بين الأمور التي
تحتاج إلى نظر وتفكير .

على أني لا أزال أذكر من عهد الصبا ، أني كنت حين استعق
التأديب من والدي رحمه الله تعالى ، كنت أفرق وأخاف ، فأجد من
أمي رحمه الله تعالى ملجأ وملاذاً ، أحتمي به ، وأخلص من الضرب ،
وإني غير ناس امتنانها علي رحمه الله تعالى بذلك . . أه

ولادته

في هذا البيت ، بيت العلم والتصوف ، ولد سيدي رحمه الله تعالى
سنة ١٣٢٨ هـ - ١٩١٠ م ، وكانت ولادته بعد انقطاع حمل أمه عدداً
من السنين ، حتى شكا والده إلى بعض خواصه انقطاع حمل زوجته ،
فأخبروه أنه كان في حمص شيخ مبارك اسمه الشيخ سليم خلف (١) ،
يكتب بعض الكلمات على ورقة يعطيها لمن تشكو إليه انقطاع حملها ،

(١) ستأتي ترجمته في الباب الثالث من هذا الكتاب .

قلحها ، فتحمل بإذن الله تعالى ، ولقد توفي ؛ لكن ولده الشيخ محمد أبو النصر يقوم مقامه في هذا ، وهو يتردد على حماة لتفقد مريديه . ويتقدير الله سبحانه كسب الورقة بيد الشيخ أبي النصر ، وحملت الأم بعد ذلك بإذن الله تعالى ، وولد الشيخ رحمه الله تعالى . سمعت هذا الحديث من سيدي عدة مرات ، وأشار رحمه الله إلى هذه الحادثة بعد ذلك في إحدى قصائده التي يمدح بها شيخه أبا النصر بقوله :

فيا سيدي إني بيباك واقفٌ وقد تهت في بحر الضلال كثيراً
وانسى لمثلي أن يهدولي بكم صلاتٌ تبدت حين كنت صغيراً

وعاش في كنف والديه وبين أخويه ستة أعوام تقريباً ، وفجع في السادسة من عمره بوالده ، وفي العام نفسه فجع أيضاً بأمه ، وذاق مرارة اليم والفقر عدداً من السنوات ، وكانت من أشد السنوات التي مورت على البلاد ، وهي سنوات الحرب العالمية الأولى .

وكان والده يتحدث مراراً أن ولده هذا سيكون عالماً ، ورآه مرة بعض الصالحين ، فأسرع إليه مقبلاً ومعانقاً وهو يردد : الشيخ محمد ، الشيخ محمد .

ولما مرض الوالد مرض الوفاة ، استد به القلق على أولاده ، خاصة وأنه لم يتمكن في خلال حياته كلها ، أن يوفر لهم شيئاً من المال يتركه لهم ، والبلاد تلفها الجماعات والأوبئة طيلة الحرب العالمية الأولى ، فأخذ يبحث عن وصي يوصيه عليهم ، فلم يجد أحداً ؛ لأن كل إنسان يشغل خلال الأزمات بنفسه ، فما كان منه إلا أن أوصى الله عليهم ، فكان

يردد في مرض وفاته : « إني أوصي الله على أولادي » وأشار إلى ولده الكبير بدر - وكان حينئذ في سن الخامسة عشرة من عمره - ليقرب منه ، فمس في أذنه بكلمات ، أوصاه بها أن يعتني بأخويه الصغيرين .

الْيَتِيمَانِ

كانت وفاة الوالد في تلك الظروف القاسية ضربة شديدة ، تبعها أخرى بوفاة الوالدة ، فلم تحمل العائلة الصغيرة شدة هذه المصائب ، فتفرق شمل الإخوة ، واضطر الأخ الكبير للانفصال عن أخويه الصغيرين .

فكيف اجتاز اليتيمان سنوات الحرب العجاف بضعفها وفقرها ؟ .
أذكر أن سيدي رحمه الله تعالى ، حدثني عن هذه المرحلة في حياته ، في إحدى رحلاته التي تشرفت بخدمته أثناءها ، حدثني عن مشاعر الألم التي كانت تحز في نفسه ، وتصور في فؤاده ، دون أن يستطيع في ذلك الوقت التعبير عنها ، وأذكر من حديثه أنه قال لي : « لو كان لليتيم لسان يبين به عن لوعاته وآلامه ؛ لأبكى الحجارة الصماء ، مرت بنا أيام ، كنا كثيراً ما نبقي في المدرسة في فرصة الغداء دون طعام ، معظم التلاميذ يذهبون إلى بيوتهم ، ونحن نبقي في المدرسة ؛ لأنه لم يكن لنا بيت ولا طعام ، حتى إن أخي كان يبكي أحياناً من شدة الجوع ، أما أنا فكنت أشغل نفسي باللعب عن آلام الجوع » وحدثني

مرة كيف عثر في الطريق على ليرة ذهبية، فحملها وهو لا يعرف حقيقةها لأنه مارأى مثلها في حياته ، ورآها أخوه بدر معه وهو يلعب بها ، فأخذها منه ليشتري لنفسه وأخويه حاجات العيد المقبل الضرورية . وحدثني عن فرحته الكبرى لأول مرة في هذا العيد ، بالحذاء الجديد ، والثوب الجديد ، ولعبة القطار الآلي التي وعده أخوه بها ، عندما أخذ منه الليرة الذهبية^(١) . ولنستمع إلى الأستاذ عبد الغني الحامد - حفظه الله - يحدثنا عن هذه المرحلة :

رزيء محمد بموت أبيه وهو في السادسة من عمره ، وفي أقل من سنة بعد وفاة أبيه ، توفيت والدته ، فأصبح يتيم الأبوين ، وكان قد انقطع بموت أبيه مورد العائلة من المال ، فلم يكن أخوه الأكبر بدر الدين قد زاول من قبل ذلك عملاً ، فهو لا يزال يومئذ طالباً في المدرسة الإعدادية ، لم يتجاوز الخامسة عشرة من العمر . فاجتمع الرأي من الأقارب والجيران على تفريغ دار العائلة ، وإيجارها لمدة طويلة ، وبيع جميع ما فيها من الأثاث والمؤن ، وحفظ المال المتجمع عند رجل أمين ، ليكون هذا المال نفقة لمحمد وأخيه الأصغر عبد الغني ، بعد أن أخذ بدر الدين حصته منه لينفقها على نفسه في إتمام دراسته . لكن بدر الدين قطع تحصيله الثانوي ، والتحق بمدرسة دار المعلمين بدمشق ، يختصر بها الطريق في الوصول إلى عمل يتدارك به أمور المعيشة له ولأخويه .

(١) تصدق رحمه الله بعد ذلك على الفقراء بقيمة هذه الليرة بعد أن أخبره أخوه بها .

وخرج محمد وعبد الغني من الدار وهما طفلان صغيران ، لم يحملأ
منها إلا أمتعة النوم والثياب ، وألقا أول الأمر بيت عمها ، ثم
صارا ينقلان إلى بيوت أخرى متعددة من بيوت الأسر
الفقيرة : بيت منها لأرملة ذات أولاد ، وبيتان لرجلين متزوجين
ذوي أولاد كثيرين ، فيضمان إلى أفراد كل أسرة من هذه الأسر على
التوالي بأجور من المال معينة ، تدفع لكل أسرة بما هو محفوظ لها
عند الرجل الأمين . وكانت هذه الأسر تسكن في أطراف البلد ،
وتعيش في حالة بؤس وفقر شديد ، بيوتها من اللبن والطين ، وأرض
دورها من التراب ، وطعامها خشن قليل ، فلما شبع ، والدنيا كلها يومئذ
تلفها مجاعة الحرب العالمية الأولى ، فيذهب الجوع كل يوم بالعشرات .

ودامت الحال بمحمد وأخيه الأصغر هكذا مدة سنتين ، كان بدر
الدين خلالها يتردد عليهما آتياً من دمشق ، فيأسي كل الأسى حين يراها في
بيوت تلك الأسر ويرى الحرمان الذي يعانيانه عندهما من كل شيء ،
وكيف كانا يعيشان بين أولادها الغارقين في الجهالة والإهمال ، بما حمله
على قطع دراسته في دار المعلمين ، والعودة إلى حماة ليتولى شأنها ،
ويسعى في طلب الرزق لإعاشتها وتعليمها ، ولا سيما أن المال المدخر
قد أوشك على النفاد .

جهد بدر الدين في طلب الرزق ، فزاول بعض أعمال البيع والشراء
الفردية ، وعمل وكيلاً في مزرعة ، وشارك في دكان صغيرة لمواد
التموين المنزلي ، والتجأ بأخويه محمد وعبد الغني في أثناء ذلك إلى
بيت أخواله ، فأعطي غرفة عندهم ، ولما أن توفر لديه بعض المال استأجر

غرفة منفردة في دار منزلة نقل إليها أخويه ، وقد كان لها في كل مامر
بمكان الأم والأب . . أ .

نشأة العلمية

تابع الأستاذ عبدالغني حديثه عن نشأة أخيه العلمية ، فقال : « لم
يغفل بدر الدين عن تعليم أخيه محمد حتى في أشد أيام البؤس ، فقد أدخله
المدرسة الابتدائية ، وهو ما يزال في الفترة التي كانت يعيش فيها عند
الأسر الفقيرة في أطراف البلد ، وأيقظ فيه روح الجد ، لما كان يرى فيه
من محابيل الذكاء ، فلم يقبل منه وهو في الصف الأول إلا أن ينال الدرجة
الأولى على رفاقه ، فحقق محمد لأخيه ما أراد منه ، وفاز بالدرجة الأولى
لذلك العام . وتابع بعد ذلك سيره في المدرسة من صف إلى صف . وفي
السنة الثالثة من دراسته ، انفرجت الحياة قليلاً لأخيه بدر الدين من بعد
الشدة ، على أثر انسحاب الأتراك من سورية وقيام الحكم الفيصلي فيها ،
فقد تسلم الشيخ سعيد النعساني مفتي حماة السابق إدارة المدارس
الرسمية في البلد ، وكان صديقاً لوالده ، فعينه معلماً ابتدائياً سنة ١٩٢٠ م ،
واتسع بذلك نطاق العيش لبعض الشيء له ولأخويه ، واستمر الأمر
هكذا حتى أنهى محمد مرحلة الدراسة الابتدائية ، وتخرج من الصف
السادس سنة ١٩٢٢ م ، فأدخله أخوه المدرسة الإعدادية ، وفي نيته أن
يتابع له تحصيله فيها للعلوم العصرية ، لكن محمداً لم ينسجم مع بيئته
الجديدة في المدرسة ، وشعر بنفرة منها ، وبدأ عليه التقصير في دروسها ،

فأثابته إلى العلم الشرعي والتزامه حلقات بعض الشيوخ في طلبه ، وسلوكه الديني الصارم ؛ كل ذلك لم يلائم بينه وبين بيئة هذه المدرسة . وشعر أخوه أنه يحمله على الذهاب إليها حملاً ، وأنه يقصره عليها من غير رغبة منه ، فوجد أن الاستمرار على هذا ضرب من العمل الفاشل ولا يهيء لأخيه في المستقبل عملاً يعتمد عليه للعيش ، فأخرجه من المدرسة الإعدادية سنة ١٩٢٣ م ، ووضعه عند معلم خياطة للملابس العربية ، ليتعلم عنده مهنة الخياطة ، ويتابع معها طلب العلم الشرعي كما يريد ، فكان محمد يعمل في النهار في الدكان ، ويحضر بعد المغرب دروس العلماء في المساجد ، وينضم بعد العشاء إلى الحلقات الخاصة لطلب العلم . على أن الأمر لم يطل به على هذا النحو كثيراً ، فقد افتتحت في حماة مدرسة دار العلوم الشرعية سنة ١٩٢٤ م ، فرغب محمد في دخولها ، وكان أخوه بدر الدين في تلك السنة في دمشق يتعمد دراسة الصف الأخير من دار المعلمين ، فأرسل خاله الشيخ سعيد الجاني يستشيريه في إدخاله فيها ، فأقر بدر الدين الفكرة ، وعلى الفور ترك محمد دكان الخياطة ، ودخل المدرسة الشرعية ، وتعين بذلك مستقبله العلمي . أ هـ .

المدرسة الشرعية في حماة

كانت أيام المدرسة الشرعية أسعد أيام حياته رحمه الله ؛ ففيها تحدد مستقبله العلمي الشرعي الذي كان يطمح إليه ، وفيها ظهرت عملياً إمكاناته الفكرية الهائلة التي تفضل الله بها عليه ، فرغم صغر سنه بين

أقرانه من طلاب المدرسة كان الاول بينهم . وما كان رحمه الله يهتم لشؤون المعيشة ، إنما كان همه في إرواء ظمأه العلمي وإشباع طموحه الفكري ، ولم تكن المدرسة الشرعية كافية له ، بل كان يتردد صباحاً ومساءً على الدروس العلمية الخاصة التي كان يعقدها بعض الشيوخ في المساجد لحواص طلابهم ، حتى بلغ عدد الحلقات العلمية التي كان يحضرها تسع حلقات في اليوم ، سمعت هذا منه رحمه الله تعالى . وهياً الله له في المدرسة وخارجها شيوخاً صالحين ، تحدث عنهم ، فقال :

« تأثرت بكثير من أساتذتي وشيوخي الذين لهم الفضل الكبير عليّ » ، كفضيلة خالي الكريم الأستاذ الشيخ محمد سعيد الجاني المدرس العام في حماة رحمه الله تعالى^(١) ، فهو الذي دفعني في سبيل العلم الديني ، وأمرني بحفظ القرآن الكريم ، وأقرأني مبادئ العلوم الدينية .

ومنهم فضيلة أستاذي الفقيه الجليل ، شيخ الشافعية في حماة ، ورئيس جمعية العلماء فيها ، الشيخ محمد توفيق الصباغ أدام الله توفيقه وجزاه الله عني وعن زملائي طلابه خيراً ، كان مديراً لدار العلوم الشرعية ، وكان يبذل جهداً كبيراً في تثقيفنا وتعليمنا ، ويحثو علينا نحو الوالد الرحيم على صغاره . أسأل الله له طول البقاء في توفيق وصلاح .

ومنهم سماحة الأستاذ الجليل الشيخ محمد سعيد النعساني مفتي حماة ، ذو الباع الطويل في العلوم والمعارف ، فقد كانت له مع فضل

(١) توفي سنة ١٩٤٨ م .

التعليم فضل رفع المهمة إلى معالي الأمور ، والترفع عن سفاسفها ، وما يزال أسعده الله في قيد الحياة^(١) قد جاوز المائة من العمر ، ونزل به مرض الشيخوخة ، ولزمته العلة . أسأل الله له العافية .

ومنها فضيلة عمي والد زوجتي ، الأستاذ الفقيه الحنفي ، الحجة العالم العامل ، التقي الورع ، الزاهد في الدنيا ، شمس علماء حماة وبدر شيوخها ، الشيخ أحمد المراد رحمه الله وبارك عليه ، إنه من شيوخه الذين لهم عليّ فضل التربية والتعليم ، وقد أكرمني الله فجعلني صهرأ له على ابنته ، وقد كان هذا قبل أن يكون لي مورد رسمي ومنزل آوي إليه ، ولكنه التوكل على الله سبحانه والايان به والوثوق بما عنده . كانت الفتوى في حماة وقراها تدور عليه وترجع إليه ، فقد كان أمين الإفتاء ، ولم تصدر عنه فتوى غير صحيحة ، وقد قال فيه سماحة العلامة الجليل مفتي الشام الأستاذ الشيخ محمد شكري الأسطواني رحمه الله تعالى :
(عنه تؤخذ الفتوى) أه^(٢) .

المدرسة

المخروية الشرعية في حلب

وفي سنة ١٣٤٧ هـ - ١٩٢٨ م أنهى رحمه الله تعالى دراسته في مدرسة حماة ، فرحل في السنة نفسها إلى حلب يبحث عن منهل علمي جديد

(١) توفي رحمه الله بعد ذلك قبل سيدي بنحو ثلاث سنوات .

(٢) ضيف الحضارة .

يروى منه ظمأه العلمي، فيها الله سبيل الانتساب إلى المدرسة الحسرية الشرعية فيها، وكانت تعتبر في ذلك الوقت أرقى المدارس الشرعية في بلاد الشام، والتدريس فيها منوط بنخبة من العلماء الكبار، فضلاً عن المناهج الواسعة التي كانت تدرس فيها. هذه المرحلة من مراحل طلب العلم، تعتبر أهم المراحل في حياة سيدي، فيها ظهرت شخصيته العلمية بين أقرانه وحتى بين شيوخه، فقد وصفه الشيخ أحمد الشماخ -- وهو أحد شيوخه في المدرسة -- قائلاً: «بحر علم لاتزحه الدلاء» ولم يكن رحمه الله تعالى يكتفي بدروس المدرسة، بل كان يحرص على شهود الدروس العلمية التي تلقى في مساجد حلب، فكان يداوم على دروس عالم حلب الكبير الشيخ نجيب سراج رحمه الله تعالى، ولقد سمعت سيدي يتحدث بعد ذلك كثيراً عن هذه الدروس، وعن الفوائد العلمية الكثيرة التي جناها منها.

ولم يكن رحمه الله تعالى يقتصر في دراسته العلمية على كتب المناهج الرسمية، بل كان يطالع الكثير من المصنفات، يدفعه إلى ذلك شغفه العلمي، وحرصه على بناء شخصيته العلمية بناءً كاملاً، وكم كان يذكر رحمه الله تعالى كلمة أخيه الأستاذ بدر الدين وهو في وداعه قبل سفره إلى حلب، قال له في محطة القطار: «أعوذ بالله من نصف عالم». قال الشيخ رحمه الله تعالى: «هذه الكلمة حفرت في قلبي، ولا يزال تأثيرها في نفسي منذ أربعين سنة».

وتحدث رحمه الله عن شغفه العلمي، فقال: «وإني أحمد الله تعالى على توفيقه وتيسيره إليّ للتوسع العلمي، ووضع الشغف به في

قلي ، حتى إني لأوثر العلم على اللذائذ المادية التي يقتتل الناس عليها ، ولو آني خیرت بین الملك والعلم ، لاخترت العلم على الملك والسلطان ، وذا من فضل الله عليّ وعلى الناس . ولم أكن فيما مضى من أيام دراستي مقتصراً على كتب المناهج الرسمية ، كلا . بل إني كنت أطلع عديد الكتب من قديم المصنفات وجديدها ، ولن يسلس العلم قياده لطالبه إلا بنحو هذا ، لأن المناهج الرسمية تعنى بتكوين الشخصية العلمية . أماملء الذهن بالمعلومات ، فطريقه المطالعة الواسعة يحذوها الشوق ويقودها الشغف» (١) أ ه .

وأما عن شيوخه في حلب ، فقد تحدث عنهم وعن تأثره بهم ، فقال :

« رحلت إلى حلب ، فانتسبت فيها إلى المدرسة الحسروية الشرعية ، وإنها لأرقى من مدرسة حماة الشرعية . وفيها علماء أجلاء ، فطاحل محققون ، تشد الرحال إليهم ، ويؤخذ العلم عنهم ، ويؤتسى بهم في الدين والخلق ، منهم : الأستاذ الشيخ أحمد الزرقا الفقيه الجليل الذي لم أجلس إلى أفقه منه ، حتى المشايخ الذين تلقيت عنهم في مصر من بعد ، بلئله الله ثراه وأغدق عليه شأبيب رحمته . كان يتفجر علماً ، ويتفتح تحقياً ، ويجري معرفة كالوادي إذا سال ، ولكأن الفقه كان أمامه ، يأخذ منه ما يشاء ويترك منه ما يشاء ، وأشهد أنه كان وقفاً عند حدود الله في بياناته العلمية ، فإن عرض له إشكال طلب إلينا أن نكتبه

(١) ضيف الحضارة .

له ، ثم يضعه في ثيابا عمامته ، ويأتينا في الغد بالقول الفصل ، وكان يقول : « العلم أمانة » وهذا الأستاذ الكبير أحد الذين تأثرت بهم من الناحية العلمية .

هذا إلى تأديبه لنا معشر طلابه ، وأخذة أيانا باحترام الأئمة والعلماء ، حتى من غير الخفية ، ولا أزال أذكر قوله في حلقة الدرس : (إني أتصور الإمام الشافعي رحمه الله تعالى جبلاً من العلم) وقد كان رحمه الله تعالى ذا هبة عظيمة ، وشيخوخة نيرة ، ولكنك إذا خالطته ، لمست فيه نفعاً طيبة متواضعة ، يمزج تقريراته العلمية بمزج لطيف ، ومداعبات حلوة .

ولم يكن من أهل الشطح والكبر ، الذين يذكرون فضل الفضلاء السابقين ، بل كان يتهم نفسه ، ويقول : « استرحنا من حيث تعب الكرام » مع أنه كان في تلقيه عن والده الجليل الأستاذ الشيخ محمد الزرقار رحمه الله تعالى ، قمر به سنون لا ينلم من الليل إلا قليلاً ، ويطلع نحواً من عشرين كتاباً علمياً فقيهاً على الكتاب الذي كان يتلقاه عن والده ، وكان يرجع إلى الكتب التي نقل عنها المحقق الشيخ ابن عابدين في حاشيته الشهيرة ، التي سماها « رد المختار » وكان يرجع إليها ، فيجدها وإهما في بعض النقول ، أخبرنا بهذا عن نفسه .

وهناك غيره في المدرسة ، أفذاذ فضلاء : كاشيخ أحمد الكردي مفتي الحنفية في حلب ، والشيخ عيسى البيانوني ، والشيخ إبراهيم السلطيني العالم العامل والتقي الورع ، والشيخ محمد الناشد ، والشيخ راغب الطباخ ، والشيخ أحمد الشماع ، والشيخ عبد المعطي ، الواسع المعرفة

في فقه المواريث ، والشيخ فيص الله الايوبي الكردي المحقق العظيم في علمي التوحيد والمنطق ، والشيخ محمد أسعد العجبي مفتي الشافعية حالياً في حلب ، وهو والشيخ عبد الله حماد الباقيان في قيد الحياة من مشايخي ، جزاهم الله خير الجزاء ، وبارك عليهم أحياء وأمواتاً^(١) . أ ه .

وبما يزيد في أهمية هذه المرحلة بالنسبة لسيدي رحمه الله تعالى ؛ أنه فيها حصل له التحول الكبير عن أفكار دعاة السلفية ، التي كان يتبناها منذ كان في حماة ، إلى السلوك في طريق التصوف على يد شيخه العظيم الشيخ محمد أبي النصر خلف الحمصي النقشبندي رحمه الله تعالى ، وسيمر معنا تفصيل هذا التحول في بحث التصوف إن شاء الله تعالى .

الْعَوْدَةُ إِلَى حِمَاة

وفي سنة ١٣٤٣ هـ عاد رحمه الله إلى حماة بعد أن أنهى دراسته في حلب ، ولم تطل فترة استقراره في حماة ، فقد رحل عنها سنة ١٣٥٦ هـ إلى مصر ، ملتحقاً بالأزهر الشريف . لكنها كانت رغم قصرها ذات أهمية كبرى في حياته رحمه الله تعالى .

ففي هذه السنوات الأربع أثبت الشيخ مكانته العلمية ، فجذب أنظار علماء البلد إليه ؛ حتى إنهم أكرهوه على أن يستلم

(١) ضيف الحضارة .

بعض المناصب الدينية في البلد ، وكان لها كارهاً ، ففي سنة ١٣٥٤ هـ كلف بالخطبة في جامع الأشقر ، وألقى أول خطبة في الجامع المذكور يوم الجمعة لأربع خلون من ربيع الآخر . ذكر ذلك رحمه الله في رسالة أرسلها إلى شيخه أبي النصر ، قال فيها :

« فقد توجهت على الفقير ولدكم خطبة الجمعة في جامع الأشقر ، بعد أن عرضت عليّ فرفضتها ، ولكن المشايخ - حفظهم الله تعالى - أصرّوا على قرارهم ، وعملوا جهدهم لإقناعي ، فقبّلت وخطبت في الجامع المذكور يوم الجمعة الماضي ، وإني أحمد الله تعالى على توفيقه ، الذي لا شك في حصوله ببركة انتدائي إليكم ، وانتسابي لسدتكم العالية ، وقد طلب مني بعض جيران المسجد درساً عقب الصلاة ، كما كان يفعل الخطيب السابق ، ففعلت ولطف الله تعالى بي ، وله سبحانه الحمد على كل حال » أهـ .

وفي هذه الفترة أيضاً ، خاض الشيخ صراعاً فكرياً عنيفاً ضد الذين كانوا يناوئون الصوفية في حماة ، وهم أتباع خاله الشيخ سعيد الجابي رحمه الله تعالى ، ومن المعلوم أن سيدي كان موافقاً لهم قبل رحلته إلى حلب ، بل إن خاله الشيخ سعيد كان بعدة ليكون خليفته في هذا ، فأصيبوا بتحويله إلى الصوفية بنجبة أمل مريرة ، زاد من مرارتها ، الموقف الصارم الذي وقفه الشيخ منهم ، حتى تمكن رحمه الله من تثبيت أقدام الصوفية في البلد ، بعد أن زعزعتها الحملات العنيفة التي كان يشنها الشيخ سعيد عليهم في دروسه العامة .

وإن موقف سيدي - رحمه الله - هذا ، هو الذي أدى إلى تركه

الخطبة في جامع الأشقر ، لكن الله سبحانه وتعالى عوضه عنه بجامع السلطان ، كما جر عليه كثيراً من التعب والعناء ، فنصحته شيخه أبو النصر أن يتعد عنهم ، وعن مكالمتهم ومجادلتهم . وأنى له هذا وهو قريب منهم ! ولذلك كتب إلى شيخه رحمه الله قائلاً : « كتتم أرسلتم لي كتاباً تأمروني فيه بالابتعاد عن المنكرين بقدر الإمكان ، وعدم مكالمتهم ومجادلتهم فيما يتعلق بأمر الطريق ، وقد وفقني الله تعالى لامثال أمركم حسب الطاقة ، ووجدت له أثراً حميداً في نفسي وأسعرتُ بالتقدم والزيادة من الخير ببر كتكم وعطفكم ، غير أنني لا بد لي ياسيدي من الخلطة ببعضهم ، والاجتماع بهم ، وأنا من هذا تجاه أمر واقع ، أتمنى الخلاص منه ، فلا أقدر عليه ، ولا يخفى على مولاي — أعزه الله تعالى — أن المنكر لا يصبر عن الجدال مصداقاً لقوله ﷺ : « ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه ، إلا أعطوا الجدال »^(١) وعن هذا تقوم المجادلات بيننا ويشتد الخصام ، ولا نتوصل لنتيجة مرضية ، ويتعبني ذلك تعباً عظيماً وعناءً كبيراً ، وأحس بظلمة أرواحهم تسري إلى قلبي ... هذا وقد صار لي سوء الحظ بهم ، وليتني أتمكن من النجاة منهم ، فلا أراهم ولا أسمع بهم » أه .

ومع كل هذا لم ينقطع الشيخ رحمه الله تعالى عن دراسته العلمية ، فقد كان دائب المطالعة ، يحضر الحلقات العلمية . وقد سهل الله تعالى له أن يستلم حجرة في الجامع الجديد ، جعل منها بعد ذلك مكاناً لدراسة العلم مع بعض زملائه ، من شباب المشايخ في البلد . كما أنه

(١) رواه أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم . انظر الفتح الكبير .

بدأ يلقي دروسه العامة في هذه الفترة ، ففي سنة ١٣٥٣ هـ عهد إليه الشيخ أحمد المراد - رحمه الله تعالى - بالتدريس مكانه بعد الظهر في الجامع الجديد . وبعد تركه جامع الأشقر ، طلب منه الشيخ أديب الحوراني - رحمه الله تعالى - أن يخطب عنه في جامع السلطان ، وبعد مدة كلفه بالتدريس . ومنذ ذلك الوقت أصبح مسجد السلطان المركز الرئيسي لجهوده التعليمية .

الرحلة إلى مصر

وفي عام ١٣٥٦ هـ الموافق ١٩٣٨ م سهل الله تعالى له سبيل الارتحال إلى مصر ، والانتساب إلى الأزهر ؛ ليتم دراسته العالية فيه . والواقع أن هناك عدة أسباب لرحلة مصر . أهمها ذكره في رسالة أرسلها إلى صديق له في مصر قبل انتهاء دراسته في حلب بسنة ، فقال في هذه الرسالة : « أريد أن أتحدث إليك بشيء يحول في ذهني ، وإن كان هذا الحديث سابقاً لأوانه ، يوشك أن أنهي دراستي في المدرسة ، إذ ليس بعد الصف السادس شيء آخر ، وقد يعرض لي الآن أني أين أذهب بعد ذلك لتحصيل العلم ؟ وهل نسمّ منهل علمي عذب يروي ظمىء العلم ويبرد غلته ؟ إذ لا يكفيني أن أحظى بالشهادة المدرسية ، ثم ارتد إلى بلدي ، ولا يعلم إلا الله ما سيكون لي بعدئذ من القواطع والشواغل ، أفكر في هذا الأمر ، فيصح عزمي على التغرب عن الوطن ، ولا أجد في عيني مكاناً أكبر من الأزهر الشريف ، فأرغب في الرحلة إليه والانتظام في سلك طلابه » .

ومنها أيضاً سبب ذكره في رسالة أرسلها إلى شيخه أبي النصر بعد عودته إلى حماة ، قال فيها : « إن موقفى في حماة أخرج موقف ، فقد عاداني أقاربي وأتباع خالي ، وهم أكثر الناس عندنا ، وأصبحت غير مقبول النصح عندهم ، ومخدوشاً من الوجهة العالمية في نظرهم ، إذ يرون أن علمي خرافات وبدع جثتهم بها ، وقد فسد الرأي العام عندنا ، وأصبحت غريباً في وطني ، وغير خاف عليكم ضعف الطلب في حماة ، وإني أمرؤ أرغب في العلم ، لهذا كله أستاذتكم فأذنتم لي ، وإني أعلم ما سأحمله من المشقة في البعد عنكم وعن إخواني ، ولكن الغاية التي أطلبها تدفعني إلى احتمال المصائب وتلقي الشدائد ، وقد قال لي أحد أسياسي لما ذكرت له أن الشوق لسيدي يكاد يجعلني أحياناً على العدول عن الأزهر : (إن هذا السفر سعادة نلتها بسر شيخك . وذكر لي أن الذي يريد نشر الطريق في حماة ، ينبغي أن يكون واسع العلم ، لا يعبأ بالمنكرين ، بل يقيم الحجة عليهم ، ويلزمهم الحق بالدليل ، وهذا أمر لا تقدر عليه بدون تعلمك في الأزهر الشريف) فوجدت لقوله وجهاً من الصواب » . أ هـ

وقامت في وجه رحلة مصر عقبات ، لم يستطع رحمه الله اجتيازها حتى عام ١٣٥٦ هـ ، ففي هذه السنة سافر إلى مصر ، وهو يظن أن المجتمع المصري لا يفترق كثيراً عن المجتمعات في حلب وحماة ، وإذا به يفاجأ باختلاف كبير ، فقد سبقت مصر البلاد العربية في تأثرها بأفكار الغربيين وعاداتهم ، فانتشر فيها السفور والاختلاط بين الرجال والنساء انتشاراً كبيراً ، وخاصة في القاهرة والإسكندرية ، ولم يكن

الشيخ رحمه الله تعالى يحتمل رؤية المنكرات ، وما كان يطبق صبراً في السكوت عنها ، وحتى في الأزهر لم يجد المجتمع الصالح الذي كان يعيشه في حلب وحماة ، ففي إحدى رسائله إلى شيخه ، قال : « ماذا يأمل طالب العلم الحقيقي في مصر ، وهو يرى المحرمات من بين يديه ، ومن خلفه ، وعن يمينه ، وعن شماله . ويأخذ عن قوم غير عاملين بالسنة ، وليس عندهم شيء من الروحانية ، ومع طلبة يخلقون لحاهم وشواربهم ، وكثيرون منهم لا يصلون ، وهم يشاغبون أثناء الدروس ، ويقروءون في الجرائد ، لعدم رغبتهم في العلم ، وقلة تشوقهم له ، ولثلاث تكثر عليهم المقروءات ، فيصعب الفحص ، فهم طلاب شهادات لاطلاب علم ، إذ لا يقرءون إلا بعض المقرر عليهم ، ويعطون أكثر العام .

كتب إلي بعض الناس من حماة ؛ بأن أزم غرقي ولا أخرج منها ، كأنهم يظنون أن مصر كحماة ، وغفلوا عن أنني أمر في طريقي إلى المدرسة على ألف منكر ومحرم . إلي كنت أقرأ في بلادي أكثر مما كنت أقرأ في مصر وأستفيد أكثر مما أستفيدة اليوم . والله تعالى مسبغ علي نعمه الكثيرة ، ولكن النفس لم ترض بذلك ، حتى فارقت الخير إلى الشر ، والله الأمر من قبل ومن بعد^(١) . أ هـ

ولم يستطع رحمه الله تحمل رؤية المنكرات ، فما كان منه بعد بضعة أيام من وصوله ، إلا أن عاد إلى حماة . ولكن الناس في حماة استهجنوا عودته ، ولأموه أشد لوم ، وأصبحت عودته حديث الأنديّة ،

(١) من رسائل مصر .

فأينما ذهب تأخذه الأبصار ، وحيثما سار تتبعه الغمزات والابتسامات .
وسبب ذلك أن الناس كانوا ينظرون إلى الأزهر نظرة إجلال وإكبار ،
ويعتبرون الدراسة فيه نعمة كبرى ، وفرصة عظيمة ، لا يجوز في
نظرهم تفويتها والإعراض عنها ، ولهذا استقبلوا سيدي رحمه الله بمبا
استقبلوه به ، وأنكروا عليه إنكاراً لم يستطع احتماله ، فكرر رجوعاً
إلى مصر وترك حماة ليلاً ، ولم يتمكن من زيارة شيخه لوداعه . فكلّف
أخاه الأستاذ عبد الغني أن يكتب إليه معذراً ، ولما وصل إلى مصر
كتب إليه يشرح له حاله ، وما لاقاه من الناس ، ويعتذر عن عدم وداعه ،
فقال :

« السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، وبعد : فإني أكتب إليكم .
هذا الكتاب من مصر ، وقد شاء الله تعالى عودي إليها ، بعد أن
خرجت منها على أن لا أعود إليها ، ولكن إرادة الله تعالى فوق كل
إرادة ، وحكمه سبحانه نافذ لا محالة . إني ياسيدي بعد أن فارقتكم
إلى حماة ، لقيت من دهشة الناس واستغرابهم لمجيئي أمراً عظيماً ، وهما
جسيماً ، ووقعت في خجل كبير ، وصرت كاسف البال ، حزين القلب ،
محتاراً في أمري ، وكانت أسئلة الناس موجبة إليّ ، فكنت أجيب كل
إنسان بما أظن أنه يقنعه ؛ ولكن هيات هيات ! فقد كنت ألمح
الاستخفاف بي ، والحكم عليّ بالجنون من نظرهم ، وأخيراً اضطررتني
الحال إلى أن أخرجت إلى البرية وقضيت فيها بضع ساعات فراراً من
الناس وتواريأ عنهم . وتقرر بالذاكرة مع أخوي ، أن أرجع إلى
مصر لأن بقائي في حماة أمر صعب جداً ، وقد اتضح لي أنني لا أستطيع

القيام بالتدريس والخطابة كما كنت من قبل ؛ لأن نفسي انكسرت
انكساراً عظيماً ، فلم يعد لها من النشاط ما كان لها أولاً ، فكانت
خروجي من بلدي على حال تشبه حال المضطر إلى الخروج .

فسافرت ليلاً ، ولم يخرج معي إلى المحطة إلا أخي عبد الغني ،
وكان قصدي الوصول إلى بيروت للتأشير على الجواز ، ولم يقسم لي المرور
عليكم والحصول على بركة إذنكم الشريف بت ليلة في
بيروت ، وثانية في حيفا ، وفي أواسط الليلة الثالثة ، وصلت مصر ، فأنا
اليوم فيها ، طالباً دعاءكم لي بالتثبيت ، وتوجهكم إليّ يا صلاح
قلي^(١) ، أه .

والحقيقة أن ما يراه الزائر لأول وهلة في مصر ، لا يعبر عن حقيقة
الاجتماع المصري ، فالاجتمع المصري ينطوي على خير كثير ، ولا يزال في
مصر الكثير من العلماء والصالحين ، وهذا ما حصل لسيدي رحمه الله ،
فبعد بضعة أشهر تغيرت نظراته إلى الاجتماع المصري ، فكتب إلى
شيخه قائلاً :

« الآن علمت وتحققت ، أن في مصر عدداً كبيراً من الصالحين ،
فإن هذه الأيام أيام مولد سيدنا الحسين رضي الله تعالى عنه ، فيحضر أهل
القرى والبلدان والأقاليم إلى القاهرة ، وتكثر فيها الناس من أهل
الطرق ، وتزخر بهم ، ويقفون حضرات الأذكار في مسجده رضي
الله تعالى عنه ، وقد رأيت في هؤلاء الذاكرين وجوهاً شريفة ، تدل

(١) من رسائل مصر .

على قلوب طيبة وأسرار بالله عامرة ، وكنت أقف مع كل حلقة قليلاً متبركاً ، وأكثر وقوفي في حلقة الشيخ عبد الخالق الشبراوي الرجل المخلص الذي تظهر البركة عليه وعلى أتباعه ، أ ه .

وانقلب الكره والنفور عنده إلى محبة لمصر وأنس بالمصريين ، فتعرف على كثير من الصالحين ، وأقام صداقات قوية معهم ، واشتهر بينهم بلقب الشيخ الحموي ، وكانوا يرسلونه عندما يعود أثناء العطلة الصيفية إلى حماة . ولما أنهى دراسته فيها ، ألحوا عليه بالبقاء ، وأخبروه أنهم يستطيعون تأمين عمل له ، وأنهم مستعدون لتزويجه ومساعدته في هذا الأمر ، لكنه رحمه الله تعالى آثر العودة إلى بلده ، فودع مصر باكياً على فراقها في عدة قصائد ، منها :

ذبتُ بِمِصرٍ مذ عِزمتُ رَحيلًا ولو اسطعتُ عشتُ فيك طويلاً
كنتُ بمن رَموكَ بالنكر لكن عادَ صوتُ النكير قولاً جليلاً^(١)

وفي مصر تعرف على الشهيد حسن البنا رحمه الله تعالى ، وتحولت هذه المعرفة إلى علاقة حية عالية بينها ، تحدث عنها سيدي رحمه الله تعالى ، فقال :

« والذي أثر في نفسي تأثيراً من نوع خاص ، وله يد في تكويني الشخصي ، سيدي وأخي في الله وأستاذي ، الإمام الشهيد حسن البنا رحمه الله ، وأغدق عليه غيوث الإحسان والكرم ، صحبته في مصر سنين ، وحديثي عنه لو بسطته ، لكان طويلاً

(١) القصيدة كاملة في الباب الخامس من هذا الكتاب .

الذيل ، ولكانت كلماته ، قطعاً من قلبي ، وإفلاذا من كبدي ،
وحرقاً من حرارة روحي ، ودموعاً منهلة منسجمة تشكل سيلاً
من فاجع الألم وعظيم اللوعة .

ولكنني أكتفي بالإيجاز من الاطناب ، وبالاختصار من
التطويل ، وقد بكيته كثيراً بعد استشهاده على نأي الدار وشط
المزار ، ولا أزال أذكره حتى ألقاه في زمرة الصالحين إن شاء الله
تعالى وتبارك .

إنه أخي قبل إخوتي في النسب ، ولما وافاني نبأ اغتياله قلت :
إن موت ولدي - ولم يكن لي غيرها حينئذ - أهون عليّ من وفاة
الأستاذ المرشد .

وكنت رأيت فيما يرى النائم ليلة قتل ، ولا علم عندي بالذي
حصل ، رأيت أننا في معركة مع اليهود ، وقد بدأ التقهقر في
جندنا ؛ حتى إني لأمشي منجئاً لثلاثي رصاصهم ، فاستيقظت
واستعذت بالله من شر هذه الرؤيا . وفي النهار ألقى إليّ بعض
الناس الخبر ، فكان وقعه أشد من شديد ، وكان تأويل رؤيائي .

إني أقولها كلمة حرة ولا بأس بروايتها عني ، أقول : إن المسلمين
لم يروا مثل حسن البناء منذ مئات السنين ، في مجموع الصفات التي
تجلى بها ، وخفقت أعلامها على رأسه الشريف . لا أنكر إرشاد
المُرشدين ، وعلم العالمين ، ومعرفة العارفين ، وبلاغة الخطباء
والكاتبين ، وقيادة القاندين ، وتدبير المدبرين ، وحنكة السائسين .

لا أنكر هذا كله عليهم ، من سابقين ولاحقين ، لكن هذا التجمع لهذه المتفرقات من الكلمات ، قلما ظفر به أحد كالإمام الشهيد رحمه الله .

لقد عرفه الناس وآمنوا بصدقه ، وكنت واحداً من هؤلاء العارفين به ، والذي أقوله فيه قولاً جامعاً : هو أنه كان لله بكليته ، بروحه وجسده ، بقالبه وقلبه ، بتصرفاته وتقلبه ، كان لله ، فكان الله له واجتباؤه وجعله من سادات الشهداء الأبرار .

إن سيدي وأخي الإمام الشهيد ، ذو وفاء في حياته وبعد وفاته ، فقد تراءى لي في المنام كثيراً في مدى سنين ، وقد رأيت فيما يرى أني جالس معه في جملة من أصحابنا ، على مائدة فيها أطباق خبز وأطباق ريحان يؤكل ، لكنه ريحان من النوع الممتاز . فاستيقظت ، وذكرت قول الله تعالى : « فأما إن كان من المقربين . فروح وريحان وجنة نعيم »^(١) أه .

وفي مصر أيضاً ، التقى بالعالم الكبير الشيخ زاهد الكوثري رحمه الله تعالى^(٢) ، وقد نصح سيدي أن لا يختلط بالناس كثيراً ، وذلك

(١) ضيف الحضارة . والآيتان هما ٨٨ و ٨٩ من سورة الواقعة .
(٢) كان وكيل المشيخة الإسلامية في دار الخلافة العثمانية ، وأستاذ العلوم القرآنية في (معهد التخصص في التفسير والحديث) وأستاذ الفقه وتاريخه في القسم الشرعي من الجامعة العثمانية ، وأستاذ العربية في دار الشفقة الإسلامية .
نجاً إلى مصر بعد سقوط الخلافة العثمانية وتوفي فيها سنة ١٣٧١ هـ رحمه الله تعالى .

لما لاحظته عند سيدي من شدة نفوره من المنكرات ، وتألمه من رؤيتها
وفيها أيضاً تعرف على الرجل الصالح ، والعالم العامل ، فضيلة
الشيخ مصطفى الحماي رحمه الله تعالى ، تأثر به كثيراً وأعجب بصلاحه
وتقواه ، وكان كثير الزيارة له ، وبعد عودته من مصر ، كان كثير
الحديث عنه .

ومن الملاحظ أن أكثر الذين تأثر بهم سيدي في مصر ، كانوا من
خارج الأزهر ، ولم يستفد من الأزهر زيادة في علمه . فقد قالوا له بعد
اختبار الانتساب إلى الأزهر : « إنك عالم لا تحتاج إلى الدراسة فيه »
ولكنه كان يعلن أنه استفاد من دراسته في الأزهر طريقة تحقيق المسائل
وتدقيقها ، وهو أمر ظاهر في آثاره العلمية وفي أجوبته الفقهية ، وكان
زملاؤه في الدراسة يدهشون من كثرة معلوماته ، وغزارة محفوظاته ،
وخاصة في الأحكام الفقهية ؛ حتى إن الشيخ مصطفى السباعي رحمه الله
تعالى - وكان زميل الشيخ في الدراسة الأزهرية - كان كثيراً ما
يقول له : « إنك مدهش ؛ من أين لك معرفة كل هذه الأحكام ؟ ! »

ولما أنهى دراسته العالية بتفوق ، طلب منه المشرفون على
الأزهر أن يدخل قسم التخصص العالي ، ولكنه رحمه الله تعالى أبى
وآثر العودة إلى بلده ؛ لشدة حاجة البلد إليه . ولأنه رحمه الله ملّ
الدراسات المقيدة ، ذات الصبغة المدرسية المحدودة . يظهر لنا هذا مما
كتبه إلى شيخه قبل امتحان السنة الأخيرة ، فقد قال : « ولعل الدعاء
لي بالنجاح غير منسي منكم ، فقد طال عهدي بالغربة ، ووقعت منها
في الكربة . طال عهدي بالدراسات الرسمية ، وأصبحت تواقفاً إلى

الدراسات الحرة، التي يروى بها قلب الظمآن ، وينهل من مناهلها العذبة الباردة ما يبرد غلته ، ويطفىء أوامه^(١) ، كما طال عمري في الحياة المشردة غير المستقرة، وصرت ميالاً بقوة إلى حياة هادئة مطمئنة ، لا اضطراب فيها ولا انتقال ،^(٢) أ هـ .

الاستقرار في حِماة

وفي عام ١٣٦٢ هـ / ١٩٤٢ م عاد رحمه الله إلى حِماة ، ليعيش آخر مراحل حياته . وفي هذه المرحلة أثمرت جهوده ، وأينعت ثماره ، ومع أنها مرحلة الاستقرار ؛ فإنها كانت أكثر مراحل حياته ، تعباً ومشقة ، فهي مرحلة الجهاد ، لا في ميدان واحد ، وإنما في ميادين متعددة أهمها :

جهادُه الوطني

لما عاد الشيخ إلى حِماة ، كانت البلاد في ذروة جهادها الوطني من أجل الحصول على الاستقلال ، وهذا أحد الأسباب التي دفعت الشيخ للرجوع إلى بلده . ليضم صوته إلى أصوات المطالبين بالاستقلال ، ويندكي بخطبه الحماسية جذوة النضال والجهاد في قلوب الأمة ، داعياً إلى

(١) الأوام كفرا ب : العطش أو مره . أ هـ قاموس .

(٢) من رسائل مصر .

الثورة على المستعمرين ، وتطهير البلاد منهم ، وهو الأمل الذي كان يرآوده منذ رآهم يدخلون البلاد ، وكان وقتئذ في العاشرة من عمره ، فلقد سمع بعض تلاميذه منه أنه عندما رأى موسيقاهم في شارع المرباط في حماة ، يتقدمهم قائدهم وهو يلعب بالعصا ، بكى تأثراً بـدّل أن يُسرّ لنظرهم ، كما هو الشأن عند الأطفال ، ودعا الله سبحانه وتعالى ببراءة الطفل وصفائه ، أن يريه خروجهم من حماة كما شاهد دخولهم ، ولقد حقق الله أمنيته هذه ، وأقر عينه برؤيتهم يخرجون من نفس الشارع ، والناس يرمونهم بما يصل إلى أيديهم أيام الجلاء . وفي إحدى خطبه قال :

« أما بعد : فالمعهود بإزالة النجاسة استعمال الماء ، وإن تفاحش غلظها أضيف إليه التراب ، قال عليه الصلاة والسلام : (إذا ولغ الكلب في إناء أحدكم ، فليغسله سبعاً إحداهن بالتراب^(١)) ولكن هناك نجاسة لا يستتار ربع قرن ، ولا ينفع في إزالتها ماء ولا تراب ، إذ ليس ما يقلعها إلا الحديد والنار^(٢) » أه .

ولم يبال رحمه الله بطغيان المستعمرين وإرهابهم وبطشهم ، بل اندفع يزار من فوق منبر السلطان ، داعياً إلى الجهاد والثورة المسلحة ضد المستعمرين . وبما قاله في ذلك : « أيها المسلمون ، أعدوا أنفسكم للجهاد ، وطنوها على الموت ، موت شريف خير من حياة تعيسة ، ضربة

(١) رواه الإمام مسلم وأبو داود والنسائي وأحمد والترمذي . انظر الفتح الكبير .

(٢) من الخطب المكتوبة .

بسياف في عز خير من صفقة بيد في ذل ، طعنة برمح في شرف أحب
إلى القلب الكبير من نظرة شزاء في مهانة ، ركوب الصعاب والأهوال
في ارتفاع أجمل بكثير من الراحة والدعة في استخذاء .

أيها الإخوان لقد استخفت فرنسا بنا ، وخاست بكل العهود ،
ولم ترع للمواثيق حرمة ، لقد طلبت منا آخرأ أن نقبل أمورأ ، فيها
ترسيخ أقدامها في هذه البلاد واستعباد أهلها ، فاغضبوا ثم اغضبوا ،
وثوروا ثم ثوروا ، فما عاد السكون ينفع ، وما عاد السكوت يفيد ،
لقد كان نبيكم صلوات الله عليه وسلامه يرتجز هو وأصحابه قائلين :

المشركون قد بغّوا علينا وإن أرادوا فتنة أئیننا

أئیننا أئیننا

وما أجدرنا إعادة ذلك الرجز قائلين :

هذي فرنسا قد بَغَتْ علينا وإن أرادت فتنة أئیننا

رددوا معي : أئیننا . أئیننا . أئیننا

أيها الإخوان ، إن العالم يرقبكم ، وينظر من قرب ومن بعد
إلى هذا الصراع بين الحق والباطل ، بل إن رسول الله صلى الله عليه
وسلم وأصحابه ينتظرون ما أنتم فاعلون ، بما خلفوا لكم من تراث
مجيد عجنوه بدمائهم الزكية ، فهل ياترى تحتلط دماؤكم بدمائهم في هذه
الأرض ، أم تضنون بها ، فلا يكون لكم حظ من هذا السخاء الشريف (١) .

(١) من الخطب المكتوبة .

وأثناء إضراب البلاد احتجاجاً على المستعمرين ، كان ينبه الناس لمساعدة العمال الفقراء الذين انقطع مورد رزقهم أثناء ذلك ، ففي إحدى خطبه قال : « وأمر آخر أيها الإخوان ، له أهمية وله قيمة ، هو العطف على العمال الفقراء الذين برهنوا على وطنية صادقة ، وإيمان متين باستمرارهم في الإضراب مشاركين إخوانهم في إظهار الشعور المجيد^(١) » أهـ .

ولم ينقطع - رحمه الله تعالى - عن خطبه المنبرية أيام الجمع في أشد ساعات الخطر ، فلقد خطب وطاقرات المستعمرين تضرب حماة ، وتلقي قنابلها على المساجد . ولما كلل الله جهاد الأمة بالنجاح ، ونالت استقلالها ، شارك الشيخ - رحمه الله تعالى - في أفراح الاستقلال ، ورفع يده علم الاستقلال على الثكنات العسكرية ، التي كانت مركزاً لحامياتهم العسكرية في مشارف البلد الغربية ، بعد أن أذن بنفسه فيها .

ولما وقعت مأساة فلسطين ، تألم الشيخ كثيراً ، ودعا إلى الخروج للجهاد ، وأراد رحمه الله أن يخرج بنفسه ، ولكن كبار العلماء أشاروا عليه بالبقاء لحاجة الأمة إليه ، ولكثرة عدد المجاهدين ، فانضم إلى اللجان المشكلة لأجل مساعدة اللاجئين ومواساتهم ، وجمع المعونات المادية لهم ، وكان يطوف على الناس بنفسه لهذا الغرض . ولقد استحوذت قضية فلسطين على اهتمامه ، فخصص لها الكثير من خطبه المنبرية ، وكتب عنها عدداً من المقالات في الصحف والمجلات .

(١) من الخطب المكتوبة .

وكان يرى رحمه الله تعالى ، أن حالنا مع اليهود لا تحلها إلا القوة ، ولقد جعل ذلك عنواناً لمقال نفيس ، نشره في بعض المجلات وضمته كتابه المشهور ردود على أباطيل ومما قاله فيه :

« هم قد أفلقتي وأبعدني عن الهدوء ، وزج بي في غمرات الحزن ، ولم لا أحزن وأحطّر يدنو ، والشر يكبر ، والأمر لا يزداد على الأيام إلا شدة ، وقوى الشر لا تنفك تزيد العدو المغتصب ، وتدفع عنه ، وتمده بما يزيد له لجأاً في باطله ، وإمعاناً في غيه !! أي شر هذا الشر الذي منيناه ، وأية غفلة غفلتنا عن تقدير حقيقته ؟ الويل لنا إن دامت غفلتنا ، وطال ثاؤنا على الأباطيل ، وتعلقنا بالأمانى والأحلام ، دون أن نواجه الحقائق المرة القاسية حالنا مع اليهود لا تقبل هدنة ، ولا تدنو من صلح ، إنها عقدة لا تحلها إلا القوة وإنهم ليسابقونا إليها ، لياكلونا بها ، ويذيبونا في أحشائهم ، فلنأخذ نحن بأسباب هذه القوة التي تخضع شوكتهم ، وتكسر رؤوسهم ، وتردم على أعقابهم مدحورين ، وإنما لتعتمد قوة النفس وصلاحها ، وصلتها الوثقى بالله تعالى العزيز القدير ناصر المؤمنين ، كما تعتمد إعداد السلاح ، ولن تم القوة والميوعة أصل لديننا معتمد ، والحرب للدين طويق معبد ، ومحاربة الله بالفسق عن أمره معلن بها^(١) » أهـ .

وكان دائم الوصية للشباب ، لينضموا إلى الجيش ، ويكونوا من ضباطه وجنوده ، وفي عام ١٩٥٦ م أثناء الاعتداء الثلاثي على مصر

(١) انظر ردود على أباطيل .

انضم الشيخ إلى صفوف المقاومين الشيعيين ، وحمل السلاح بنفسه ، وكان يخرج على رأس إحدى المجموعات إلى حقول التدريب . ولما وقعت نكسة حزيران عام ١٩٦٧ م اتصل رحمه الله بحافظ البلد ، وعرض عليه نفسه وجهوده ، وأخذ يشد من عزيمة الناس ، ويعمل على تقوية معنوياتهم ، ويدعوهم إلى التدريب على استعمال السلاح ، وقد خرج بنفسه رحمه الله إلى حقول التدريب والرمي ؛ ليتدرب على إصابة الهدف بصورة عملية . وعين عضواً في اللجان المشكلة حينئذ لتنظيم الدفاع عن البلد ، كما قام بدعوة لجان من الأحياء المختلفة ، بواسطة جمعية العلماء ، لمساعدة المحتاجين وأمر المجاهدين .

جِهَادُ الاجْتِمَاعِي

منذ أن استقلت البلاد ، أدرك الشيخ - رحمه الله تعالى - أن الأمة أصبحت على مفترق الطرق ، فقد ظهرت فيها دعوات مختلفة الاتجاهات ، تدعو إلى الميوعة ، والتحلل من التكاليف الدينية ، ونشر الفساد في البنية الاجتماعية للأمة ؛ وذلك بتشجيع السفور والتبرج ، واختلاط الرجال بالنساء . هذا فضلاً عن أفكار تشكك الناس بعقيدتهم وتدفعهم إلى الإباحية والإلحاد .

ورأى أن واجبه الأول في هذه الحياة ، أن يقف في وجه هذه التيارات ، وأن يعمل للحفاظ على عقيدة الأمة وذاتيتها المستقلة ، وكيانها المتميز ، فقام رحمه الله تعالى بهذا الواجب ، متحملاً كل متاعبه ومسؤولياته ، ومعرضاً نفسه لخاطر جسيمة .

ولقد امتاز جهاد الشيخ في هذا المضمار بصفات أهمها :
أولاً : السلاح الوحيد الذي استعمله الشيخ في جهاده هذا هو
العلم ، والزد العلمي المقنع المؤيد بالأدلة والبراهين ، ترينه العاطفة
الصادقة ، النابعة بصدق وإخلاص من قلبه الكبير .

ثانياً : لم يكن الشيخ في جهاده ، يعادي إنساناً معيناً أو فئة
خاصة ، فقد كان يعتبر نفسه بجميع الناس ، ولهذا لم ينضم إلى جماعة
معينة ، ولم ينتظم في سلك فئة من الفئات . بل على العكس ، كان
يرى أن كثرة الفئات والجماعات في الأمة ، خطر يهدد وحدة الأمة ،
ويمزق كيانها . ويرى أن العالم يجب أن يكون لكل الناس ، وفوق
كل الفئات والجماعات ، حتى يبقى مسموع الكلمة والنصح عند الجميع .

ثالثاً : كان - رحمه الله تعالى - في معارضته للتيارات الفكرية
الفاصلة ، يحرص على السلم والأمن ، ويتجنب إثارة الفتن والقوضى ،
لئلا يؤدي ذلك إلى فساد أكبر ومنكر أعظم . وكان كثيراً ما يردد :
« نحن عنصر سلام ، وأينما حللنا حل السلام . لا نريد الشر لأحد من
الناس ، ونتمنى أن يخلق الله الخير على يد أي إنسان » ولقد ظهر موقفه
هذا بصورة عملية ، في الحوادث الكبيرة التي مرت على حماة سنة ١٩٦٤م
عندما قام رحمه الله تعالى بدور كبير ، لتهدئة القلوب ، وإعادة الوئام
والسلام إلى النفوس . وكان في هذا عنصر الرحمة والخير والبر ، هياه
الله سبحانه لهذا البلد ، مواسياً للمحزونين ، ومساعداً للمحتاجين ، ومخففاً
كرب المكروبين . ولم يكن رحمه الله يقتصر في مجاهدته للمفاسد
الاجتماعية والفكرية على جانب واحد في الأمة ، إنما كان جهاده موجهاً

إلى كل مصادر الفساد والاضلال ؛ ولهذا لم يغفل -- رحمه الله تعالى --
عن المترفين والمبذرين ، الذين كانوا مطية الشيطان الكبرى في إدخال
مفاسد كثيرة إلى البلد ، فلقد أنكر عليهم ترفهم وتبذيرهم ، وخصص
لهذا الأمر بعض الخطب المنبرية التي كشف فيها الكثير من مفاسدهم
وجورهم وعسفهم .

وفوق كل هذا لم ينس -- رحمه الله تعالى -- أن يقف في وجه
أدعياء العلم ، الذين يأكلون الدنيا بالدين ، ويسكتون عن المنكرات ،
بل ويمالئون فاعليها ، ويزينون للناس المعاصي ، ويعلمونهم الحيل ؛
لحرق أسوار الشريعة . حتى إنه في إحدى الخطب نادى بصراخته
المهودة قائلاً :

« والله ما أفشى المنكرات وعممها ، وجعلها ظاهرة لايبالي بها ،
إلا إغضاؤنا على القذى ، وسكوتنا على الباطل ، وبمالأتنا لأصحابه .
ماضر الجماهير شيء كسكوت الواعظين ، حين يرون المخالفات العلنية ،
فلايزجرون عنها . وما أكثر عدد المبطلين إلاعدم تقريعنا أدنياء المهم ،
وصغار النفوس ، الذين يطلبون رضاء الناس بسخط الله عز وجل . هذا
هو الذي زعزع كثيراً من الناس عن المبادئ الشريفة ، وجعلهم يسعون
وراء أبناء الدنيا ، لينالوا من حظامها وأوساخها التي يرميها إليهم
المترفون^(١) » أ هـ .

هذا الجهاد الاجتماعي في ميادينه المتعددة ، كان أبرز الأمور في

(١) من الخطب المكتوبة .

حياته رحمه الله ، وأكثرها تأثيراً ، ولقد صرح بهذه الحقيقة عندما سئل في مجلة حضارة الاسلام عن أبرز الأمور التي كان لها كبير التأثير في حياته ، فأجاب رحمه الله بما يلي :

« أبرزها على العموم ، وقوفي موقف المضاد للإلحاد ، الذي فشا في الجيل الصاعد ، وعملي على رد هؤلاء الشاردين عن الحقيقة إليها ؛ رحمة بهم واستخلاصاً لهم من مهاوي الشقاء . أما الثابتون منهم على الاسلام فما أزال دائباً في تغذيتهم بالعلم الوافي ، والمعرفة الدارئة ؛ كي تقوى فيهم ملكة المناعة الايمانية ، فلا يجد الزيغ سبيلاً إلى قلوبهم ليفسدها^(١) . أهـ

وفي هذا يشير رحمه الله تعالى إلى أهمية العلم ، وأن العاطفة الايمانية المجردة من العلم لا تكفي . وهذا أيضاً ميدان آخر من ميادين جهاده ، ولقد حدثني عن هذه الناحية كثيراً ، حدثني رحمه الله ، كيف أنه منذ عشرين سنة ، وهو يدعو الشباب إلى العلم ، ويبين لهم أهميته ، وأن العواطف المتأججة في قلوبهم حماساً للاسلام لا تفيد الاسلام ، إذا بقيت مجرد عواطف ، لأنها سرعان ما تنخبو وتنطفئ ، وقد تؤدي بصاحبها بعد ذلك إلى الانحلال والميوعة ، عكس ما كان عليه في الماضي ، وذكر لي أن الكثير من الشباب الذين عرفهم ؛ كانوا يمتثلون حماساً للاسلام ، وإذا بهم بعد أن هدأ حماسهم ، ينقلبون على الاسلام ، ويسيروا في طريق تخالفه . ذكر لي كل هذا رحمه الله ، والحسرة تملأ قلبه ؛ ونحز في

نفسه على هؤلاء الشباب الذين فوتوا فرصة التعليم على أنفسهم ، فخرس
الكثير منهم أنفسهم ، وخرس دينهم .

جِهَادُ الْعِلْمِي

المدرسة والمسجد هما الميدانان الرئيسيان لجهاد التعليم . أما
المدرسة فقد كانت مركز عمل الرئيسي ، فمنذ أن عاد من مصر ، اختار
طريق المدرسة ، وفضله على منصب القضاء ، لأنه رحمه الله كان حريصاً
على نشر العلم ، مع أن منصب القضاء كان ميسراً له ؛ نظراً لشهادة
التخصص في القضاء التي حصل عليها من الأزهر ، وقبل أن يعود إلى بلده
كتب لشيخه بهذا الموضوع فقال :

« وأرجو سيدي ، أن يدعو لي بالنجاح في هذا العام وبالتوفيق ؛
حتى أعود إلى بلدي ، وأعمل على خدمة الله تعالى بنشر العلم ، فإني لأرَبّ
لي بتولي القضاء ، وأوثر العمل لخدمة الاسلام في هذا الوقت ، الذي
عمل فيه الموت عملهم بالعلماء ، حتى قلّ عددهم ، ورزقي على الله تعالى
وتبارك . هذه نيتي ، أن أعمل في صالح الاسلام والمسلمين ، بما يفيضه
عليّ ربي تبارك وتقدس ، من علم وهدى وروحانية ، وهو حسبي ونعم
الوكيل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم » . أ هـ
وبدأ عمله في تجهيز حمة بشكل تكليف ، يتقاضى أجره بحسب

الساعات التي يقوم بتدريسها، ثم بعد سنتين ثبت مدرساً في ملاك وزارة التربية والتعليم لمادة الديانة والعربية ، وبقي في عمله هذا دون انقطاع ، حتى أجهدته المرض ، ونصحه الأطباء بالتخلي عن ثلثي أعماله ، عندها ترك رحمه الله المدرسة مضطراً متألماً لتركها ، حتى إنه كلما مرّ قرب المدرسة ، ظهرت على وجهه الشريف علامات اللوعة والحسرة لفراقها ، فقد كانت بالنسبة له ميداناً رئيسياً من ميادين جهاده .

وفي إحدى خطبه المكتوبة ، تحدث رحمه الله عن مبدأ جهاده التعليمي في المدرسة ، فقال :

« لا أخفي عليكم أيها الإخوان ، أنه لما وجهت عليّ وزارة المعارف تدريس الديانة والعربية في تجهيز حماة ، كنت كثير التشاؤم من حال الطلاب ووضعهم ، فكنت أخشى الغربة الدينية فيما بينهم ، ولكن بعد قليل من الزمن ، تبدل تشاؤمي تفاؤلاً ، وانقباضي انبساطاً واستبشاراً ، لأنني وجدت وجوهاً قد استنارت بنور الهدى بقليل من الجهد ، لا يقاس بغيره من باقي الجهود لو شئنا المقايسة . وهذا أكبر دليل على استعداد الطلاب الفطري للخير ، وسيرهم في اتجاهه ، لو وجدوا توجيهاً دينياً صالحاً ، وإن اتاهم توجيه لا ديني ، نشأوا لا دينيين ؛ لأن نفوسهم تقبل الطبع بشئ الأشكال . ولقد صدق المصطفى ﷺ في قوله الكريم :

« كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه ، أو ينصرانه ، أو

يجبانه «^(١)». حثتهم على إقام الصلاة والمداومة عليها ، فصاروا يصلون ،
 ويحضر بعضهم الدرس العام في هذا المسجد مساءً ، وقذف الله تعالى
 النور في قلوبهم ، فشعروا بتقريبهم في الماضي ، فطفقوا يسألوني عن
 أحكام تتعلق بقضاء الفوائت ، ومن قريب سألني أحدهم عن حكم
 يتعلق بقيام الليل مبدئاً رغبته في قيامه . وهذه والله حال تسر كل مؤمن .
 أولادكم يمسلمون ، فيهم استعداد طيب ، فهلا تسعون إلى استثمار
 هذا الاستعداد في الخير دون الشر ، أسفقوا أن تلقوا أفلاذاً كبادكم
 في النار بترك الغوائل اللعينة تغتالهم «^(٢)» ، أ ه .

وأما المسجد ، فقد كان الميدان الثاني لجهاده التعليمي . وكما
 كانت المدرسة وسيلة لاتصاله بالطبقة المثقفة في الأمة ، كانت المسجد
 وسيلة اتصاله بأفراد الأمة جميعاً ، يلتقي بهم كل جمعة في خطبه المنبرية
 التي كان يتناول فيها موضوعات مختلفة . بعضها في العقيدة ، وبعضها
 في عرض مسائل علمية يحتاج إلى معرفتها الناس ، وأكثرها في بحث
 مشاكل الأمة التي تعاني منها . وقد كان رحمه الله تعالى ، يختار في
 أكثر خطبه المواضيع ذات الصلة بحياة الأمة ، ولا يقتصر على نوع
 معين من المواضيع شأن أكثر خطباء المساجد في ذلك الوقت ، وفي
 أول عهده في الخطب المنبرية ، كان أكثر الخطباء يلقون خطبهم المكتوبة
 بشكل مسجوع بلحن خاص ، فخالفهم الشيخ رحمه الله بخطبه التي كان

(١) رواه الترمذي من حديث أبي هريرة ، ورواه أبو يعلى في مسنده ،
 والطبراني في الكبير من حديث الأسود بن مريع . انظر الفتح الكبير .
 (٢) من الخطب المكتوبة .

يرتجلها دون مراعات للتقاليد القديمة المتوارثة . ولذلك كان في خطبه أقرب إلى قلوب العامة وأفكارهم من غيره من الخطباء ، نظراً لصدق نيته ، وصفاء سريره ، وحسن عرضه لأفكاره بلغة يفهمها العامة وتحظى بإعجاب الخاصة .

وأما الدروس العلمية في المسجد ، فلها حديث خاص سافله إن شاء الله في بحث المنهج العلمي عند سيدي رحمه الله تعالى .

المرحلة الأخيرة

وما ترك رحمه الله ميادين جهاده هذه حتى آخر حياته ، إلى جانب أعماله العلمية الكبيرة ، وواجباته الاجتماعية الكثيرة ، ولم يفتن - رحمه الله تعالى - وهو في خضم أعماله ومسؤولياته إلى العلة التي تسربت إلى كبده ، والتي ساعدت على سرعة سريانها الأتقال الكثيرة التي ينوء بحملها العديد من الرجال . ولما بدأ أثرها يظهر في إضعاف جسده ، كان - رحمه الله - يتألم لما يشعر به من ضعف ويعجب منه ، ومع ذلك كان يجاهد ضعف جسمه بقوة روحه وشدة عزمه ، فيمضي رحمه الله في معاناة واجباته وأعماله المتزايدة مع مرور الأيام ، معتقداً أن هذا الضعف أمر عارض ، سرعان ما يزول بإذن الله تعالى ، ولكن الضعف العارض أصبح لازماً . ومع ذلك لم ينثن رحمه الله عن ميدان من ميادين جهاده ، ولم يتخل عن أي عمل من أعماله ، حتى أنخسته الجراح ، وأجهده الآلام ، ولم يبقَ له من الجسد إلا قبضة السيف ومؤخرة الرمح

وهوى بما تبقى له من جسده على فراش الابتلاء والمرض ، وصدق رسول الله ﷺ في الحديث الشريف ، الذي رواه ابن ماجه والحاكم على شرط مسلم ، عن أبي سعيد رضي الله عنه ، أنه دخل على رسول الله ﷺ وهو موعوك ، عليه قطيفة ، فوضع يده فوق القطيفة ، فقال : ما أشد حُماكَ يا رسول الله ؟ قال : « إنا كذلك ، يشدُّ علينا البلاء ، ويضاعف لنا الأجر » ثم قال : يا رسول الله : من أشد الناس بلاءً ؟ قال : « الانبياء » قال ثم من ؟ قال : « العلماء » قال ثم من ؟ قال : « الصالحون . . . الحديث » .

ولم يستطع المرض بالآلامه وشدائده أن يصرف الشيخ عن ميادين جهاده ، بل كان ميداناً جديداً انضم إلى ميادين جهاده . فكيف كان الشيخ في مرضه ، وما هي مراحل المرض وتطوراته حتى قضى به رحمه الله تعالى ؟

أصدق إنسان في هذا الأخ الطيب ، السيد سلمان نجار حفظه الله تعالى ، لأنه كان ألصق الناس بروح الشيخ وقلبه وجسده . شرفه الله تعالى بخدمة الشيخ وملازمته طيلة فترة المرض . لهذا طلبت منه أن يكتب في وصف هذه المرحلة من حياة الشيخ ، فكتب - جزاه الله خيراً - هذا الفصل التالي .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ذِكْرِيَاتِي

عن العلامة الرَّاحِل في آخر المراحل

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، ورحمة الله تعالى وبركاته عليك يا فقيدنا الراحل .

كنتَ السَّوادَ لمقلتي فعَمِي عليكَ الناظرُ
من شاءَ بعدكَ فليمتْ فعليكَ كنتُ أحاذرُ

وبعد :

عهد إليّ نفر من خُلص إخواني ، أن أكتب عن مرض فقيدنا رحمه الله تعالى ، وأحواله فيه ؛ باعتباري وقفت على مرضه منذ عدة سنوات، وتشرفت بخدمته عند سفره الأخير إلى بيروت لإجراء العملية الجراحية. ولقد وددت لو أن غيري من المحبين كفاني هذه المهمة الصعبة، لما أعلم من ضعفي في مثل هذه الأحوال ؛ ولكنه جهد المقل .

وأبدأ كلامي هذا بإعطائي لمحة موجزة عن المرض الذي توفاه الله تعالى به ، وهو مرض تشمع الكبد .

تعريف تشمع الكبد .

من التعاريف المقبولة للتشمع ، أنه ازدياد النسيج الليفي في الكبد ، مع اضطرابات في انتظام الخلايا ووظائفها . وله أسباب كثيرة معروفة في المطولات من كتب الطب . وهو مرض مزمن عضال ، لا يقبل التراجع فيما أصاب من خلايا الكبد (في العام الأغلب) . وغاية المعالجة الدوائية فيه بصورة عامة ، تعويق امتداده إلى ما تبقى من خلايا ، أو إيقافه .

لمحة عن الدوران في الكبد .

يرد إلى الكبد وريد الباب الذي يأتي بالدم من معظم أحشاء البطن ، ويصدر عن الكبد أربعة أوردة تسمى بالأوردة فوق الكبد ، تصب في الوريد الأجوف السفلي ، وهو بدوره يصب في الأذينة اليمنى من القلب ، ويغذي الكبد الشريان الكبدي ، وفي الكبد نظام دوراني معقد لا يتسع المجال لشرحه .

لمحة عن وظائف الكبد .

تعتبر الكبد أكبر غدة في الجسم ، وبما يدل على أهميتها البالغة ، أن خلاياها البسيطة ، تشترك في معظم أعمال البدن ، التي يستحيل بعضها دون تدخل عمل الكبد . ومن المعروف أن استئصال الكبد يميت بعد ساعات قليلة ، ومن أهم وظائفه :

- ١ - وظيفة إفرازية : (عمل الصفراء وإفراغها)
- ٢ - وظيفة استقلابية : (تستقلب بها المواد الغذائية المختلفة التي تمتص عن طريق جهاز الهضم) .
- ٣ - وظيفة تخريب السموم .
- ٤ - وظيفة تكوين الدم .
- ٥ - وظيفة التخثر الدموي .
- ٦ - وظيفة تولد الحرارة .

ماذا ينتج عن تشمع الكبد .

١ - ضعف وظائف الكبد جميعها ، مما يجعل الحياة متعذرة في مراحل المرض الأخيرة .

٢ - فرط توتر وريد الباب ، وتكوين دوالي المريء :

يتسبب فرط توتر وريد الباب عن الركودة الدموية ، المتأية عن تضيق شعبه الدقيقة في الكبد ، وانسداد بعضها لازدياد النسيج الليفي فيه (والشعب الأخرى في طريق الانسداد) مما ينتج عنه ضخامة الكبد (التي تضر أخيراً) والطحال ، واحتقان الأحشاء التي يصب دمها في وريد الباب ، فيؤدي إلى تكوين دوران جانبي معيـض ، تنشأ عنه دوالي المريء المؤدية إلى النزف بانفجارها والقضاء على حياة المريض، قبل أن يقضي عليه التشمع بالذات .

٣ - تكوين الحبن : وهو سائل يتجمع في جوف البطن ، وتشترك فيه ثلاثة عناصر :

١ - فرط توتر الدم في وريد الباب .

٢ - نقص مادة الأليومين من مصل الدم (لأن صناعة الأليومين من وظائف الحلية الكبدية) .

٣ - اضطراب هرموني في توازن العوامل المدرة والمضادة للإدرار ، فتنقلب العوامل الأخيرة ، ويزداد حبس السوائل في البدن .

العمل الجراحي .

إن غاية العمل الجراحي ، تخفيف الضغط عن وريد الباب بإجراء وصلة بينه وبين الوريد الأجوف السفلي Porto Cava Shunt فيزول الدوران المعيب ، وينفى خطر النزف من دوالي المريء المتكونة ، ويخف الحبن ، ويفسح المجال أمام ما تبقى من خلايا الكبد للنشاط والتجدد إن أمكن ، فيترك عندها المريض ليعيش ضمن إمكانيات كبده ، آمناً من خطر النزف الذي يقضي على حياته ، قبل أن ينتهي عمر كبده .

ظهور المرض .

كان مرض فضيلة الشيخ رحمه الله تعالى كما وصفته مرضاً عضالاً . من أهم أسبابه ، تلك الأحداث الخطيرة التي واجهته في حياته ؛ سواء منها ما حل ببلدته حماة خاصة ، أو ما حلّ بالعالم الإسلامي عامة . وكثيراً ما كنت أسمعه يقول بيني وبينه : « أخشى أن أقع في مرض عضال لا أشفى منه » وقد حدث فعلاً ما كان يخشاه ، إذ وقع فريسة لمرض السكري منذ أكثر من خمس سنوات ، ثم كشف عنده قبل وفاته

بسنة تقريباً ، أنه مصاب بتشمع الكبد الذي ظهر بعرضه الخطر المسمى بالحين ، وإن السكري عنده مظهر لضعف الكبد ، بسبب اختلال وظيفته الاستقلابية ، وليس ناشئاً عن قصور غدة المعشكلة (البانكرياس) والتي تعتبر المتهم الأول لظهور السكري ، عند الأشخاص الذين هم في مثل سن الفقيه رحمه الله تعالى .

ورب سائل يسأل . لِمَ لَمْ تكتشف أعراض قصور الكبد قبل ذلك الحين ، طالما أنبأت عن نفسها بزيادة نسبة السكر ، فتكون العلة بأولها ، والعلاج عندها أنجع ؟

والجواب على هذا يعود إلى السبب الرئيسي التالي :

إن فضيلته رحمه الله تعالى ، كان مشغولاً عن مرضه بجهاده العالمي الطويل الذي ملك عليه أوقاته ، ولم يفسح له المجال لتتبع أسباب علته تتبعاً دقيقاً ، بالسفر إلى أطباء مختصين في دمشق وغيرها ، إلا بعد أن ألحت عليه العلة بشكلها الواضح . وكأنه رحمه الله تعالى ، يعلم حاجة المسلمين إلى أمثاله ، وأنه مرابط على ثغرة من ثغور الاسلام الحنيف يتعذر على غيره سدها ، ولا يجب أن تؤتى من قبله ، ويؤكد هذا المعنى عن فضيلته ، أنه ما حج نفلأ بعد حجة الفريضة ؛ رغم تشوقه إلى هاتيك الديار كما صرح بذلك .

وقد ضيقت عليه الحمية زيادة على الحمية السابقة بسبب السكري ، ونصحه الطبيب المختص « الدكتور موفق المالكي » - أسعده الله تعالى - عندما راجعه في دمشق ، بتركه سبعين بالمائة من أعماله التي اعتاد عملها . وكانت هذه النسبة هي نسبة إصابة الكبد عنده . ولما كان

ترك قسم من أعماله أمراً محتملاً ، قال لي : « يا بني إني أعمل مدرساً في ثانوية ابن رشد ، ولي صفة شرعية في البلدة : خطابة ، وتديساً ، ورداً على أسئلة المستفتين من الناس . وإني أختار ما هو أنفع للمسلمين في دينهم ، سأترك المدرسة علماً بأن نصف راتبي سيلقص بهذا الترك ، وأن تكاليف التداوي ستثقل كاهلي » ؛ وتركها فعلاً ثقة بالله وتوكلأ عليه .

وخفف أعماله نسبياً ، لكنه رحمه الله تعالى لم يستمر على هذا يوماً واحداً ، بل شغل وقت راحته من المدرسة في زيادة إنتاجه العلمي ، وبحوثه الدقيقة ، والرد على أسئلة السائلين ، وفتاوى المستفتين ، التي كانت تأتيه من جميع المناطق والأقطار ، بالإضافة إلى التدريس العام والخاص ، والخطابة المنبرية ، وذلك حرصاً منه على نشر العلم وعدم اكتفائه في زمان قل فيه العاملون ؛ وأكثر فيه المتحلون والمتشكقون والمتاجرون بدين الله ، الذين يأكلون عرض الحياة الدنيا بالدين والعياذ بالله تعالى . ولقد كان يجيب من يذكره بضعفه واعتلال صحته : « اني لا طاقة لي بلجام من نار » وروي الحديث الشريف : « من كتم علماً مما ينفع الله به الناس في أمر الدين ، ألجمه الله بلجام من نار » (١) . وكثيراً ما أقول له كطيب : « يا سيدي إن أعمالك كلها بما فيها العبادة ، تأخذ فيها بالعزيمة ، وتدع الرخصة ، وخاصة بصيامك رمضان المبارك » ، بيد أن كلامي هذا ما كان يزيدني إلا إصراراً على الأخذ

(١) رواه ابن ماجه عن أبي سعيد الخدري ، ورواه ابن عدي عن ابن مسعود . انظر الفتح الكبير .

بالعزيمة ، لما عرف عنه رحمه الله تعالى من ورع وتقوى ، عمر بهما
آخرته وأضر بدنياه .

تطور المرض .

ثم تطورت عنده العلة ، وداهمه العرض الأخطر لتشمع الكبد ،
وهو النزف الداخلي الشديد المتسبب من انفجار دوالي المريء ، والذي
تكرر ثلاث مرات في حماة ، كاد يؤدي بحياته ، لولا أن تدار كته
عناية الله تعالى ، بما بذله أطباء بلدته الكرام من إسعافات ، كنقل الدم
وسهر متواصل على صحته الغالية ، وخاصة الطبيب المؤمن الدكتور
عبد الرزاق الكيلاني حفظه الله تعالى ، وقد التف تلامذته ومريدوه
حول بيته الشريف المتواضع ، لا ينامون الليل طيلة ثلاثة أشهر قبل
سفره إلى بيروت ، بقلوب وجلة ، وأعين ساهرة ، أن يداهم حييهم
الغالي ما يكرهون ، وليسعفوه بدمائهم الزكية ، لأن كل واحد منهم
يعتقد أن حياته لا قيمة لها إلا بالمحافظة على حياة حبيبه ، الذي حل منه
محل الروح من الجسد ، والسواد من العين . ولا تحدث عن بساء
أحدهم وأسفه عندما كانت زمرة الدموية لا توافق دم شيخه وحبيبه .

ولقد كان يقول - رحمه الله تعالى - أمام هذه المشاعر الفياضة والعواطف
الجياشة : « إنه إن شفي من مرضه هذا ، فسيعمل للإسلام - وكأنه
ما عمل قط !! - وأن عمله كله سيكون جارياً في صحائفهم » ويضفي على
كلامه شيئاً من دعابته المعهودة ، وخفة روحه المألوفة ، فيقول :
« كيف لا وأنا أعيش بدم غيري ! وقد جدد دمي مرتين ! » . أي عشرة
لترات تقريباً .

ولا تظنن أيها القارئ الكريم ، أن الشيخ رحمه الله تعالى ، قد ترك جهاده العلمي ، وبيان الحقائق الشرعية في هذه الحال ؛ بل إنه لم يترك ذلك . وبدلك على مبلغ حرصه ، أنه كان يستحلف بالله الأشخاص الذين كانوا يوصلون إليه الرسائل التي ترد من البلاد والآفاق ، هل أخفى أحد منهم رسالة عنه ؟ ويقول : « ما وضع رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم سيفه في غمده حتى لقي ربه » .

السَّفَرُ إِلَى بَيْرُوتَ

الخميس ٢٤ ذي الحجة سنة ١٣٨٨ هـ الموافق ٣ آذار سنة ١٩٦٩ م

بعد زيارة الدكتور المالكي له في حماة ، تقرر سفره إلى بيروت لدراسة إمكانية عملية جراحية ، من شأنها قطع النزف وتخفيف الحزن ، وتركه بعدها يعيش ضمن إمكانية كبده ، فعمره في عمر كبده ، كما تقول لغة الطب ، والأمر كله بيده سبحانه وتعالى .

ومن المواقف التي أذكرها ولا أنساها قبل وفاته بشهرين تقريباً ، ساعة الوداع ، عندما غادر بيته المبارك متوجهاً إلى لبنان ، وقد تخلق حوله لفيف من محبيه وتلاميذته ، يكفكفون دموعهم ، ويكتمون زفرائهم ، خشية أن يتأثر فضيلته - رحمه الله - من هذا الموقف ، وخوفاً منهم أن يكون آخر عهدهم بمحبيهم ووجهة قلوبهم ، وكان ابن زريق عناهم بقوله :

ودعته وبودي لو بودعني صفو الحياة وأني لا أودعه

ولقد سمعناه وهو يلقي آخر وصاياه إلى ولده البار ، الأستاذ السيد محمود بقوله : « تصدق على الجيران » وكأنه يشير إلى الحديث الشريف : « داووا مرضاكم بالصدقة » (١) .

ثم انطلقت سيارته مع صوت المؤذن : الله أكبر .. الله أكبر ، تطبيقاً للسنة الشريفة « الأذان ساعة السفر » وتيمناً بالعودة سالماً بإذن الله تعالى ، ومع الدموع السخية والقلوب الوجلة .

وفي الطريق إلى بيروت ، كنت ثالث ثلاثة من أطباء بلدته ، رافقناه لترعى شأنه ، ونسعه إذا احتاج الأمر . ولما وصلنا إلى حمص زار قبر شيخه سيدي « محمد أبي النصر خلف النقشبندي » قدس الله سره (٢) . والذي كانت له المنزلة الأولى في نفسه حياً وميتاً ، وفاء له وتبر كآبروحه الطاهرة .

وكانت معظم أحاديثه - رحمه الله تعالى - تدور حول أهل الله والشوق إلى الحبيب ، فتراه ينشد أشعارهم الرقيقة في المحبة ، وطوراً يبكي ويقول : « غداً نلقى الأحبة محمداً وصحبه » ويكررها كثيراً ، كأنما كوشف بدنو الأجل ، وأوصى الله تعالى على أولاده ، كما فعل

(١) رواه أبو الشيخ في الثواب عن أبي أمامة ، ورواه الديلمي في مسند الفردوس عن ابن عمر بلفظ : « داووا مرضاكم بالصدقة ؛ فإنها تدفع عنكم الأمراض والأعراض » انظر الفتح الكبير .

(٢) قدس الله سره أو قدس سره : دعاء يستعمله الصوفية مع شيوخهم . ومعناه : اللهم طهر باطنه .

والده سيدي الشيخ محمود الحامد النقشبندي - رحمه الله تعالى وقدره
سرّه - من قبل .

وهذا يذكرني بآخر كتاب قرأه على الناس في الدرس العام ،
وهو كتاب « مختصر تذكرة القرطبي » في أحوال الآخرة للإمام الشعراي
قدس الله سرّه ، وكأنه قد ودع الناس به كما فهم بعض خاصته رحمه
الله تعالى .

في مُستشفى المقاصد الإسلامية

وقد كتب لي شرف الخدمة بجوار سريره المبارك في مستشفى
المقاصد الإسلامية في بيروت ، و كنت أرى الوفود الكثيرة المختلفة
من أهل العلم وغيرهم ، يتسابقون للتشرف بزيارته ، وسماع حديثه
العذب ، ولطالما سمعوا عن فضيلته الكثير الطيب ولم يروه . وقد
رأيت يحدث كل أناس بما يناسبهم ، وتحولات غرفته الميمونة في المستشفى
إلى ندوة علمية ، يبلغ فيها أحكام الله تعالى ، ويسدي النصائح الدينية
والتربوية للشباب الذين تهافتوا عليه تهافت الفراش على النور . وكان
- رحمه الله تعالى - شديد الحرص على سلامة عقائدهم وصيانتها، لكثرة
ما يخامر عقول الشبيبة في هذا الزمن ، من فكر منحرفة مضلّة ،
وعقائد فاسدة . وكان يقول رحمه الله تعالى : « بدع العقائد ، تخلد
صاحبها في النار . أما بدع الأعمال ، فتعرض صاحبها للعقوبة أو
الغفران » .

وهرع السوريون في لبنان - وخاصة الحمويين منهم - إلى زيارته ، والاطمئنان على صحته ، والتبرك بخدمته بكل حرارة وحماسة .

وحدث مرة وهو في بيروت - رحمه الله تعالى - أن قال له أحد السالكين - جهلاً منه - : « إن جسد النبي صلى الله عليه وسلم نور خلقة » .

يعتقد بهذا زيادة في شرفه ﷺ وسلم ، فاستتابه - رحمه الله تعالى - من ذلك الاعتقاد ، وجدد له إيمانه ، وعقد نكاحه ، بعد أن أخبره بأن هذا القول كفر وأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم إنما هو بشر ، خلق من تراب ، لكن النور يتخلل جسده الشريف حساً ومعنى . وكثيراً ما كنت أقول له رحمة به : « لا تنس أنك مريض » ولأن مجرد الكلام محذور عليه طيباً ، لكنه رحمه الله كان ينسلخ من حال علة أمام جلسيه ، حتى يخيل إليك أنه سليم وما به من علة . إلا أنها روحه القوية الطاهرة التي ما برحت تفيض على زائريه ، فتمثل الشيخ في عنقوان الشباب وأوج القوة ، ويجيبني : « إن الله تعالى سائلني عن هذا العلم ماذا صنعت به ؟ فم أجيبه ؟ وقد يسر لي التحصيل العالي ، وسماع الكلمة ، وقبولها عند الناس ، وقد جاؤوني وأنا أحب أن أنصح لهم الله تعالى » .

وأذكر أنه زاره شيخ شاب ، كان على جانب عظيم من المحبة لفضيلة الشيخ رحمه الله تعالى ، رغم حداثة عهده به . وما أن لاحت بوارق حبة الشيخ - قدس الله سره - للنبي صلى الله عليه وآله وسلم أمام ناظريه ، وأن فضيلة مولانا أحد الأقطاب المؤسسين للمجلس الشريف في الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم في حماة ، وغيرها

من البلاد الشامية ، حتى اشتعلت في قلبه محبة الرسول الاعظم صلى الله عليه وآله وسلم ، وطلب إجازة من الشيخ رحمه الله تعالى في إقامة مجلس شريف في الديار اللبنانية ، لتعود على لبنان بالخير والبركة . فأجابه رحمه الله وشجعه على ذلك ، وقال : « لو استطعت أن آمر حفظي بالصلاة عليه لفعلت » .

وكان هذا المجلس الشريف من بركة زيارته إلى بيروت رحمه الله تعالى .

الزفة الرابعة

وفي خلال إقامة مولانا - قدس الله روحه الطاهرة - في المستشفى ، فاجأه النزف الرابع قبل إجراء العملية الجراحية ، لكنه مر بسلام بعونه تعالى ، وتداركه أطباء المستشفى بالسرعة المطلوبة .

وبهذه المناسبة ، لا يسعني إلا أن أعرب عن شكري الجزيل للشباب المؤمن في لبنان ، حيث سارعوا للتبرع بدمائهم الزكية ، لتعطي للشيخ رحمه الله تعالى ، كما فعل إخوانه في حماة من قبل . وأذكر هنا أن الشيخ - رحمه الله تعالى - كان يصر على أن لا يأخذ الدم ، إلا من إنسان يحافظ على طاعة ربه ، وكان يقول : « لأحب أن يخالط دمي إلا دم مؤمن ركع لله وسجد » .

ولقد أمتني على تنفيذ هذا . ولشدها كانت فرحته رحمه الله تعالى عظيمة ، عندما بلغته أن هؤلاء الغنيان ، تبرعوا بدمائهم ، وهم

يذكرون ربهم سبحانه وتعالى . ومن طريف ما حدث أن زاره أحد الشبان ، فأحبه لمجرد رؤيته له ، وسارع إلى التبرع بدمه ، فاستوقفه إخوانه ، لأن فضيلة الشيخ رحمه الله تعالى لن يقبل منه هذا التبرع ، إلا إذا تاب توبة نصوحاً ، وعاهد نفسه على القيام بطاعة الله تعالى . فما كان منه إلا أن أعلن توبته ، وإقلاعه عما فرط به في حق نفسه ، فقبلوا منه عند ذلك أخذ الدم .

فتأمل يا أخي الكريم قوة حال هذا المرشد الكبير ! كيف قلب حطب المعاصي إلى رطب الطاعات ، وجمر الآثام إلى ثمر الحسنات بإذن الله تعالى . فكان رحمه الله تعالى من القوم الذي لا يشقى بهم جليسهم ، إذا نظروا أسعدوا ، وإذا رؤوا ذكر الله عز وجل . وذكر أحد طلاب العلم أمام فضيلة — مولانا رحمه الله تعالى — أن إعطاء الدم ، فيه إحياء للسنة الشريفة ، وهي سنة الحجامة ؛ يريد بذلك الحديث الشريف : « إذا اشتد الحر فاستعينوا بالحجامة لا يَتَبَيَّغُ ^(١) الدم بأحدكم فيقتله ^(٢) » ، ويشكرونه رحمه الله تعالى أن ساعدهم على إحياء هذه السنة المطهرة ، فأجاب رحمه الله تعالى : « إن الفصادة لا تكون سنة ، إلا حيث يتبيغ الدم ، ويثور في البلاد الحارة ، أما في بلادنا فليست كذلك ، لا اعتدال الطقس عندنا » فقلت : ولو أن يوماً قانظاً في بلادنا وتبيغ فيه الدم ؟ فقال رحمه الله تعالى : « حينئذ كان ثوران الدم وتبيغ ، كانت الفصادة سنة » .

(١) البيغ ثوران الدم ، وتبيغ الدم : هاج وغلب ، كافي القاموس المحيط .

(٢) رواه الحاكم في المستدرک عن أنس بن مالك . انظر الفتح الكبير .

وكانه يريد أن العلة تدور مع المعلول وجوداً وعدمًا . ثم أضاف قائلاً : « إني إذا ظفرت بالنص الشرعي أسلم إليه ، وأقف عنده وأبحث عن الحكمة فيه ، وأغوص عليها ، فإن وجدت حمدت الله تعالى ، وإلا بقيت على أصل التسليم » . فكان رحمه الله تعالى - كما قال لي أحد الأولياء فيما وصفه به - : سالم ، مسلم ، مسلمٌ لله ورسوله ، سعيد في الدنيا والآخرة إن شاء الله تعالى .

فتأمل معي - رحمك الله تعالى - هذه الحادثة الطريفة ، وكيف أن مولانا قدس سره ، كان وقافاً عند حدود الله سبحانه وتعالى ، لا يحرف الكلم عن مواضعه ، لم يرض أن يُعطى الدم إليه ، علماً أنه كل شيء في إنقاذ حياته من الوجهة الطبية - على حساب تفسير خاطيء للحديث الشريف ، وإن اعتقد أن هذا العمل في ذاته خير محض مثاب فاعله إن شاء الله تعالى .

وليس هذا موقفاً غريباً عنه رحمه الله تعالى ، وهو الذي صرح مرات عديدة : أن دينه أغلى عليه من ماله وولده ونفسه التي بين جنبيه .

وكان في هذه الفترة ، كثيراً ما ينشد أشعار المحبة في الله تعالى ، والشوق إلى لقاءه ، فيبكي ، ويبكي ، ويقول له أهله الطاهرة : « أسفقت على نفسك » فيقول : « دعينا نمت في حب الله ورسوله ، دعينا » ويزيد في البكاء حتى نرحمه .

قبيل العملية الجراحية

ولما كان النزف بشبهه الرهيب يتهدد حياة الشيخ رحمه الله تعالى ، مرة في كل خمسة وعشرين يوماً ، ومن المعلوم لدى أرباب مهنة الطب ، أنه كلما تكرر النزف ؛ زاد مقداره ، وعظم خطره ، وقضى على المريض بشكل صاعق ، حتى إذا جاوز النزفة الرابعة ، أضحي الطبيب وأهل المريض سواءً ، كلاهما ينظر إليه وهو يلفظ آخر أنفاسه ، مع آخر قطرة من دمه ، وإن كان إمكان العمل الجراحي في هذه الحالة الجراحية ، فهو في أسوأ ظروفه وأبشع نتائجه .

وبعد إيضاح ما تقدم لفضيلة مولانا - رحمه الله تعالى - وبناءً على رغبته الملحة ، وإصراره الشديد ، وموافقة الجراح الذي كان يشرف على علاجه في المستشفى ، وهو الدكتور حسن طيارة ، مُحدد موعد لإجراء العملية الجراحية رغم خطورتها ، لتخليصه رحمه الله تعالى من حالات النزف الطارئ الذي يتهدد حياته بخطراً أكبر .

وعلى هذا ، فالعملية من باب اختيار أخف الضررين ، وأهون الشرين ، وهي ملطفة ، وليست شافية ، تعالج اختلاط المرض « وهو النزف » ولا تقضي على المرض الحقيقي ، الذي لا يقبل التراجع (وهو تشمع الكبد) . وهذه العملية تجري في بيروت كأي بلد أوربي متقدم طبياً . وهذا بما أثلج صدر فضيلة الشيخ رحمه الله تعالى ، ووافق رغبته بإجرائها في بلد إسلامي ، لا يغيب عنه صوت المؤذن فيه ، كما كان يقول .

وإني لأشهد أن ذلك الطيب المؤمن ، أضاف على فضيلة مولانا رحمه الله تعالى كل عنايته ، التي استمرت نحواً من شهرين ، وهي مدة المكث في بيروت كما بصورت لنا جلياً من قوله: «إني لأراك كأحسن جوهره نادرة موجودة في هذا العالم ، حتى إني لأخشى عليك من النسيم» . وكنت أعجب من شدة محبة للشيخ رحمه الله تعالى ، وتعلقه به في هذه الفترة الوجيزة التي تعرف بها عليه ، وقد أسري مرة ، أنه قد وقع في شركه ، وبأدله فضيلة مولانا - رحمه الله تعالى - بما فطر عليه من وفاء جابج ، وتفاؤلاً حسناً باسمه الحسن ، كما صرح له عند أول لقاء . ومن فائق عنايته هذا الطيب الحاذق ، المتضلع بجراحة الأوعية ، أنه لم يشأ أن يستبد برأيه ، بل استدعى رئيس الجراحين في الجامعة الأمريكية ، وآخر يشغل منصب أستاذ جهاز الهضم فيها ، للتشاور معها في أمر العملية الجراحية ، وقد أقر الجميع بوجوب إجرائها قولاً واحداً ، على ضوء ما تقدم من تفصيل .

العملية الجراحية

الثلاثاء بتاريخ ١/ نيسان سنة ١٩٦٩ م .

وفي صباح اليوم الذي حدد لإجراء العملية الجراحية ، دخلت على فضيلة مولانا - قدس الله سره - في حجراته ، فوجدته يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم ، وسبحته في يده الشريفة ، رابط الجأش ، هادئ النفس ، مستسلماً لقضاء الله وقدره ، فلما رأيته قال لي : « يا بني أشهد

بأني مسلم ، مؤمن بالله ورسالاته . ثم أحضر إلى غرفة العمليات ، وهو لا ينفك عن ذكر الله تعالى في قلبه الشريف ، كما هو معهود عن السادة النقشبندية في مثل هذه الأحوال . ولقد شاهدت مع اثنين من أطباء حماة العملية التي كانت على درجة عظيمة من الصعوبة ، استغرقت نحواً من ست ساعات ونصف ، ولم يستعمل خلالها مخدر ، يؤثر على الكبد الضعيف تأثيراً ضاراً ، وقد نجحت ، وخرج فضيلة مولانا رحمه الله تعالى بسلام .

فَترَةُ الصَّحْوِ

وفي خلال الفترة التي أعقبت العملية ، حيث يبقى المريض تحت تأثير المخدرات لمدة ما ، كان فضيلة الشيخ رحمه الله تعالى ، لا ينفك عن ذكر الله تعالى ، ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وقراءة القرآن الكريم بشكل صحيح ، وضبط متقن للآيات الكريمة ، حتى إنه كان يجيب ولده عندما كان يسأله عن موضع الآية من سور القرآن الكريم ، وهو أمر غير معهود في مثل هذه الحال ، إذ تصيب المريض اضطرابات تعتري تفكيره ، وهذيان ، وبوح للأسرار . وإني لأذكر أن فضيلة مولانا - رحمه الله تعالى - قال لي قبل إجراء العملية : « يا بني إن الشيوخ بيوت أسرار المسلمين ، وأخشى أن أقول شيئاً ، وأنا أصحو من المخدر ، فإذا حدث شيء من هذا ، فلا أسمح ببقاء أحد عندي إلا أهلي » . ولكن الله سبحانه وتعالى استجاب دعاءه ، وحفظ لسانه ، من أن يبوح بشيء مما كان يخشى التكلم به .

كما أذكر من خلال هذه الفترة ، أنه كان يأمرنا بالتصدق على الجيران ، ونهية الطعام للعصافير التي اعتاد أن يطعمها يومياً في بيته المبارك ؛ لشدة رحمته بالحيوان ، وشفقته على الضعفاء من خلق الله تعالى . وقد أحببت أن أتحدث عن ذلك ؛ لأظهر كيف كانت فطرة الشيخ رحمه الله تعالى : سليمة ، رحيمة ، نبيلة ، تمثل رحمة الاسلام العظيمة ، التي يستودعها الله تعالى قلوب عباده المسلمين الصادقين .

كما أذكر بمزيد من العجب ، كيف كان فضيلة مولانا - قدس الله روحه - يفيق في أوقات الصلوات ، وكأن إنساناً يوقظه ، فيصلي مضطجعا على قدر استطاعته ، ثم يعود بعدها إلى الإغفاء ، بسبب بقاء أثر المخدر في جسمه الشريف .

وقد حدث أن صحا فضيلة الشيخ رحمه الله تعالى بعد ذلك ، صحوً جيداً لفترة لا بأس بها ، زاره خلالها كثير من إخوانه وأجابه من شتى البلاد ، ونهاقت عليه البرقيات والمكالمات الهاتفية من بلدته الكريمة حماة وغيرها ، التي ما انقطعت عنه طيلة مكثه في بيروت ، للسؤال عن صحته ، وشريف خاطره ، ونهنته بنجاح العملية الجراحية ، وهو يحمد الله تعالى ، ويشكره على ذلك . واستمر على هذا النحو بضعة أيام ، أعقبها سبات حدث نتيجة ضعف كبده ، أفاق منه بعد أربعة أيام تقريباً ، فصحا صحوً جيداً عاد فيه إلى أحاديثه المألوفة وكلامه المعتاد .

وكنْتُ أسمعُه وهو في حالة الاستغراق روحي ، يقطعه عن حوله ، يردد عبارات أهل الله في أعلى مقاماتهم ، فكان يقول : « ليس

كل كمال في حق الشاهد شرطاً في كمال المشهود ، ويكررها كثيراً .
وهذه درر ، يعرف معناها ، وعظيم دلالتها ، ورسوخ قدم قائلها في
مقام المشاهدة القلبية والتمكن فيها ، أرباب القلوب ، والساثرون إلى
الله تعالى ، ومن ذاق عرف . وكان يسمع منه الترحيب بأقطاب أهل
الله وأبداهم ، ويناديهم ليتفضلوا بالدخول إلى حجراته الشريفة ، رحمه
الله تعالى ، ويقول لي : « ألا ترى ... افتحوا النوافذ » وكأنهم
يستأذنون بالدخول عليه رحمه الله تعالى ، ويقول : « يا أحمد ...
يا أحمد » . ثم يقول : « صلى الله عليه وآله وسلم » ، وقد كان أرباب
القلوب من أهل الله تعالى ، بشروه قبل إجراء العملية ، أن الأولياء
لن يفارقوه .

حفاوة العلماء بعالم الأولياء

وكان رحمه الله تعالى ، من الذين يقال فيهم : « من كانت له
فكرة ، كانت له بكل شيء عبرة » . فكان إذا ظهر الصباح ، قال :
« النهار من آثار صفات الجمال لله عز وجل » . وإذا جن عليه الليل
قال : « الليل من آثار صفات الجلال » . وكان لا يترك صغيرة ولا
كبيرة ، إلا ويوجهنا إلى الحكم الشرعي ، والأدب مع الله تعالى
فيها . وإني لأذكر إذ كنت واقفاً تلقاء قدميه الشريفتين ، أدلكهما
لآلام حلت بهما من طيلة المكث في السرير ، فأشار إليّ بالتنحي عن
وجهة قدميه ، لأن القلم الذي أحمله في صدري ، أصبح قبالة قدميه

الطاهرين ، وهذا لا يليق بالقلم ، مشيراً إلى القلم الذي ذكره الله تعالى في اللوح المحفوظ ، وتادباً مع سلاح العلم والعلماء .

وإني لأذكر أن بعض الفضلاء ، الذين يقومون بنشر الكتب الإسلامية وطباعتها ، وتربطهم به علاقة أخوة ومحبة وتضحية ، كانوا يزورونه فيرشدهم إلى مواطن الخطأ في بعض مطبوعاتهم التي قرأها ، وكان رحمه الله تعالى ، يسألهم عن بعض الكتب العلمية ليقنتيها ، ويضيفها إلى مكتبته العامرة بحرصاً منه على سعة الاطلاع وطلب العلم ، وقد بلغ من حبه لنشر العلم ، أن فوض هؤلاء الفضلاء بإعادة طبع مؤلفاته على رواجها ، وتكرار طباعتها ، متنازلاً - كعادته - عن حقوقه في الطباعة والنشر . وكان من إخلاصه - رحمه الله تعالى - أنه لا يرى لنفسه حقاً في أخذ العوض على نشر مؤلفاته . بما حدا ببعض إخوانه العلماء إلى القول له : « إن الإخلاص في التأليف ، أصعب منه » . وكنت أقول له : أليس مابك من ضعف ، يشغلك عن وصاياك هذه ، فيجيب : « أحب أن ألقى الله تعالى وأنا أطلب العلم » .

وإني لأذكر أيضاً ، أن الطبيب المحلل في مستشفى المقاصد الإسلامية ، سأله - وهو في أشد حالات مرضه رحمه الله تعالى - : إن الله تعالى واحد ، فلم يقول سبحانه : نحن ، في الآية الكريمة (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) ؟ : فأجاب رحمه الله تعالى : « هذا من أساليب العربية ، وهو من قبيل المجاز ، وليربي العظمة في نفس السامع ، أي عظمته سبحانه وتعالى » . وأفاض بكلام طويل في هذا الخصوص .

وأذكر بعد هذا ، أنه زاره خلال هذه الفترة مفتي الأردن سماحة الشيخ القليلي ، وجري بينها حديث طويل ، حضره ليف من أهل العلم ، حول المقالة التي كان سماحة الشيخ القليلي كتبها منذ عدة سنين ، وبين فيها عدم جواز التأمين على الحياة ، فأخذ رحمه الله تعالى يستحى على إعادة نشرها ، ويذكر له مصادر علمية أوسع من التي اعتمد عليها في كتابة هذه المقالة ، وفند فكرة التأمين على الحياة^(١) تفنيداً دقيقاً ، وحشر له الأدلة العلمية على ذلك . فأطرق سماحته إجلالاً لهذا العالم النحرير ، والبحر المتدفق من العلم ، مع ضعف جسده ، وبعده عن كتبه ومراجعته .

فكان رحمه الله تعالى بحر علم لا تنزحه الدلاء ، كما قال له ذلك بعض شيوخه في حلب . فهو عالم الأولياء ، وولي العلماء ، ذو الجناحين : جناح الشريعة ، وجناح الحقيقة . قد اجتمعت عليه كلمة أرباب القلوب من أهل السلوك إلى الله عز وجل ، فشهدوا له بولاية العصر ، وإمامته بلامنافس ، وأنه نفحة من نفحات سلفنا الصالح ، هبت في القرن الرابع عشر الهجري لتنبير الطريق للسالكين ، دون ماخروج قيدشجرة عن الكتاب والسنة ، ومذاهب الأئمة رضي الله تعالى عنهم أجمعين ، وكان يردد قول شيخه « سيدي محمد أبي النصر النقشبندي الحمصي » قدس الله روحه : « أنا بريء من كل ما خالف

(١) كان يرى رحمه الله تعالى : أن التأمين بجميع أنواعه حرام ، وليس التأمين على الحياة فقط ، وكتب في هذا الموضوع مقولة علمية نشرها رحمه الله تعالى في حياته .

الكتاب والسنة». يتبرك بريديه وأصحابه ، على شدة تعظيمهم له ،
 وإذا أراد أحدهم أن يقوم له ، قال : « كما نأقومون على قلمي فلا
 تفعلوا ذلك ». على أنه حدثت بيني وبينه رحمه الله تعالى ساعة مباشرة
 في بيروت ، حدثني عن نعم الله عز وجل عليه ، فأخبرني بأنه — عز
 اسمه — تجلى عليه بأسمائه الحسنى ، فقال : « كنت ضعيفاً ، فتجلى
 الله تعالى عليّ باسمه القوي ، فقواني ، وكنت مغموراً فتجلست عليّ
 سبحانه باسمه الظاهر ، فأظهرني ، وتجلست عليّ باسمه العزيز ، فأعزني . »
 وأذكر أيضاً بكل تقدير ، أنه زاره في تلك الآونة أصحاب
 الساحة المقتون والسادة علماء لبنان الأجلاء ، ومنهم رئيس الرابطة
 الإسلامية ، الذي تربطه مع مولانا رحمه الله تعالى روابط أخوة ومحبة ،
 وزمالة أزهرية قديمة ، تمثلت بوفاء نادر وإخلاص فريد .
 وأذكر شاكراً أعضاء جمعية المقاصد الإسلامية الخيرية ورئيسها ،
 في زيارتهم المتكررة ، وما أبدوه من اعتناء واهتمام جزاهم الله عنا
 كل خير .

قبيل العودة إلى حكمة

وقد كنت أسمع منه بين الحين والحين ، بعض الأدعية
 المباركة ، والأذكار المأثورة . أذكر منها : « اللهم إني أعددتك
 لكل هول ألقاه في الدنيا والآخرة لا إله إلا الله ، ولكل هم وغم
 ما شاء الله ، ولكل نعمة المحدثه ، ولكل رخاء وشدة الشكر

لله ، ولكل أعجوبة سبحانه الله ، ولكل ذنب استغفر الله ،
ولكل مصيبة إنا لله وإنا إليه راجعون ، ولكل ضيق حسي الله ،
ولكل قضاء وقدر توكلت على الله ، ولكل طاعة ومعصية لاحول
ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . وقد رده حتى كان من آخر كلامه .

ثم أخذت صحته تسير نحو الانحدار شيئاً فشيئاً ، وهو آسف
لذلك أشد الأسف . يتمنى أن تكون صحته في حالة تسمح له
بقيام الليل ، وعبادة الله تعالى في جوفه ، وذلك عندما كان يفيق
أثناء الليل إفاقات متقطعة . ولشد ما كان حزنه وأسفه ،
يتضاعف إذا سمع نداءات المؤذن يدعو إلى صلاة الجمعة ، فيبكي
ويقول : « أنا كنت أجمع الناس للجمعة وأخطبهم ، وأنا الآن لا
أستطيع أداءها . والله إنها لحرقات في قلبي » وكان صوت المؤذن
للصاوات الخمس يطرب سمعه المرهف ، ويحدث السرور في نفسه
الطيبة ، فيطلب منا أن نفتح النوافذ ليكون الصوت أوضح في
سمعه الشريف .

ولطالما استبطاً دخول الوقت ، فيكرر الأسئلة عنه ، وكأنه
يذكرنا بقول رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « أرحنا بها يا بلال »
ولا تسأل عن حسن صلاته إذا شرع بها ، وعظيم سروره ، كيف لا ،
وقد جعلت قرّة عينه في الصلاة ، أسوة برسول الله صلى الله تعالى عليه
وآله وسلم . وحدث أن زاره الحلاق قبل عودته إلى حماة ببضعة أيام ،
وكان قد خدش صفحة عنقه الشريفة من قبل ، فغضبت وصرفته ،
وقلت : « إنه لا يجيد الحلاقة » فقال لي رحمه الله تعالى بصوت خافت ،

ممزوج بالألم والأنين : « لا تغتب أحداً ، لا تغتب أحداً » كررها
عليّ ثلاث مرات . فاستغفرت الله تعالى ، وتبت إليه . فكان رحمه
الله تعالى وقدر سره يصون سمعه الشريف عن الغيبة ، فجالسه المباركة
أبعد ما تكون عنها .

وداع الدنيا

وقيل عودته إلى حماة ، ألمت به وعكة شديدة ، قال لي خلالها :
إنه سوف ينزل إلى حماة بعد خمسة أيام إن شاء الله تعالى . وعلى أثر
هذه الوعكة ، عزف عن الطعام والشراب ، وذكر الأصحاب
والأحباب ، كأنه قد ودع هذه الدنيا ، فاتجه بقلبه إلى ربه ، لا يشرك
أحدًا في حبه ، مازجاً مرارة الألم بجلالة الايمان ، فأشهد أنه راضٍ
عن ربه سبحانه وتعالى . فاشتدت لوعتي ، وتضاعف حزني ، وشرقت
بدمعي ، حتى حسبت أن عيني ستيض ، وكبدي ستفلق ، وأن قلبي
لا بد منفطر أسفاً وحسرةً ، وجفاني للنوم ، وأقلقني شبح الفراق ،
فكنت أقضي ليلي متملاً وجلاً ، واضعاً رأسي عند صدره الشريف ،
أطمئن على أنفاسه التي تعبق مسكاً أذفر ، أنتظر كلمة منه تنعش قلبي ،
وتحيي ما مات من آمالي ، وكلما استحكم بي اليأس ، واشتد بي
الأسى أعزي نفسي ، وأقول : نحن بخير ما دام سواده فينا ، إنما
أشكو بني وحزني إلى الله ، وحسبنا الله ونعم الوكيل . وكان

هاتفاً يهتف في قلبي : (لا يسأل عما يفعل وهم يسألون)^(١) ، سبحان الله رب العرش العظيم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

الْعَوْدَةُ إِلَى الْحِمَاةِ

السبت ١٦ صفر لعام ١٣٨٩ هـ الموافق ٣ أيار ١٩٦٩ م .

وبالرغم مما كان يعانيه فضيلة مولانا ، قدس الله روحه الطاهرة ، من ضعف بالجسم ، وشدة في المرض ، فإني لم ألحظ عليه أنه فقد وعيه وغاب عن الدنيا ؛ بل كان مالكاً لوعيه ، لكنه لا يستطيع النطق بسبب ضعفه الشديد ، وقد سافر إلى حماة في اليوم الثاني بعد تلك الوعكة ، بعد أن ينس الطبيب من العلاج ، وفوض أمره إلى الله تعالى ، فقال : « هو أرحم به منا » وودعه أهل المستشفى ، والمحجوبون في بيروت ، بين بالك عليه — رحمه الله تعالى — وفارغ الفؤاد ملتاع على فراقه . كما استقبل أهل بلده نبأ قدومه المفاجيء بالذعر والهلوع .

إِلَى جَوَارِ الرَّحْمَنِ

وفي يوم الإثنين الثامن عشر من صفر عام تسعة وثمانين وثلاثمائة وألف هجرية . الموافق الخامس من أيار لعام تسعة وستين وتسعمائة

(١) الآية ٢٣ من سورة الأنبياء .

وَألف ميلادية ، في الساعة الثامنة وثمان دقائق زوالى تقريباً ؛ أي بعد صلاة العشاء بقليل ، بعد أن تليت عليه سورة يسن ، ووصل القارىء إلى الآية الكريمة :

« الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ، طُوبَى لَهُمْ ، وَحَسَنَ مَا أَب »
من سورة الرعد ، فاضت روحه الشريفة رحمه الله تعالى إلى بارئها ، وأنا أقرب الناس إليه ، أرطب فمه الشريف بالماء ، وأشم منه رائحة العطر الزكية ، وإني لأرى النور يهلاًلاً من وجهه الشريف كالبرق المتلاحق ، فكان والله أجمل ما رأيته في حياتي ، وقد عمّ الجميع صمت سكنت فيه قلوبهم وجوارحهم ، بما أفاضه الله عليهم من سكينه وروح ، وكأنها عاجل بشرام له في رحمة الله ورضوانه وفسيح جنانه : (يا أيتها النفس المطمئنة . ارجعي إلى ربك راضية مرضية . فادخلي في عبادي وادخلي جنتي)^(١) . ثم انطلق الدمع سخياً وحاراً على فقيدهم ، وقرة أعينهم ، من مقل مقروحة وأفتدة مجروحة ، فصليت العشاء عنده ، وكنت آخر من ودعه في حجرته المباركة ، قبلت قدميه الطاهرتين ، وألقيت نظرة على وجهه المشرق كفلقة القمر ، ورجوت الله تعالى أن أكون أول لاحق به رحمه الله تعالى رحمة واسعة .

تشيع الجثمان الطاهر

ونعته نشرات الأنباء إلى العالم الاسلامي عدة مرات ، وضجت

(١) الآيات ٢٧ و ٢٨ و ٢٩ من سورة الفجر .

مآذن حماة وحمص في اليوم الثاني بالتهليل والتكبير ، وإذاعة النبأ على الناس ، وقد حضرت الجموع الغفيرة من أهل العلم وغيرهم من أقاصي البلاد ، وبعد صلاة الظهر ، أذيع على جميع الناس من مآذن حماة المقالة التالية : « أيها الأخوة المؤمنون ، من كان له حق على فضيلة الشيخ محمد الحامد رحمه الله ، فليتقدم به إلى أهله ، وذلك بناء على وصيته » .

ثم غسل بالأنوار ، وكفن بالأسرار ، وصلت عليه الملائكة الأخيار ، وودعه تلامذته ومريدوه بالدهشة والبكاء ، ثم شيع جثمانه الطاهر في موكب شعبي ورسمي ، كالحشر حافل في الساعة الثالثة من بعد ظهر الثلاثاء ، وأنت تسمع للناس ضجيجاً بالبكاء كضجيج الحجيج إذا أهلّوا للإحرام ، وقد صلى عليه ولده البار الأستاذ « محمود الحامد » في جامع السلطان ، وألقيت الكلمات والأشعار في رثائه ، ثم خرج الموكب من المسجد على صوته الشريف المسجل : « اللهم اسقنا الغيث ، ولا نجعلنا من القانطين » فاستجاب الله دعاءه حياً وميتاً ، وأظلت الناس الغمام ، بعد أن كان اليوم قائظاً ، وبكته السماء ، وتراحم الناس لحمل جثمانه الشريف ، كتراحم الحجيج على الحجر الأسود ، يتبركون به ، ويحملونه على الأعناق .

وعلا الناس مهابة وجلال ، وهم صامتون على غير ما اعتادوا عليه ، من بدع في رفع الصوت أمام الجنائز بالأذكار ، وقد زاحمت ملائكة السماء جموع الأرض في تشييعه رحمه الله تعالى ، وأضحت حماة يتيمّات والدها ، وأغلقت حوانيتها ومتاجرها ، وهجرت

بيوتها ، وخرجت عن بكرة أبيها : شيباً وشباناً ، نساءً وأطفالاً ،
 الأمر الذي يذكرنا بقول القائل : إن الجنائز تظهر عظمة الرجال .
 خرجوا والكل باكٍ حوله . صعلقات موسى حين ذك الطور ،
 رحم الله الفقيد رحمة واسعة ، وإني لأشهد أنه كان راضياً عن
 ربه ، كثير الاتهام لنفسه ، يعتقد أن المرض كفارة لذنبه ، لارفع
 لدرجته ، وأن طلبه للمعالجة الطبية ، لم يكن بسبب حبه لهذه الحياة
 الدنيا ، بل ليستعيد صحته ونشاطه ؛ حتى يتابع رسالته في نشر العلم
 والدعوة إلى الله تعالى . وكأنه أدرك حاجة المسلمين إلى علمه النافع ،
 لكنه لما شعر أن أمنيته هذه أصبحت متعذرة ، سمع منه بعض أولاده ،
 ما يشير إلى أنه أحب لقاء الله تعالى ، ومغادرة هذه الحياة الدنيا
 التافهة ، متمثلاً قول شيخه سيدي أبي النصر النقشبندي رحمه الله تعالى
 في آخر حياته ، وقد ضعف عن العمل :
 « من لا يعمل خيراً في هذه الدنيا فالموت خير له » .

الطريق إلى الله تعالى

وكان من آخر وصاياه لي ولبعض إخواني في بيروت : أن
 لا نترك بعد وفاته الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم في كل يوم ألف
 مرة على الأقل .

أهم بليلى ما حيت ، وإن أمت . أو كل بليلى من يهيم بها بعدي
 وكان يأمرنا بها حال حياته المباركة أيضاً ، وكنت أفهم منه أن

في القلب طاقة لا يسدها إلا محبة الله ورسوله ، ومن لم يظفر بذلك ؛
 فحياته كلها هموم وغموم وآلام وحسرات ، ومن ظفر بها ؛ كانت قوتاً
 لقلبه ، وغذاءً لروحه ، وفرحات تتوالى . بها يتنافس المتنافسون ،
 وبأريج نسيمها يتروّح العابدون ، حتى إنني سمعته مرة يقول : « على
 حقارة شأني^(١) لو خيرت بين الملك ، وما أنا فيه من لذة التحصيل
 العلمي ، والسلوك إلى الله تعالى ؛ لاخترت ما أنا عليه » . ويردد
 قول العارفين :

« لو يعلم الملوك ما نحن عليه من لذة ، لجالدونا عليها
 بالسيوف » . وكتب لي في هذا مرغماً .

من ذاقَ طعم شراب القوم يدره ومن درّاه غدا بالروح يشربه
 ولو تعوّض أرواحاً وجادَ بها في كل لحظة عين لا تساويه
 وكثيراً ما كنت أسمع منه أن الصلاة على الرسول صلى الله
 تعالى عليه وآله وسلم ، تنوب مناب المرشد الكامل ، عندما يفتقد في
 آخر الزمان .

وإنني لأشعر بأن وصيته هذه ، إنما هي دلالة لمن أراد بعده
 السلوك إلى الله تعالى .

وإليك نصاً من كلامه في كتابه « ردود على أباطيل » :
 « على تقدير فقدان هذا المرشد ، العالم العامل بعلمه ، التقى
 النقي الورع ، الذي تربى بصحبة غيره وغيره بغيره . وهكذا إلى أن

(١) هذا الكلام منه رحمه الله تعالى شدة تواضع لله عز وجل .

ينتهي الأمر إلى السيد الأعظم صلى الله تعالى عليه وسلم . فقد ذكر العلماء أن العمل بتعاليم الاسلام ، مع الإكثار من الصلاة والسلام على سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم نحواً من (ألف مرة) في اليوم على أقل تقدير .

أقول : هذا يقوم مقام المرشد ، من حيث أن بركات روح الرسول عليه وآله الصلاة والسلام ، تعود على من يكثر الصلاة والسلام عليه وعلى آله ، فتكون روحه الشريفة مربية لروح هذا المصلي عليه ، وينتظم أمره إن شاء الله تعالى . فبلس قيادة نفسه للشرع ، وتزول عنها رغواتها ، وتذوب منها أخباثها ، وتتجه إلى العلم الصحيح عن طريق الفهم الطيب ، الذي يلقيه الله تعالى في النفس ، فيكون التوفيق لها رفيقاً والاسلام لها طريقاً .

ثم يقول بعد كلام رحمه الله تعالى :

« وليكن ثواب هذه الصلاة والسلام مهدياً إلى حضرته عليه الصلاة والسلام ؛ فإن ذلك مما يعود بالنفع على المهدي ، من غير أن ينقص من أجره شيء ، وقد قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم لفاعل هذا : « إذا تكفى همك ، ويغفر ذنبك »^(١) .

* * *

(١) قال ذلك صلى الله عليه وآله وسلم لأبي بن كعب رضي الله عنه ، عندما قال له : أجعل صلاتي كلها لك ؟ . والحديث رواه الترمذي وحسنه .

خاتمة

فأنت ترى مما تقدم ، أن مولانا - قدس الله سره - من أولي العزم من الأولياء ، عظيماً من العظماء ، آتاه الله تعالى من مظاهر العظمة ما خضعت له قلوب العباد على رضى منها ، فأخذ بأزمته إلى الله تعالى ، راسخاً في العلم ، عليمًا وجبراً فهِمًا ، بعيداً عن الزلل ، محفوظاً ، ناطقاً بالحق ، ما خان الله تعالى في حكم ، غير هَيَّاب غطرسة الحكم ، ولا جهل العوام .

صوفياً قطباً ، ليست له شطحة ، قهر أحواله حتى استولى عليها ، فاستوى متمكناً على عرش الإرشاد كاملاً مكتملاً ، يشعل في السالكين جذوة الحال ، فيطوي لهم السير ، وينشر في سرهم الأسرار ، أوتي من قوة الروحانية ، ما جعله ينفذ إلى قلب كل مريد كأنه له وحده . رحمه الله تعالى ، كنت أفقده وهو حي ، وأشتاقه وهو أمامي ، وأحن إليه وأنا قريب منه ، عزائي فيه أنه قال لي : « ليس برجل من حجه عن مريده ذراع من تراب » .

رحمه الله رحمة واسعة ، وجزاه عنا أحسن الجزاء ، وقد كان له علينا من الفضل والمنة أكثر مما للأب الرحيم على ولده البار ، وإني أعترف له بذلك عليّ خاصة . فقد شرفني تربية بخدمته ، وسلوكاً بالانتساب إلى خرقته العلية ، ثم زادني على ذلك ، فكان من تواضعه الشريف رضاؤه أن يرفعني إليه ، فأخطبني ابنته الصغرى ، وأوصى لي بذلك ، وإنه لشرف عظيم .

ولا أقول إني وفيت حقه في ذكر مناقبه ، وجمل صفاته ، فإنه
رحمه الله تعالى ، يعز على الأقلام أن تترجم مثله كعظيم .

ضن الزمان بأن يجود بمثله إن الزمان بمثله لضنين

وبعد : أستمح جنابه العالي ، رحمه الله تعالى ، عذراً عن كل
تقصير في أداء حقه العظيم ، فقد أسلف أنه جهد المقل ، وقد تحريت
الصدق في نقولي ومشاعري ، من غير زخرفة ولا ترويق .

ما أمر عيش من فارق الأحباب ، وغيب قلبه في التراب ! فما
عيش من فقدت وحيدها في حجرها ، لا ترقأ عبرتها ، فلا ينقضي حزنها ؛
بأقل من حزني عليه وحرقتي ، فقد غطى كل مصاب بعده .

و كنت 'أعير' الدمع قبلك مَنْ بكى

فأنت على من مات بعدك شاغل

وإنا لله وإنا إليه راجعون .

الدكتور محمد سلمان النجار

* * *

الباب الثاني

محكمة العالمية

« ونحن بأي حال ، نخترم الجهد العلمي الصحيح ، ونعظم

القول فيه ، لأننا ما كان ، ومن أي مصدر كان »

محمد الحامد

تمهيد

إن كل دارس لمراحل حياة الشيخ رحمه الله تعالى ، يدرك أنه عاش طيلة حياته مدافعاً عن الحق ، ساهراً حول حريمه وحدوده ، ولم يستطع الباطل - رغم قوته ، وكثرة حيله ، وتعدد أشكاله وألوانه - أن يجد ثغرة ينفذ من خلالها ، أو ثمة يتسلل منها ، فكلما اقترب من حمى الحق ، وجد الشيخ الحامد رحمه الله تعالى متصدياً له ، راصداً لحركاته ، شاهراً في وجهه سلاح العلم ، رامياً له بقذائف الايمان ، فلا يملك إلا أن يولي هارباً ، قبل أن تتزلزل أركانه ، ويندك بنيانه .

ولما كان العلم أمضى أسلحته التي دافع بها عن حياض الشريعة ، وجدت لزاماً عليّ أن أقدم هذا الفصل قبل عرض آرائه رحمه الله تعالى في التصوف ، وفاءً مني للعلم الذي أخلص له ، وللرسالة التي قدّم لها عصارة فكره ، وسقاها بروح حق روحه ، وعطرها بشذوي أنفاسه ، ولأن العلم هو الأمير في حياته على كل شيء ، وهو القائل في رسالة لأحد تلاميذه :

« العلم أمير على التصوف ، لثقيمه عنه بدعاً ودخائل ، قد تعلق به على الأيام والدهور . . إله » .

القرآن الكريم

وهو مع السنة الشريفة المحوران الأساسيان لحياته العلمية رحمه الله تعالى ، فقد كان حافظاً له ، متقناً لعلومه . بدأ بحفظه وهو في العاشرة من عمره من مصاحف الجوامع ؛ لأنه ما كان حينئذ يملك مصحفاً ، وأتمه أثناء دراسته في مصر ، ففي رسالة مؤرخة بيوم الثلاثاء لخمس بقين من صفر ١٣٥٩ هـ ، كتب إلى شيخه أبي النصر رحمه الله تعالى قائلاً :

« أحمد الله تعالى ، على أني قدمت نعمة الله عليّ ، فأتممت حفظ الكتاب المجيد ، فأنا أعدُّ اليوم في حفظة القرآن الكريم ، وتلك نعمة أعترف بأنها كبرى ، وأني عاجز كل العجز عن شكرها ، ولكني أعلم أن فضل الله عليّ عظيم ، وأن كل خير منه جل شأنه ، وفي الحديث الشريف : « من آتاه الله القرآن ، فظن أن غيره أوتي خيراً منه ، فقد حقّر عظيمًا وعظّم حقيراً ^(١) » « وأنه من حفظ القرآن ، فكأنما أدرجت النبوة بين جنبيه إلا أنه لا يوحى إليه ^(٢) » وأنه يشفع حامله

(١) ذكره الغزالي في الإحياء بلفظ : « من قرأ القرآن ، ثم رأى أن أحداً أوتي أفضل مما أوتي ، فقد استصغر ما عظمه الله » وقال العراقي فيه : أخرجه الطبراني من حديث عبد الله بن عمرو بسند ضعيف .

(٢) ذكره في الترغيب والترهيب بلفظ : « من قرأ القرآن ، فقد استدرج النبوة بين جنبيه ، غير أنه لا يوحى إليه » رواه الحاكم وقال : صحيح الإسناد .

يوم القيامة^(١) ، ويدفع عنه ، فالحمد لله على ما أولى وأنعم .. إلخ .
وهذه المناسبة أحب أن أشير إلى كتاب في موضوع علوم القرآن ، كان سيدي رحمه الله يتق به ويحب مؤلفه ، وهو كتاب « مناهل العرفان في علوم القرآن » للشيخ عبد العظيم الزرقاني رحمه الله ، مدرس علوم القرآن وعلوم الحديث بكلية أصول الدين في الأزهر الشريف ، قرأه سيدي رحمه الله أثناء دراسته في مصر ، فوجد فيه بعض الأخطاء العلمية الصغيرة ، فبه المؤلف إليها ، فقبلها - رحمه الله - واستدركها في الطبعة الثانية للكتاب ، وأهدى سيدي نسخة منها .
وقد خصص رحمه الله للقرآن الكريم يومين من درسه العام ، الذي كان يلقيه كل يوم ، قبيل صلاة العشاء في مسجد السلطان خلا ليلة الجمعة ، يلقي فيها دروس التفسير ، حتى تمكن من تدريس تفسير القرآن مرتين تقريباً .

وما كان رحمه الله يلقي درساً ، حتى يحضر له تحضيراً كاملاً ، يصرف له وقتاً كبيراً ، يمتد أحياناً من بعض الظهر إلى غروب الشمس ، لا يترك - رغم غزارة علمه - مرجعاً في التفسير ، إلا ويعود إليه ، جل اعتماده في تفسير آيات الأحكام على كتاب « الجامع لأحكام القرآن » للقرطبي ، وكتاب « مذكرة تفسير آيات الأحكام » الذي كان مقرراً تدريسه لطلاب كلية الشريعة - إحدى كليات الجامع الأزهر - سنة ١٣٥٣ هـ .

(١) وهو معنى حديث صحيح في مسلم ولفظه : « اقرأوا القرآن ؛ فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه » .

يضع أمامه على منصة الدرس كتاب تفسير الحازن ، ولكنه يضع في قلبه عصارة الجهد الطويل الذي بذله في تحضير درسه ، حتى أخذ درسه العام صفة الدرس المنهجي الخاص ، فلم يثبت عليه إلا صفوة من تلاميذه وأبناء روحه ، استعذبوا صعوبته ، وعشقوا غوصه على المعاني العميقة ، وتبحره في الفروع الدقيقة ، يقف أحياناً عند الآية الواحدة عدة دروس ، حتى يستكمل بيان معانيها ، والأحكام المتفرعة عنها ، واستدلالات العلماء المختلفة منها .

ولقد كنت أخشى عليه من كثرة ما يبذل من جهد وعناء في هذه الدروس ، فأرجوه أن لا يتوسع كثيراً في شرح الآيات ، وألا يقف عندها طويلاً ، فيجيبني - رحمه الله تعالى - : « العلم لا يكون إلا هكذا » . يستعين لتفسير الآيات الأخرى بأوسع المراجع ، أفضلها عنده كتاب « روح المعاني » للآلوسي ، وأكثرها تحقيقاً في نظره ابن كثير ، وأدقها في العقيدة كتاب « مفاتيح الغيب » للفخر الرازي .

يقرر عقيدة أهل السنة ، من خلال تفسيره للآيات التي فيها بعض صفات الله سبحانه وتعالى ، ومباحث العقيدة لها الصدارة عنده ؛ لعلمه بخطورها ، وكثرة مزالقتها ، وشدة حاجة الناس إليها ، قال رحمه الله في ذلك : « الاعتقاد الحق هو الأصل الأصيل ، وهو الركن الركين ، وهو الأول الأول والعمل الصالح ، يقع ثانياً في المرتبة ^(١) . إله » .

ومعاني العقيدة الدقيقة الخطرة ، لا يستطيع التعبير عنها إلا

(١) ردود على أباطيل .

الأفذاذ من العلماء ، ولقد كان رحمه الله ، يعرف مقدار تمكنه في هذا الميدان ، حتى صرح لي مرة ، بأن في العقيدة معاني ، لا يستطيع أن يعبر عنها سواه ، ولم يقل رحمه الله ذلك افتخاراً ، إنما قاله ؛ تحذيراً بنعمة الله عليه ، وغرساً للثقة به في قلوب تلاميذه ، حتى يكمل انتفاعهم به ، وانتفاع التلميذ بأستاذه بمقدار ثقته به . ويرجع كل من يريد أن يتأكد من هذه الحقيقة إلى رسالة صغيرة لسيدي رحمه الله في موضوع القدر ، سماها : « التدارك المعتبر لبعض ما في كتاب القضاء والقدر » وفيها خاتمة في أفعال العباد واتصالها بالقضاء والقدر .

وكان --- رحمه الله --- يحب التخصص في ميادين العلم ، ويتمنى أن يوجد متخصصون في علم التفسير . وقد سمعته مراراً يقول : « إن في علم التفسير بحوثاً شائكة ، قامت حولها معارك علمية كبيرة ، وحذالو كان عندنا متخصصون في كل فرع من فروع العلم ، أصبحنا يابني مضطرين إلى التنقل من علم إلى علم ، ومن فن إلى فن ؛ لنسد الفراغ ، ونغلق الساحة .. إه .. » وأشهد ويشهد معي كل من عرفه وقرأ له ، أنه ملأ الساحة العلمية بكل أبعادها وجوانبها ، ولقد دلني رحمه الله على بعض هذه البحوث ، وسمعته يتناول بعضها عندها مر بها خلال دروس التفسير ؛ فما جاوزها حتى خاض غمارها ، وحل عقدها ، وأزال لبسها ، وخرج ظافراً منتصراً ، وقد حفظ لمستمعيه — من العامة والخاصة — سلامة عقيدتهم ، وصفاء قلوبهم .

القرآن الكريم في نظره — رحمه الله — كتاب هداية وإرشاد ، وقد جعل ذلك عنواناً لمقولة قال فيها : « أنزل الله سبحانه القرآن

الكريم هادياً ومرشداً إلى السبيل الحق، وموجهاً إلى السعادة الصحيحة، أنزله الله سبحانه ناصحاً ومرياً، وضمنه من التشريعات الصالحة، ما تكفل للعامل به الهناءة في دنياه وأخراه. تقويم للاعتقاد، تصحيح للخلق، ترغيب في الثواب، ترهيب من العقاب، قصص حق؛ يريك الماضي حاضراً، وينقلك إليه، حتى لكأنك شاهد دعوة الرسل عليهم الصلاة والسلام إلى الله تعالى .. إله^(١) .

وليس القرآن الكريم عنده — رحمه الله — كتاب نظريات علمية، وحسابات رياضية، وحول ذلك قال رحمه الله: «إياك أن تتوهم أن القرآن الكريم، جاء يبحث النظريات العلمية تفصيلاً، إن هذا الوهم لا ينبغي أن يطيف بالأذهان، فما يستهدفه القرآن هداية وإرشاد، لا تقرير لقاعدة حسابية، ولا برهان على نظرية هندسية، ولا تفصيل لدقائق الكيمياء، وإن دعا إلى التبصر في كل علم نافع للحكمة التي ذكرناها، إن محاولة استنتاج النظريات العلمية من القرآن الكريم تعسف لا يرضى، وتكلف لا يحمد؛ فليعلم هذا، فقد زلت فيه بعض الأقدام وبرئنا سبحانه نعوذ من الزلل. إله^(٢) .

والحقائق العلمية التي أشار إليها القرآن الكريم في معرض دعوة الناس إلى التفكير في بديع صنع الله تعالى، لا تتعارض مع العلم الصحيح، قال رحمه الله: «القرآن الكريم يعرض على الإنسان صور هذا الكون عرضاً صحيحاً،

(١) ردود على أباطيل .

(٢) المرجع نفسه .

لا نجار عليه ، ولا يقرر إلا الواقع الذي لا يتصل بالخيال ، ولا يناقض العلم الصحيح أيضاً ، وهذا العرض حكمته الأولى توجيه القلوب إلى بارئها ، ولذا أمر بالتفكير في المصنوعات الربانية ، وشيء آخر هو الانتفاع بما خلق الله وسخر للانسان ، من مكونات تفيده في قطع مراحل حياته ، فيعيش عيشاً رغداً متمتعاً بثمار هذا الكون . . . (٣) .

جل اعتماده في تفسير القرآن الكريم على القرآن . وكان - رحمه الله - يقول : « لا بد لمن يريد تفسير القرآن من حفظ القرآن » ولهذا كان يوصي تلاميذه بحفظ القرآن الكريم ، ويحضهم عليه ، حتى أصبح بينهم عدد لا بأس به يحفظ كتاب الله تعالى ، ويستعين بعده بالصحيح المأثور عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، والمنقول عن أصحابه والسلف الصالح من علماء التابعين . يقف من الإسرائيليات موقف السلف الصالح ؛ فما عارض منها انصرص الكتاب والسنة رده ، وما وافق قبله ، مع بيان مصدره وكشف هويته .

ويزيد في جمال دروسه في التفسير قوة في بيانه ، وسلاسة في طبعه ، وفصاحة في لسانه ، وعدوبة في منطقته ، تمدّه ذاكرته الجبارة بروائع الشعر ، ونفائس الحكم ، ونوادر الأمثال ، يلف كل ذلك بوشاح مستمد من روحه القوية الخاشعة أمام كلام الله ، وتوجهات قلبه الكبير العامر بذكر الله تعالى .

وما أكثر ما تمر به آية كريمة ، تلامس الحس في قلبه الشريف ،

(٣) المرجع السابق .

فتفيض دموعه ، ويرتفع نشيجه ، ويعلو ويهبط صدره . وتزين ذلك كله هبة العالم ، وجلال الذاكر ، وخشوع العابد . ألا ما أعذب هذه السويغات ، وما أحلى هذه الأوقات ، ذهبت بذهابه ، وانقضت بموته ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

يقسم آيات كل سورة إلى مجموعات صغيرة ، متجانسة متقاربة ، يبدأ الدرس بتلاوتها ، بصوته ذي النبرة العذبة ، والنغمة الحلوة ، ويعيد تلاوتها في ختام الدرس ، ويتفرق تلاميذه وفي آذانهم عذوبة الصوت ، وفي قلوبهم يقين الايمان ، وفي أفكارهم صفاء المعرفة ... لا يترك شبهة ولا يغادر بدعة ، إذا أحس أن أحداً من تلاميذه متأثر ببدعة أو شبهة ، ارتفع صوته ، واحمر وجهه أثناء الدرس ؛ غضباً لدين الله تعالى ، ولحرمة كتاب الله ، وما أجمله إذا غضب ، يزأر زئير الأسد ، ويتدفق العلم من فمه تدفق السيل ، ولا يهدأ حتى يطهر قلوب تلاميذه وعقولهم من أي أثر لشبهة أو بدعة ، كان - رحمه الله - سريع الغضب ، سريع الرضى ، وما كان غضبه إلا لدينه ولربه ، وهو في غضبه متمكن راسخ كالجلجل ، فلا يزل لسانه ولا يتغير جَنَانُهُ ، تدفعه أمانته العلمية إلى عرض كل أقوال العلماء في تفسير آيات كتاب الله تعالى ، ثم يختار منها أقربها إلى روح كتاب الله تعالى ، فيقوّيه ، مبيّناً وجهة نظره ، شارحاً أدلته وبراهينه ، مقارناً لها مع أدلة الآخرين ، وأحياناً لا يكتفي برأيه - رحمه الله - بل يحمله تواضعه لسؤال من حوله من تلاميذه عن رأيهم في ذلك ، يفسح لهم مجال المذاكرة والمناقشة ، حتى يقتنع بقناعتهم ، ويطمئن لحسن فهمهم ، وربما أعاد النظر في رأيه ، وأخذ برأي بعض

تلاميذه ، وأعلن تراجعهم عن رأيه القديم ، ولو بعد مرور عدة أيام .
وبعد كل هذا ، فقد خصص لتلاوة القرآن الكريم جزءاً من يومه
يتلو فيه آيات الكتاب لنفسه ، ويفرغ بقلبه الكبير من بجار نوره
وحداثي نوره .

وكان يدعو الناس لذلك ، قال رحمه الله في (نصيحة إلى الشباب) :
« وليكن لكل منا مجلس مع ربه سبحانه ، يتلو كتابه ،
ويذكره بما يشاء من صيغ الذكر ، فإن الذكر يصقل القلب ، ويهذب
النفس ، وينعش الأرواح ، وما خير المسلم إذا كان جافاً ، لا يرق
له قلب ، ولا ينهمر منه دمع ، إن قساوة القلوب تداوى بذكر الله . إله (١) » .
وكم كان يشكو رحمه الله ويتألم من كثرة أعماله العلمية والاجتماعية
لأنها تحرمه أحياناً من قراءة كتاب الله تعالى ، وتحول بينه وبين متعته
الكبرى في تدبر آيات القرآن العظيم .

السُّنَّة

وهي المحور الأساسي الثاني لنشاطه العلمي وحياته العلمية رحمه
تعالى ، وعمله العلمي فيها ذو فرعين رئيسيين : السيرة الشريفة
والحديث الشريف .

(١) ردود على أباطيل .

السيرة الشريفة

أما السيرة الشريفة ، فكان رحمه الله مشغولاً بها ، مولهاً بدرسها وتدريسها ، ولا عجب في ذلك ، فحبه لها تعبير عن حبه العظيم لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فقد وصل رحمه الله في طريق محبة الرسول ﷺ إلى نهاية ما بعدها نهاية ، وإلى قمة ليس فوقها قمة ، وشرب كأس المحبة كله فما أبقي منه شيئاً . الشوق إلى الله تعالى وإلى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم مركبه ، ما أنس إلا به ، وما سعد بسواه ، وما أكثر دموع الشوق التي ذرفها في هدأت الليل وفي الخلوات والجلوات ! وما أعظم الآهات والزفرات التي صدرت من ذلك القلب التقى النقي المرهف الشعور والإحساس ! لقد بلغ رحمه الله من رهاقة حسه ودقة شعوره ، إلى أن أوصى كل من أراد الحج ، ألا يأتي لتوديعه ، يخشى رحمه الله ألا يتحمل قلبه هجرات الشوق ، ودقات الحنين . ولقد حج رحمه الله مرة واحدة في حياته ، وكان يتعنى الحج والزيارة كل عام ، لكن ورعه وتقواه منعاه من تحقيق أعز أمانيه ، كان يقول : « كيف أذهب إلى الحج وأترك البلد خالية ليس فيها من يفتيها ، ويحل قضاياها الشرعية ، بعد أن ذهب معظم العلماء إلى الحج ؟ كيف أذهب إلى حج النفل ، وأترك طلاي في المدرسة ، وهم أمانة في عنقي ، أسأل عنهم أمام الله تعالى ! » ولما أحيل على التقاعد بطلبه ، كان يمني نفسه بالحج والزيارة ، ولكن المرض ما أمهله ، وقضى رحمه الله ، واللوعة تأكل قلبه ، وحرقة الشوق تذيب فؤاده .

استأذنه أحد المتيمين بحبه من أهالي بيروت ، أن يأذن له بإقامة مجلس شريف للصلاة والسلام على سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، فأجاب رحمه الله وهو يعاني آلام المرض في المستشفى : « لو استطعت أن أمر بحفظتي بالصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، لفعلت » وقد يلومني بعضهم ، ويدعي أنني خرجت عن نطاق البحث ، ونجاوزت الحد . لا تتسرع بالانفي ولا تفعل ، إن الحديث عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لا يمكن أن يكون حديث عقل فقط بل لابد للقلب أن يتحدث مع العقل ، وكان سيدي رحمه الله ، يتخير من كتب السيرة ما كتب بعقل مؤلفه وقلبه ، حتى يتوفر له تحقيق العالم ، وعاطفة المحب الصادق .

اختار لدرس السيرة المسائي كتاب « السيرة النبوية والآثار الحمديدية » لمؤلفه السيد « أحمد زيني » المشهور « بدخلان » رحمه الله ، وخصص له ليلة كل أسبوع هي ليلة الخميس ، وكان رحمه الله يقول ، « هذه ليلة محمد صلى الله عليه وآله وسلم » . هذه الليلة كانت أجمل ليالي الأسبوع في جامع السلطان ، تلتقي فيها أنوار السيرة الشريفة ، مع توجهات القلب الكبير المقيم بحب المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم ، فيفيض النور ، ويزداد السرور ، وتتلشى أربعة عشر قرناً من عمر الكون ، لتعيش الأرواح والقلوب مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، كأنها ولدت في تلك الساعات ، وشهدت معه صلى الله عليه وآله وسلم تلك المشاهد . وإن كل من شهد هذه الدروس ، لن ينسى حلاوتها ، ولن يغيب عن قلبه أنسها ، ولنستمع إلى مستشرق ألماني يدعى الدكتور

« غنتر رودمان » ، طوف في بلاد العرب من أقصاها إلى أقصاها ، ومر في تطوافه على حماة ، وبقي فيها قرابة شهر ، داوم خلال إقامته فيها على دروس سيدي - رحمه الله - الصباحية والمسائية ، وبعد انتهاء جولته وعودته إلى بلده ، كتب رسالة مطولة إلى سيدي رحمه الله ، وصف له جولاته على المعاهد العلمية الشرعية في مختلف البلاد العربية ، وسجل له بعض انطباعاته عن الاسلام والمسلمين ، ومن جملة أقواله في هذه الرسالة : « وفي الختام أريد انتهاز الفرصة ، لأقدم لكم شكري العميق على ضيافتكم الكريمة ، التي أتاحتم التعمق في روح الاسلام الذي أثر على تفكيري كثيراً ، وإنني أتذكر دائماً بشوق دروسكم ، وخاصة مساءً في المسجد . في هذا المجال ظهرت شخصيتكم الكريمة بوضوح ، وإنني لن أنسى تأثيركم الشديد خلال قراءة سيرة الرسول ، الذي لمس قلبي ، وجعلني ألحظ إيمانكم العميق ، وإنني أتمنى لمجهودكم كل النجاح ، وأرجو التوفيق في إنهاء كتابكم الجديد الذي شهدت تصنيفه .. إلخ » (١)

وقد تمكن رحمه الله من تقرير السيرة تدریساً عدة مرات ، وأراد في آخر حياته تدریس كتاب « الشفا في حقوق المصطفى » صلى الله عليه وآله وسلم للقاضي عياض رحمه الله ، ولكن المرض عاجله وحال بينه وبين ما يريد ، فأوصاني رحمه الله عندما عدته في بيروت وقت

(١) كان من عادة الشيخ رحمه الله تعالى مراجعة كل ما يكتب من كتب ورسائل في الدرس الصباحي الخاص أمام خاصة تلاميذه ، ولقد شهد هذا المستشرق بعض هذه الدروس التي كان الشيخ رحمه الله تعالى يراجع فيها كتابه « نكاح المتعة حرام في الاسلام » .

وداعه ، أن أقرأ في الدرس كتاب الشفاء . والحق أن هذا الكتاب من أنفس ما كتب في موضوع السيرة ، ما سبقه في ترتيبه وتبويبه أحد وما لحقه ، انفرد بتحقيقات علمية كبيرة ما تمكن غيره منها ، وهو في الوقت نفسه حديث عالم مترع القلب بحب النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، أشرقت على كلماته أنوار النبوة ، ولعلت بين سطوره علامات المحبة .
رحمك الله ياسيدي ما رأيت مثلك أحداً يعرف أقدار العلماء ، ويدل على مواطن الفضل .

وكم كان يتألم حين يلمس بين الناس جهلاً بسيرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وإعراضاً عن دروسها ومدارسها ، وانكباباً منهم على دراسة حياة من لا يصلحون خدماً لنعلم النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فلا يملك رحمه الله سوى التألم والتأسف والتعرق ، ولقد عبّر عن حرقته هذه بخطب منبرية خصصها لموضوع السيرة الشريفة ، يتن فيها وجوب تعلمها وتعليمها لجيل الأمة الناشئة ، وكان يذكر الناس بقول سعد بن أبي وقاص لأولاده وهو يعلمهم مغازي النبي صلى الله عليه وآله وسلم . كان رضي الله عنه يقول لهم : « خذوها يا بني » ، فإنها شرفكم .

وما كان رحمه الله يعتذر عن محاضرة أو خطبة بأي مناسبة تتصل بحياته صلى الله عليه وآله وسلم . أذكر أنه طلب منه منذ سنتين ، أن يلقي كلمة في الحفل الرسمي في ذكرى ميلاده صلى الله عليه وآله وسلم ، وكانت بوادر العلة التي توفي بها قد بدأت تتعبه ، وكثرة الأعمال أخذت ترهقه ، فشكالي رحمه الله كثرة أعماله ، وسوء صحته ، فقلت له : ياسيدي لو اعتذرت عن هذه الكلمة ، فكان جوابه رحمه الله : « إنني أستحي

من النبي صلى الله عليه وسلم ، أن أدعى للكلام في ذكرى مولده الشريف ، ولا أتكلم بها شيئاً » وتكلم رحمه الله زهاء الساعة ، وتكلمت معه قلوب الناس ودموعهم .

الحديث الشريف

وبمقدار حبه العظيم للنبي ﷺ ، أحب الحديث الشريف واعتنى به رحمه الله عناية كبيرة ، لأنه في نظره - فضلاً عن كونه كلام المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم - الركنة الثانية للدين الخفيف وللشريعة المطهرة ، التي عاش طيلة حياته خادماً لها مدافعاً عن حياضها ، محافظاً على صفاء جوهرها وسلامة عنصرها ، وفي هذا قال رحمه الله : « النبي - عليه وآله الصلاة والسلام - سراج منير ، أنى سار أنار ، وحيثما اتجه أضاء . قوله شرع ، وفعله شرع ، ونقيره شرع . إله (١) » أنس به أنه بصاحبه صلى الله عليه وآله وسلم ، فكان يرتاح بقراءته من عناء الجهد العقلي الكبير الذي يبذله في دروس الفقه الصباحية ، فكلما ختم درس الفقه الصباحي لجأ إلى الحديث الشريف يستروح منه الروح والريحان ، ويستنشق منه عير أنفاس النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فينسى متاعبه ، وتزول عنه آلامه .

وهكذا قرر كتاب « تيسير الوصول للشيباني » وهو كتاب من أنفس ما ألف في موضوع الحديث الشريف ، اختصر فيه مؤلفه أحاديث الكتب الستة لأعلام مؤلفي الحديث : مالك ، البخاري ، ومسلم ،

(١) ردود على أباطيل .

وآبي داود ، والترمذي ، والنسائي رحمهم الله . وبوبها بحسب الموضوعات
ورتب موضوعاتها بحسب ترتيب الأحرف الأولى منها
وخصص رحمه الله ليلة في الأسبوع هي ليلة الأربعاء لتدريس
الحديث الشريف في الدرس العام ، وكان آخر كتاب درسه كتاب
الأربعين مع شرحه للإمام النووي رحمه الله ، وقبله الترغيب والترهيب
للمنزوي ، وقبله الجامع الصغير للسيوطي ، ولا أدري ماذا قرأ قبل
الجامع الصغير ، وإن كنت أرجح كتاب الصحيح للبخاري رحمه الله .
وفي درس الحديث الشريف ، كان يسرع رحمه الله ، حتى يقرأ
أكبر عدد ممكن من الأحاديث الشريفة ، ويقف طويلاً عند أحاديث
الصفات ، فيشرحها شرحاً وافياً ، مبيناً مذهب السلف والخلف فيها ،
مبعداً عن قلوب تلاميذه كل شبهة ناتجة عن سوء فهم لظواهر الكلام
النبوي الشريف . ويقف أيضاً عند أحاديث الأحكام ، ليقرر كل الأحكام
الشرعية المستنبطة منها ، ويبين استدلالات الأئمة المختلفة منها ، ويرجح
أحياناً بعض الاستدلالات على بعض ، ويقول : هذا الحديث يشهد
للإمام الفلاني ، وهذا يشهد لفلان ، ولكنه يختم بحقه بقوله : « لكل
دليله ، ورحمهم الله جميعاً » ولا ينسى رحمه الله أن ينشر خلال ذلك كله
قواعد مصطلح الحديث ، شارحاً لها ، وموضحاً لغوامضها ، يضرب لها
الأمثال الواقعية ، بما يمر به من أسانيد ومتمون ، ولكثرة حبه وشغفه
بالحديث الشريف ومطالعة له ، تكونت لديه رحمه الله ملكة علمية ،
يستطيع بواسطتها أن يميز بين الحديث الصحيح والموضوع ، فكان إذا
سئل عن حديث موضوع يقول : « لا تلوح على هذا الكلام أنوار النبوة »

لكنه رحمه الله لأمانته العلمية ما كان يتسرع في حكمه ، حتى يرجع إلى المصادر الحديثية ليتأكد من هوية الحديث .

يغضب أشد الغضب ممن يراه يرد حديثاً نبوياً شريعافاً ، ويوصي بأن يؤخذ كل علم شرعي من منابعه الأصلية ، فعلم التفسير يجب أن يؤخذ من كتب التفسير ، والحديث من كتب الحديث ، والفقه من كتب الفقه .

الفقه

احتل الفقه في حياته العلمية - رحمه الله - المكانة الأولى ، واستهلك قدراً كبيراً من جهوده العلمية ، وذلك لعدة أسباب ، منها :
١ - الفقه ثروة الكتاب والسنة ، ولهذا المعنى كان رحمه الله يردد كثيراً : « الفقهاء هم الأطباء ، والمحدثون والمفسرون هم الصيادلة » وهو من كلام الأعمش لأبي حنيفة رحمه الله تعالى .

٢ - الفقه علم الحلال والحرام ، وهذا يحتاج إليه الانسان في شتى شؤون حياته ، وقد بين رحمه الله هذا المعنى في تصديره لكتاب « الحيف والنفاس » فقال : « لست أقصد في تصديري لهذه الرسالة إلى بيان فضل علم الفقه الاسلامي ، فإنه غني عن البيان ، إذ هو الاسلام والايمان ، وقد دخل مع متبعيه كل مدخل ، وخرج معهم كل مخرج ، وهو الدين بمعناه الكامل الذي ارتضاه الله سبحانه لنا : عبادات ،

ومعاملات ، ومناكحات ، وحدوداً وفواجر ، وخططاً ندرأبها عنا ؛
لئامن شر العدو المغير الذي يريد تدميرنا ، وطمس المعالم التي قام عليها
بجدنا وعمرت بلادنا . هذا إلى أحكام توزيع التركات في الموارث ،
وتقسيمها في المستحقين . إ هـ »

وقوله رحمه الله عن الفقه : « إذ هو الاسلام والايمان » لأنه عماد
الدين ، فقد روى الدارقطني والبيهقي ، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن
النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : « ما عبد الله بشيء أفضل من فقهه في
دين ، ولفقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد ، ولكل شيء عماد
وعمد هذا الدين الفقه » .

وروى الترمذي ، وابن ماجه ، والبيهقي ، عن ابن عباس رضي
الله عنها قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فقيه واحد ،
أشد على الشيطان من ألف عابد » . وروى البخاري ومسلم عن معاوية
رضي الله تعالى عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من
يرد الله به خيراً يققه في الدين » ورواه أبو يعلى ، وزاد فيه : « ومن لم
يفقهه لم يبال به » .

ومنهجه رحمه الله تعالى في الفقه يقوم على الأسس التالية :

١ - التزام آراء أئمة مذاهب الفقه الاسلامي ، واحترامها ،
والوقوف عند حدودها . ولقد كتب - رحمه الله - في هذا الموضوع
بجناً مطولاً وهو على فراش المرض ، تحت عنوان « لزوم اتباع مذاهب
الأئمة حسماً للفوضى الدينية » نشره الشيخ أحمد البنانوني في كتابه
« الاجتهاد والمجتهدون » ونشر بعد ذلك في رسالة مستقلة . وبما قال فيه :

« إن أفكار الأئمة أبعد من أنظارنا القاصرة وأعمق ، قد أسرجوا لنا الفقه وألجوه ؛ فما علينا إلا أن نتبع ما قرروه ، كما لو أفتونا به وهم أحياء ، ولا سيما والأحاديث النبوية الشريفة فيها صحيح الثبوت ، وفيها حسنه ، وفيها ضعيفه ، ومنها المنسوخ حكمه ، ومنها الموضوع المصنوع الذي لأصل له ، فافتحام لجة الاجتهاد مهلكة على الضعفاء . إله »

٢ - الدراسة الفقهية عنده - رحمه الله - لا تقتصر على دراسة الأحكام فقط مجردة عن أدلتها ، بل تتعدى ذلك إلى دراسة الأحكام مع أدلتها ، وهو ما يعبر عنه اليوم بالفقه الاستدلالي ، ولهذا كان رحمه الله يقرر في درسه الصباحي كل يوم هذا النوع من الفقه . قرأ أولاً كتاب « الاختيار » وفيه زبدة أدلة الفقه الحنفي ، ثم انتقل منه إلى كتاب « تبين الحقائق شرح كنز الدقائق » للعلامة الشيخ عثمان بن علي الزيلعي الحنفي ، وهو من أعلى وأوسع ما ألف في فقه الدليل للمذهب الحنفي ، وقل من العلماء من يرجع إلى هذا الكتاب لصعوبته ، وقد قرر تدريس قسم منه في أقسام التخصص العالي في الأزهر الشريف . بدأ به رحمه الله منذ سنوات عديدة ، وله عليه تعليقات واستدراكات ، استخرجها من أمهات كتب المذهب ، مثل الهداية ، والعناية ، وفتح القدير ، وحاشية ابن عابدين ، وتقريرات الرافعي عليه ، وشرح المجلة للأتاسي ، وغيرها ، ولم يقدر له إتمامه ، فقد توفي رحمه الله بعد أن وصل إلى أول كتاب الصرف من المجلد الرابع .

٣ - أما الأحكام الفقهية المجردة عن الأدلة ، فكان يقررها في دروس الفقه المسائية أثناء الدرس العام ، وقد خصص للفقه يومين في كل

أسبوع ، قرر فيها بحثاً كثيرة من حاشية ابن عابدين و كتاب مراقي
الفلاح ، وفي السنوات الأخيرة ، بدأ بتقرير كتاب « الهدية العلائية »
مع حواشي وتعليقات وضعها على هامشه ، وكان يملئها على طلابه أثناء
الدرس . وهي من أنفس التعليقات وأدقها ، حرر فيها كثيراً من
المسائل ، بحيث تغني قارئها عن المطولات الفقهية ، وتوفي رحمه
الله قبل أن يكملها .

٤ - إن دروسه في الفقه شاملة لكل أبوابه ، ولم يكن رحمه الله
يقتصر على فقه العبادات ، بل اهتم كثيراً بفقه المعاملات والأنكحة ،
وكان - رحمه الله - يدرك مدى حاجة الناس إليها ومدى جهلهم بها ،
وأذكر أنه قرر دروساً في فقه المعاملات ، وجعل عمدته فيها رسالة
صغيرة في المعاملات ، وحض علماء حمص على نشر رسالة قيمة في
المعاملات للشيخ عبد القادر الحجا المحصي رحمه الله ، فنشرت مع مقدمة
له يبين فيها حاجة الناس إلى فقه المعاملات ، وضرورة نشر مثل هذه
الرسائل العلمية بينهم .

٥ - التزم رحمه الله فقه المذهب الحنفي تطبيقاً وتعليماً ، مع
احترامه لبقية المذاهب ، ولآراء أئمة الاجتهاد ، ولكل بحث علمي
صحيح ، قال رحمه الله في بحثه : « لزوم اتباع مذاهب الأئمة » : « ونحن
بأي حال نحترم البحث العلمي الصحيح ، ونعظم القول فيه كائناً ما كان ،
ومن أي مصدر كان .. إه » بل كان رحمه الله ينكر على من يريد أن
يحمل الناس على التزام مذهب واحد ، قال رحمه الله في ذلك : « وليس
القول الآن في المقارنة والترويج ، بل القصد كل القصد إلى احترام

الخلافاً في الفرعيات ، التي منها اتجه المرء إلى أي جانب من جوانبها ؛ وجد له سلفاً من العلماء لهم وجهة نظر يدللون عليها ويبرهنون . وليس الصواب في مثل هذا تحجر الواسع .. إلخ^(١) .

٦ - والتزامه رحمه الله تعالى بقواعد المذهب الحنفي ، لا يعني ترك أحكام غيره من المذاهب ، بل كان يدعو رحمه الله إلى الالتزام بأي مذهب من المذاهب الفقهية المدونة ، إلا أن أمانته العلمية ، كانت تمنعه من الإفتاء بغير المذهب الحنفي ، فكان يحيل السائل إلى علماء المذاهب الأخرى ، ويقول رحمه الله : « أهل مكة أدرى بشعابها » .

٧ - إن اختلاف أئمة المذاهب في بعض الأحكام الفرعية رحمة للأمة ، ولهذا كان يفتي للملتزم مذهب معين ، بأن يأخذ بأحكام مذهب آخر عند الضرورة . وقد أخذ رحمه الله في آخر حياته بمذهب الإمام مالك رحمه الله في أحكام الطهارة ، لأنها أيسر ، وخاصة أثناء المرض ، واستفتى في هذا الموضوع أحد علماء المذهب المالكي في الأزهر الشريف^(٢) .

٨ - وإغلاق باب الاجتهاد ، لا يعني في نظره رحمه الله وقوف الشريعة جامدة أمام الجديد من الحوادث . والمخلص بيئته رحمه الله فيما كتبه حول لزوم اتباع مذاهب الأئمة ، قال رحمه الله :

(١) ردود على أباطيل .

(٢) وهو فضيلة الشيخ الدكتور صالح موسى شرف عضو جماعة كبار العلماء .

« نعم قد تعرض بعض الحوادث في زماننا هذا ، مما لم يعهده الناس من قبل ، فيتشوقون إلى معرفة أحكامها . والمخلص الوحيد من الحيرة ، هو النظر في فروع الفقه وقواعد الكلية ؛ فإنه كفيل بتعريفنا بحكم الجديد من الحوادث ، فقد توسع أقدمونا من الفقهاء ، في تقرير الحوادث ، واستنباط أحكام لها ، فكتبوا كثيراً وكثيراً جداً ، حتى صار ما كتبوه مجوراً زاحرة ، يغوص الغواصون إلى قعورها ، ويستخرجون منها درراً صافية جدية بالإعجاب ، على أنه لا مانع من الاجتهاد للتعرف إلى أحكام جزئية فردية طارئة ، ولكن لا يتقنه إلا أفراد معدودون الآن تتمخض عنهم بلاد الاسلام وأقطاره ، وليس هو لكل من يرى نفسه عالماً ، أو يزعمه البسطاء من الناس عالماً .

ولمّا أجزنا هذا ؛ لأن الاسلام كامل في ذاته ، وما من حادثة تقع تحت أديم السماء ، إلا وله حكم فيها ، وقد قال الله تعالى : (اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت بكم نعمتي ، ورضيت لكم الاسلام ديناً)^(١) . فلن يقف شرع الله الكامل جامداً أمام الحوادث ، لا يبدي حراكاً ، وقد نفى الله سبحانه النقص عنه .. له .

ولهذا اعتنى رحمه الله بفقهاء الدليل دراسة وتديساً ، لا لأنه لم يتق بأقوال الأئمة ، بل من أجل الجديد من الأحداث ومعرفة حكم الله فيها . وهذا يفسر لنا كثرة توارد الأسئلة الشرعية عليه من شتى أقطار العالم الاسلامي دون غيره من العلماء .

(١) الآية ؛ من سورة المائدة .

آثاره العلمية

لم يتناول رحمه الله في معظم آثاره العلمية مجوئاً نظرية محضة ، أفرد لها تأليفاً خاصاً ، ويعود ذلك لسببين :

١ - اعتقاده أن علماء السلف من الأمة ، تناولوا جميع المواضيع : أصولاً وفروعاً ، وسيرة وتاريخاً ، فلم يتركوا رحمهم الله لمن بعدهم شيئاً .

٢ - كثرة أعماله رحمه الله تعالى ، فقد كان يقوم بأعمال علمية واجتماعية ، ينوء بها العديد من كبار العلماء . ولم يتخلّ عن شيء منها ، حتى استعمرت العلة كبده ، وأنهكت جسمه .

رجوته مرة أن يسمح لي بالقيام بأعباء الدرس العام مكانه ، بعد أن رأته متمدداً في المسجد لإعياء ، ثم خرج وهو يتوكأ على بعض تلاميذه ، فقال لي : « دعني ألقى الله وأنا أطلب العلم » ثم ذكرني بالحديث الشريف الذي رواه الطبراني في الأوسط ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : « من جاءه أجله وهو يطلب العلم ، لقي الله ولم يكن بينه وبين النبيّن إلا درجة النبوة » وكتمنى رحمه الله ، أن يجد في حياته وقتاً لتأليف كتاب ، يتناول فيه موضوع التصوف ضمن القيود العلمية ، والقواعد الشرعية ، يتحدث فيه عن حياة شيخه في الطريقة النقشبندية سيدي الشيخ محمد أبي النصر خلف رحمه الله تعالى ، وفاء منه لشيخه العظيم الذي ما نسيه طيلة

حياته ، وما حاد عن نهجه وطريقه ، وهو الكتاب الوحيد الذي تمنى تأليفه ، وتمنيته ، وتمناه كل من عرف سيدي رحمه الله ، فعرف فيه قلب الذاكر ، وفكر العالم ، وأحاسيس الشاعر .

ولم يكتب رحمه الله ما كتب ، إلا مضطراً بدافع استشعاره بمسؤولية العالم الكبرى أمام الله تعالى ، في الدفاع عن هذا الدين ، وتخليصه من كل الشوائب التي حاول أعداؤه إلحاقها به ، تشويهاً لجماله ، وطمساً لنوره . بين هذا رحمه الله في مقدمة كتابه «ردود على أباطيل» فبعد أن ذكر بعض الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث الشريفة ، التي تهدد العلماء الذين يقصرون في نشر ألوية العلم ، قال رحمه الله : «هذه التهديدات عملت عملها في نفسي ، فدفعني إلى البيان دفعاً ، فوارأ من لعنة الله إلى رحمته ، وإنقاذاً لمهجتي من عذابه الأليم وعقابه العظيم .

إله» ثم قال رحمه الله : «ومن طريف ما اتفق لي وأنا طالب في كلية الشريعة - إحدى كليات الجامع الأزهر ببصر - أنني رأيت فيما يرى النائم ، أنني قائم تلقاء قبر النبي عليه وآله الصلاة والسلام ، وعلى القبر الشريف أشياء غريبة لم يرق لي وجودها عليه ، بل ثقلت على قلبي ، فأقبلت على إزالتها بكتأيدي مهتمة ، وانتبهت من نومي وإني لفي هذه الإزالة. قصصت هذه الرؤيا على أحد علماء الأزهر العاملين بعلمهم^(١) ، فقال لي : إنك ستدفع عن هذا الاسلام أموراً ليست منه ، وإني لأحمد الله على هذا التوفيق إلى إحقاق الحق ، وإزهاق الباطل بلسان الدين ويراغ العلم .. إله»

(١) وهو الشيخ مصطفى الحامي رحمه الله تعالى .

الدليل العلمي سواء كان نقلياً أو عقلياً ، هو سلاحه الوحيد في كل ردوده وتمحيصاته ، فلم يؤثر عنه في كل ما كتب انحراف عن هذا النهج ، ولو شيئاً يسيراً . قال رحمه الله تعالى : « النقد العلمي النزيه ، شأن السلف الصالح : من صحابة ، وتابعين ، وتابعيهم ، فقد كانوا يختلفون في الفرعات العملية في حب وإخلاص ، وإنا إن شاء الله على هذا النحوساترون .. إه » ولهذا لم يلجأ للرد على خصومه في الفكرة إلى التشهير بهم ، وتتبع عوراتهم ومثالبهم الشخصية ، وكان ينهى عن ذلك ، ويعجب من انحدار بعض العلماء إلى هذا الأسلوب . بل إن الحق يدفعه أحياناً إلى بيان ما يجد من محاسن ومآثر عند خصومه ، ولنستمع إليه وهو يبين محاسن كتاب انتقد بعض أفكاره العلمية : « طالعت الكتابه فإذا فيه الكثير الطيب المعجب ، الذي يملأ القلب سروراً والصدر انشراحاً ، بمبانيه البديعة ومعانيه الرفيعة ، وجودة الأداء ، ووفرة الاطلاع ، وحسن الاقناع ، وقد كانت تغمرني أمواج من الفرح حين أستغرق في مطالعة بعض بحوثه ، حتى إنه لو كان أمامي ^(١) ، لقمت إليه وقبلت رأسه إعجاباً بهذا العلم ، وإكباراً لهذا العرض ، والتذاذاً بهذا ينبوع الثر من البيان العذب ، وقديماً قبل عبد الله بن المبارك رأس سفيان الثوري رحمها الله تعالى . وحذا لو دام على السنن المعتدل في كل فصول الكتاب ، لثلا يرتفع صوت حق بنقد ، ولا يجري قلم صدق باعتراض .. إه » .

(١) أي المؤلف .

وصوت الحق ياسيدي صوتك ، وقلم الصدق ياسيدي قلمك .
ولقد دفعته نزاهته العلية - رحمه الله تعالى - إلى إغفال أسماء
من رد عليهم ، يتبن سبب ذلك ، فقال رحمه الله تعالى : « فقد التزمت
في هذه الردود ، إغفال أسماء من رددت عليهم في الصحف والمجلات
لأمرين اثنين :

أولهما : هو أن المقصد من الكتاب كان لتمحيص الحق مجرداً ،
وتخليصه من الأخطاء وإن شاء الله تعالى ، لا للتكيل بالأشخاص والتشهير
بهم ، وإني لأربأ بالعلم أن يتخذ صاحبه أداة طعن في المخطئين ، لمحض
التشفي منهم لحزاة نفسية وحقد ذاتي .

ثانيهما : هو أن رحمة الله سبحانه وتعالى قد تدر بهم كلاً أو
بعضاً ، فيتوبوا من الضلال ، ويشربوا إلى الصواب . وكـم أدركت
رحمته سبحانه وتعالى من ضالين فاهتدوا ، ومن شاردن فأوقفهم على
بابه الكريم ، وإنه - تبارك اسمه وتعالى جده - أرحم الراحمين ،
وخير الغافرين ، يهدي لنوره من يشاء . . إله (١) » .

وإن أكثر الذين رد عليهم تابوا إلى الحق وتابوا من الضلال ،
هداهم الله سبحانه وتعالى ببركة إخلاصه رحمه الله وقوة دليـله ، فأرسل
الكثير منهم إليه بذلك ، وكـم كان يفرح رحمه الله عندما يقرأ رسائلهم ،
ويطمئن إلى هدايتهم ورشادهم ، ويطالب الذين انتشرت أخطاؤهم أن
يعلنوا رجوعهم عنها ؛ حتى لا يبقى أحد متأثراً بفكرة خاطئة ، أو
منحرفاً عن نهج الحق وطريق الرشاد .

إنتاجه العلمي

أما إنتاجه العلمي ، فالمطبوع منه من الكتب ما يلي :

- ١ - نظرات في كتاب استراكية الاسلام .
 - ٢ - ردود على أباطيل . وهو كتاب ضخم ، طبع الجزء الأول منه وهو مجموعة رسائل ومقالات ، بعضها طويل وبعضها متوسط ، ومجموعة أسئلة فقهية وأجوبتها .
 - ٣ - كتاب في تحريم نكاح المتعة في الاسلام .
والمطبوع من الرسائل :
 - ١ -- حكم الاسلام في الغناء .
 - ٢ - رحمة الاسلام للنساء .
 - ٣ - آدم لم يؤمر باطناً بالأكل من الشجرة .
 - ٤ - القول في المسكرات وتحريمها من الناحية الفقهية .
 - ٥ - حكم اللحية في الاسلام .
 - ٦ - التدارك المعتبر لبعض ما في كتاب القضاء والقدر .
 - ٧ - بدعة زيادة التنويرات في المساجد ليالي رمضان وغيرها .
 - ٨ - لزوم اتباع مذاهب الأئمة حسماً للفوضى الدينية .
 - ٩ - حكم مصافحة المرأة الأجنبية .
- وأما الذي لم يطبع بعد فهو :
- ١ - مجموعة خطب منبرية .

- ٢ - القسم الثاني والثالث من كتاب الردود .
- ٣ - تعليقات وحواشٍ على كتاب الهدية العلانية لم يتعمه رحمه الله تعالى .
- ٤ - تعليقات وحواشٍ على كتاب تبين الحقائق شرح كنز الدقائق للزيلعي . لم يتعمه أيضاً .

الاستفتاءات الشرعية

لم يكن رحمه الله تعالى مفتياً رسمياً ، ولكنه كان كذلك واقعاً وفعلاً ، وليس لأهل بلده وقطره فحسب ، وإنما لكل بلاد الاسلام والمسلمين ، خارج بلاد الاسلام من مغتربين وطلاب علم . وقلّ أن يمر عليه يوم ، إلا والبريد يحمل إليه العديد من الرسائل المترعة بالأسئلة الشرعية والاستفتاءات العلمية . وأسباب تكاثر الأسئلة الشرعية عليه دون غيره من العلماء تعود في رأيي إلى ما يلي :

١ - ثقة الناس في شتى البلاد بعلمه رحمه الله تعالى ، ومرد هذه الثقة إلى خصلتين يمتاز بها رحمه الله تعالى هما : الأمانة العلمية ، والتحقيق العلمي المؤيد بالدليل والبرهان .

أما الأمانة العلمية فما رأيت نظيراً لها عند غيره رحمه الله تعالى ، يظهر ذلك في النقول العلمية التي يؤيد بها آراءه ويستشهد بها في مقالاته ، فكل نقل علمي لا بد أن يعزوه إلى صاحبه ، مبيناً بدايته ونهايته ، حريصاً على كل حرف من حروفه ، فلا بد قبل كل نقل من ذكر

مصدره وصاحبه ، وبعده لا بد من كلمة (انتهى) أو رمزها (إ هـ)
وإذا اضطر إلى التصرف ببعضه تقديماً وتأخيراً ، لا بد أن يذكر في
نهايته : إ هـ بتصرف قليل ؛ إذا كان قليلاً ، وإ هـ بتصرف ؛ إذا كان
كثيراً . وإذا اختصر بعضه : إ هـ باختصار . ويوصي تلاميذه بتدقيق
كل ما ينقلونه عنه ، قائلاً : إني بريء من كل خطأ في النقل عني .

ولما عرضت عليه - رحمه الله - كتاب « إرساد الناس إلى أحكام
الحيض والنفس » . أخذ عليّ قلة عزو المقولات إلى أصحابها . فقد
كنت أعزوها جملة في أول البحث وآخره ؛ لأن عامة الناس غير
معتادين على ذلك في هذا العصر ، واضطرتني رحمه الله إلى عزو كل نقل
إلى صاحبه ، وبيان مصدره مهما تكرر اسم الكتاب والكاتب . وكان
يقول : « الأمانة العلمية تقتضي هذا » .

وتظهر أمانته العلمية أيضاً في عرضه لمختلف الآراء في القضية
الواحدة ، ثم يختار بعد ذلك الرأي المؤيد بالدليل والبرهان .

أما التحقيق العلمي فيظهر في مقارنته للأدلة المختلفة ، وتمحيصه
للروايات المتعددة ، ورده القروع إلى الأصول ، وتمييزه بين الصحيح
والسقيم والقوي والضعيف .

ولقد كان رحمه الله مشغولاً بالتحقيقات العلمية الدقيقة ، يحمله
شغفه أحياناً على الاستمرار في درس الفقه الصباحي الخاص عدة
ساعات ، لا يوقفه عنه أحياناً إلا شفقتة على تلاميذه من التعب
والإرهاق . وحتى عندما يخرج إلى النزهة ما كان ينقطع عن المذاكرة

في المسائل العلمية، ويتمنى أن تسير معه كتبه أني سار ، وأن تكون معه حيثما كان .

وقد أكسبته دراسة الفقه الاستدلالي تراساً في التحقيق ، ودقة في التدقيق ، وكان يردد رحمه الله دائماً كلمة سمعها من أحد علماء مصر العاملين^(١) : « كتبنا هذه تعلم الجدل » ولم يكن الباعث له على ذلك ترفاً عقلياً ، وإنما دفعه إليه حرصه على التعرف على أحكام الله فيما يجده من الحوادث ، وسبيل ذلك كما نقلت عنه في بحث الفقه ، النظر في فروع الفقه وقواعده الكلية ؛ فإنه كما قال - رحمه الله - : كفيل بتعريفنا بحكم الجديد من الحوادث .

٢ - حرصه على الإجابة على أي سؤال يرد إليه مهما كان مصدره . ومن أجل ذلك ، أتعب نفسه ، وأرهق جسمه ، فما اعتذر عن جواب ولا رد سؤالاً ، حتى بعد أن أعياه المرض ، وألزمته العلة الفراش . كان يستحلف أهله ومحبيه ألا يكتبوا عنه رسالة ، ولا يعتذروا لسائل عن جواب ، فكلما ألح عليه أحد أن يرحم نفسه ويشفق على جسمه ، كان يجيبه : « لا طاقة لي بلجام من نار ، رد الكتاب كرد السلام » . حتى بطاقات التهاني في الأعياد كانت يرد على أصحابها ، وما أكثرها ، تنهال عليه من معظم أقطار الاسلام ، وكان يقول : « إنني لم أبداً أحداً ببطاقة تهنئة ومع ذلك فإن الناس لا يرحمونني ، الناس يجدون الراحة في الأعياد وأعيادي تعب وإرهاق » . وكنت أقول له : ياسيدي لو اتخذت بطاقة مطبوعة موحدة ، توفر عليك عناء كتابة الجواب لكل

(١) وهو الإمام الشهيد حسن البنا رحمه الله تعالى .

إنسان ، فيقول رحمه الله : « إن لكل إنسان لغة خاصة يخاطب بها ،
إن أحد الأدباء يرسل إليّ في كل عيد هنيئتي بأربعة أبيات شعرية ، وعليّ
أن أجيبه عليها بأربعة أبيات ، توافقها في الوزن والقافية » .

٣ - ما كان رحمه الله يكتفي بأجوبته الشرعية ببيات
الأحكام فقط ، وإنما كان يذكر معها أدلتها وبراهينها ، لأنه أدرك
- رحمه الله - أن غالبية الناس في هذا العصر ، لا تقتنع بالحكم المجرد
عن دليله وبرهانه ؛ ولهذا كان يعتني كثيراً بفقّه الدليل ، ويدعو العلماء
للعناية به ومدارسته وتدريبه .

لهذا كله انهمالت عليه الأسئلة من كل مكان ، ورد على أصحابها
كلهم رحمه الله تعالى ، وكان للجهد الهائل الذي بذله في هذا السبيل ، إلى
جانب أعماله العلمية والاجتماعية الأخرى ، أكبر الأثر في تنشيط العلة
في كبده كما قال لي بعض الأطباء ، فسقط رحمه الله سقوط المجاهد في
ساحة المعركة ، بين كتبه وأوراقه ورسائله ، شهيد العلم شهيد الحق .
رحمك الله يا سيدي ، وأسأله تعالى أن ينور قبورك ، كما نور قلبك ،
وأن ينفعنا بك بعد موتك ، كما نفعنا بك في حياتك ، وأن يثبتنا على
طريقك . آمين .

* * *

الباب الثاني

مَحَامِدُ الصُّوفِيَّةِ

العلم هو الأمير على التصوف .

محمد الحامد

هذا طريق أولي الوصول لربهم

نعم الطريق طريق طه المصطفى

الرواس

تمهيد

إن من أكبر المسائل التي قام حولها جدل فكري كبير ، مسألة التصوف ، وأصوله ومؤيداته الشرعية ، وطرقه وأهدافه . ولم يتوقف هذا الجدل عند عصر معين ، بل استمر عبر عصور الفكر الاسلامي ، فكان في كل عصر ؛ بين مؤيد ومنكر ، ومناصر ومعارض ، ومتعصب ومتحامل . والعجيب أنك تجد بين الفريقين مخلصين للحق ومتجردين له ، ومنع ذلك لم يوصلهم لإخلاصهم إلى نقطة واحدة يجتمعون عليها ، بل على النقيض ، كلما أوغل كل منهما في محبته ازداد بعداً وتناقضاً ، فكيف حصل هذا ؟ ومريد الحق لا بد أن يصل إليه .!!!

ولم أزل أسأل نفسي هذا السؤال ، حتى عشت تجربة التصوف ، عندما وصلني سيدي رحمه الله بالقوم ، وشرفني بالانتساب إليهم . فوجدت جواب سؤالي هذا فيما شعرت به وذقته . ولقد وجدت في المقدمة التي كتبها الدكتور عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور لكتاب « التعرف لمذهب أهل التصوف » ، لأبي بكر الكلاباذي ؛ وجدت في هذه المقدمة النتيجة نفسها التي وصلت إليها بتجربتي العملية التي عشتها ، ومن أقوالهما في هذه المقدمة :

« إن أمر التصوف في الواقع ليس أمر جدل أو أخذ أو رد ، وإنما هو تعرف ، والتصوف تجربة ، والتجربة شعور ، والشعور ليس

منطقاً ولا برهاناً ، إنما هو تعرف ، وقديماً قالوا : من ذاق عرف ؛
وبالتالي فإن من لم يذوق لم يعرف .

وكتاب المؤلف إذن ليس إلا محاولة للتعبير بالألفاظ عن الشعور
المتدفق الفياض ، وهذا التعبير لا يفهمه حق فهمه إلا من شعر به ..
إهـ . باختصار .

وإن كل من عرف سيدي رحمه الله وقرأ له ؛ يعلم أنه خير من
عاش تجربة التصوف ، أحوالاً وأشواقاً ومواجيد ، وعلماً وذوقاً ،
وفهماً وشوقاً ؛ في عصرنا الحاضر . كانت فيها أحواله ومواجيده ؛ رغم
شدتها وعنفها ؛ مقيدة بقيود العلم الصارمة الدقيقة ، التي ما حاد عنها في
كل فترات حياته قيد شعرة . العلم عنده أولاً ، والأحوال والمواجيد
ثانياً . العلم عنده هو الأمر المحكم في كل أمر ، وإن كل الدخائل التي
دخلت التصوف ، فعكرت صفاءه ، ولونت سناؤه ، دخلت إليه عن
طريق الجهل ، وكم كان - رحمه الله - يقول عن مثل هؤلاء : « ليتهم
لم يتصوفوا » . وكم كان يتمنى لو يجد وقتاً في حياته المزدحمة بجلال
الأعمال وثقل المهام ؛ ليؤلف كتاباً في التصوف ، يعيد له بهاءه وسناؤه ،
بلغة العالم الصوفي ، في عصر ما احتاج عصر من العصور اللسانية إلى
معاني التصوف احتياجه ! فما من عصر طغت عليه المادية والآلية كهذا
العصر ، حتى أفقدت كثيراً من أناسي هذا العصر معاني إنسانيتهم ،
وجمّدت في نفوسهم مشاعر بشريتهم . أضلّوا أنفسهم ، وأضاعوا
مشاعرهم وعواطفهم ، في ضجيج الآلات وحمى الشهوات . وليس من
سبيل لإنقاذهم من هذا الطوفان الجامع ، إلا بأن يلقوا بأنفسهم وقلوبهم

وأرواحهم في بحار النور ، حيث الجبور والسرور ، والطمأنينة
والسكينة: (ألا بذكر الله تطمئن القلوب)^(١) النور العذب الصافي الذي
لا تكدره بدعة ، ولا تلوثه شطحة ، يصدر عن قلوب استنارت بنور
الله : (ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور)^(٢) أفاض الله عليها هداياه
وعطاياه ، علوماً وأذواقاً ، وأحوالاً وأشواقاً ، فهم كما وصفهم الإمام
الكلاباذي في التعرف : « سبقت لهم من الله الحسنى ، وألزمهم كلمة
التقوى ، وعزف بنفوسهم عن الدنيا . صدقت مجاهداتهم ، فنالوا علوم
الدراسة وخلصت عليها معاملاتهم ، فمنحوا علوم الوراثة ، وصفت
سراثرهم فأكرموا بصدق الفراسة . ثبتت أقدامهم ، وزكت أفهامهم ،
وأنارت أعلامهم . فهموا عن الله ، وساروا إلى الله ، وأعرضوا عما
سوى الله .. إله »^(٣) .

ولقد عجزت هم الرجال عن خرق أسوار الأقدار ، فقضى
— رحمه الله — ولم تنهيا له الفرصة لإنجاز ما تمنى ، ولتحقيق رغبة الذين
كانوا يلحون عليه في إنجاز هذا الكتاب ، ولنستمع إليه — رحمه الله —
يعتذر لفضيلة الشيخ عبد الباسط خلف حفظه الله تعالى ، بعد أن أرسل
إليه يطلب منه الإسراع في إنجاز الكتاب ، قال رحمه الله :

« وكم أنا في خجل منكم ، إذ لم أكتب ما طلبتموه مني ،
وقد كنت أحدث نفسي به إذا بلغت التقاعد ، ولكنني بلغتته وأنا

(١) الآية ٢٠ من سورة الرعد .

(٢) الآية ٤٠ من سورة النور .

(٣) التعرف لمذهب أهل التصوف .

مريض ، فماذا أصنع ؟ والأعمال ما زالت مطلوبة مني كشيخ مشهور في البلد وفي غيره ، والمسجد ما برحت أزاول عملي فيه قياماً بأصل عملي الديني .. إله (١) .

ولقد وجدت لزماً عليّ ، تحقيقاً لرغبته ، رحمه الله تعالى ، ولرغبة محبيه ؛ أن أقوم بجمع كل ما كتبه في التصوف وترتيبه وتبويبه ، في فصل مستقل ، يصور للناس حقيقة التصوف ، ويبرز لهم أعلامه خالية عن كل بدعة وكل شبهة ، كما كان - رحمه الله تعالى - يفهمه ويعيشه ، واستطعت - والحمد لله - أن أجمع قسماً كبيراً مما كتبه رحمه الله ، سواء في رسائله إلى شيخه سيدي الشيخ محمد أبي النصر رحمه الله تعالى ، أم في أجوبته لأسئلة كانت ترد عليه ، وأكثرها لم ينشر بعد ، أم في تعليقاته ودروسه ، وضممت إليها دراسة حياة شيخه العظيم ، أبي النصر رحمه الله تعالى ، وحياة والده الشيخ سليم خلف رحمه الله تعالى . ولا بد حتى تتم السلسلة ويتصل الشمل من دراسة حياة شيخه الشيخ أحمد الطظقلي رحمه الله تعالى ، الذي تلقى سر هذه النسبة من العارف الكبير مولانا خالد النقشبندي رحمه الله تعالى ، مع دراسة لأصول الطريقة النقشبندية ، واستعراض لأسماء أعلامها ، وذلك ما كان سيدي رحمه الله تعالى يؤمله ويرجوه . وكل الذي أرجوه من الله سبحانه أن أكون مقبولاً عندهم ، محسوباً من خدامهم ، مشمولاً بأنظارهم ، رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم .

(١) الرسائل المحفوظة .

الصُّوفِيَّة

قال الكلاباذي رحمه الله تعالى في كتاب « التعرف » :

« لم سُميت الصوفية صوفية ؟ قالت طائفة : إنما سميت الصوفية صوفية لصفاء أسرارها ، ونقاء آثارها . وقال بشر بن الحارث : الصوفي من صفا قلبه لله . وقال بعضهم : الصوفي من صفت لله معاملته فصفت له من الله عز وجل كرامته . وقال قوم : إنما سموا صوفية لأنهم في الصف الأول بين يدي الله جل وعز ، بارتقاء همهم إليه ، وإقبالهم بقلوبهم عليه ، ووقوفهم بسرائرهم بين يديه . وقال قوم : إنما سُموا صوفية لقرب أوصافهم من أوصاف أهل الصفة الذين كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال قوم : إنما سموا صوفية للبسم الصوف . . . »

وبعد استعراض هذه الأقوال ، قال رحمه الله :

« فقد اجتمعت هذه الأوصاف كلها ، ومعاني هذه الأسماء كلها ، في أسامي القوم وألقابهم ، وصحت هذه العبارات ، وقربت هذه المأخذ ، وإن كانت هذه الألفاظ متغيرة في الظاهر ، فإن المعاني متفقة ، لأنها إن أخذت من الصفاء والصفوة كانت صفوية ، وإن أضيفت إلى الصف أو الصفة كانت صفية أو صفية ، ويجوز أن يكون تقديم الواو على الفاء في لفظ الصوفية ، وزيادتها في لفظ الصفية والصفية ،

إنما كان من تداول الألسن ، وإن جعل مأخذه من الصوف ، استقام
اللفظ وصحت العبارة من حيث اللغة . . إ هـ ^(١) .

هذه آراؤهم في منشأ اسم الصوفية فما رأي سيدي رحمه
الله تعالى ؟ .

يظهر لنا رأيه من المقالة التالية التي كتبها عام ١٣٤٩ هـ ،
ولم يكن بعد منتسباً إليهم . قال رحمه الله تعالى تحت عنوان
« التصوف والصوفية » :

« لم يكن هذا الاسم شائعاً في زمن الصحابة رضوان الله تعالى
عليهم ، فقد كان القوم عباداً زهاداً ، لم يختص فريق منهم بشعار ولا
فحلة ، يمتازون بها عن البقية ؛ بل كان الجميع على حجة الهدى الواضحة ،
يحيون ما أحياه القرآن ، ويميتون ما أماته ، تقيدوا بنصوصه وأوامره
فاتبعوها ، وحملوا أنفسهم على لزوم الاتباع ، والميل عن الابتداع ،
فكان عصرهم أرقى العصور وأزهاها . بيد أنه لما تطاول الزمن بعد عصر
الصحابة ، وفتحت الدنيا على الناس ، فمالت بهم ، ومالوا بها ، ورضعوا
منها واتخذوها أمماً ، وظهرت بوادر الفساد ، وكثر البغي والعناد ،
بقي فريق من الناس متبعين خطة السلف ، ناهجين نهجهم ، عاملين على
إحياء السنن وإماتة البدع ، صرفوا قلوبهم عن الدنيا وزخرفها ، وزهدوا
فيها زهداً حقيقياً ، فإن حازوا على شيء منها ، فهو لا بقلوبهم . عرفت
هذه الفئة من الناس بالصوفية ، وهو اسم محدث كما علمت والأقرب إنما
سموا به ؛ لأن شعارهم كان لبس الصوف . . إ هـ .

(١) التعرف لمذهب أهل التصوف .

وقال رحمه الله في جواب سائل عن التصوف : « فاعلم أن التصوف هو تنقية الظاهر والباطن من المخالفات الشرعية ، وتعمير القلب بذكر الله تعالى ، ومراقبته وخشيته ورجائه ، والسير في العبادات والأعمال على النهج الشرعي طبق السنة الشريفة ، وخلافاً للبدعة السيئة التي يحظر الاسلام التلبس بها . . إله » .

الصُّوفِيَّةُ وَالسِّلْفِيَّةُ

الصوفية الحققة لا تخالف السلفية المخلصة ، التي تريد تنقية الاسلام من كل البدع والشوائب ، التي لحقت به عبر العصور التي مر بها . فالصوفي يهدف إلى تنقية نفسه وقلبه من كل شوائب الأغيار ، حتى تصبح خالصة لله سبحانه وتعالى ، والسلفي المخلص يهدف إلى تنقية الاسلام من البدع والدخائل ، فلا تناقض بينهما ولا تعارض ، ولا يوجد التعارض إلا حيث يفقد الإخلاص ، ويريد الحق لا بد أن يصل إليه . وبهذا المعنى كتب رحمه الله تعالى :

« .. وبعد فالسلفية الحققة مجتمعة مع الصوفية الصحيحة ؛ متى حسن الفهم وضح العزم على الجمع الذي هو شأن الدعوة وأرب الإخوان ، وإذا زخرت الصوفية بالروحانية الفامية والرقعة العميقة ، فليست بمنكرة على أختها السلفية تحريرها تنقية الاسلام مما لابسها من الغرائب عنه ، كي يعود إلى صفائه وخلوصه . لا يفترق الأخذ بالعزائم وعمق الفهم لأسرار الدين عن نفي ما علق به من أدران ،

ولحق به من أضرار عبر الأزمان ، ولا يصدم هذا والنزوع إلى
الخطوة الأولى ، إلى الاسلام العتيق الصافي ، الذي سارت فيه القرون
الثلاثة المشهود لها بالخيرية .. إ ه » .

وقال رحمه الله تعالى أيضاً : « والتصوف الذي أردت هو
الاسلام الكامل في مقاصده وأهدافه ، والصوفية السابقون وكثير من
اللاحقين ، استقام سلوكهم على هذا المبدأ وفي منهجه ، ولا شأن لي فيما
شارك اسماً وامتلاً بالدخائل والبدع ، فذلك ما لم أقصد إليه .. إ ه » .

هذا هو التصوف الذي أرادہ رحمه الله تعالى ، وهو الذي كان
عليه القوم رضي الله تعالى عنهم ، فقد سئل ولي الله شاه نقشبندي : بماذا يصل
العبد إلى طريقكم ؟ فقال : بتابعة سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .
وقال رحمه الله تعالى أيضاً : « إن طريقتنا من النوادر ، وهي
العروة الوثقى ، وما هي إلا التمسك بأذيال متابعة السنة السنية ،
واقفاء آثار الصحابة الكرام .. إ ه » .

وكتب الشيخ العجوداني رحمه الله تعالى ، وهو واضع أصول
الطريقة النقشبندية ؛ كتب إلى أحد تلاميذه يقول : « يا بني أوصيك
بتحصيل العلم والأدب ، وتقوى الله تعالى ، واتبع آثار السلف الصالح
ولازم السنة والجماعة ، وقرأ الفقه والحديث والتفسير ، واجتنب
الصوفية الجاهلين ، ولازم صلاة الجماعة بشرط ألا تكون إماماً ولا مؤذناً !
وإياك والشهرة ، فإنها آفة ، وكن واحداً من الناس ، ولا تمل لمنصب ولو
كان محموداً ؛ كالقضاء والفتوى .. أ ه ^(١) » .

(١) الأنوار القدسية .

وكان بقوم مس رجل مشهور بالورع والزهد ، فقال يوماً أبو يزيد البسطامي لأصحابه : قوموا بنا ننظر إلى هذا الرجل الذي شهر نفسه بالولاية ، فمضوا معه ، فلما خرج الرجل من منزله ، ودخل مسجده ، رمى بيزاقه نحو القبلة ، فقال أبو يزيد : اقوموا بنا ننصرف من غير أن نسلم ، فإن هذا الرجل ليس بمأمون على أدب من آداب الشريعة التي أدب بها رسول الله ﷺ ، فكيف يكون مأموناً على ما يدعيه من مقامات الأولياء والصديقين .؟

ومن وصايا مولانا خالد رحمه الله تعالى إلى بعض مريديه في العراق . أما بعد : فأوصيكم بالتأكييد بشدة التمسك بالسنة السنية ؛ والإعراض عن الرسوم الجاهلية ، والبدع الرديئة ، وعدم الاغترار بالشطحات الصوفية واعلموا أن أحبكم إلي أقلكم أتباعاً وعلاقة بأهل الدنيا ، وأخفكم مؤونة ، وأشغلكم بالفقه والحديث .. إله .. (١)

ولنستمع إلى الإمام الرباني ، مجدد الألف الثاني ، الشيخ أحمد الفاروقي السرهندي ، رحمه الله تعالى ، وهوينبه على البدع ويأمر بتركها ، فيقول : « قال عليه الصلاة والسلام : (ما أحدث قوم بدعة ؛ إلا رفع مثلها من السنة) » (٢) ، وعن حسان رضي الله عنه ، قال : (ما ابتدع قوم بدعة في دينهم إلا نزع الله من سنتهم مثلها ، ثم لا يعيدها إلى يوم القيامة) ، بناء عليه ، فبعض البدع التي قال العلماء أنها حسنة ؛ إذا تأملتها تجدها

(١) الأنوار القدسية .

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده .

رافعة لسنة ، مثلاً ، قالوا في تكفين الميت : العمامة بدعة حسنة ؛ مع أن هذه البدعة رافعة لسنة ، فإن الزيادة على عدد المسنون الذي هو ثلاثة أثواب نسخ ، والنسخ عين الرفع ، وهكذا . . . » (١) .

فهل يريد السلفيون المخلصون أكثر من هذا ؟ ولنستمع مرة ثانية إلى الإمام الرباني السرهندي رحمه الله وهو يتحدث عن الطريقة النقشبندية : « اعلم يا أخي ، أن الذي لا بد منه وكلفنا الله به : امتثال الأوامر ، واجتناب النواهي ، لقوله تعالى : (وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا) (٢) ، وإذا كنا مأمورين بالإخلاص في ذلك ، وهو لا يتصور بدون الفناء وبدون المحبة الذاتية ؛ وجب علينا أيضاً سلوك طريق الصوفية الموصلة للفناء والمحبة الذاتية ، حتى تتحقق حقيقة الإخلاص ، ولما كانت طرق الصوفية متفاوتة بالكمال والتكميل ؛ كان كل طريق ؛ تلتزم فيه متابعة السنة السنية ، وأداء الأحكام ، أولى وأنسب بالاختيار . وذلك الطريق هو طريق السادة النقشبندية ، قدس الله أسرارهم العلية ، فإن هؤلاء الأكابر ، التزموا في هذه الطريقة متابعة السنة واجتناب البدعة ، لا يجوزون العمل بالرخصة ، ولو وجدوا ظاهراً أن له نفعاً في الباطن ، ولا يتركون الأخذ بالعزيمة ولو علموا صورة أنه مضر بالسيرة ، ويجعلون الأحوال والمواجيد تابعة للأحكام الشرعية ، والأذواق والمعارف خادمة للعلوم الدينية ، ولا يستبدلون الجواهر النفيسة مثل الأطفال ؛ يجوز الوجد وزيب الحال . . . » (٣) .

(١) الأنوار القدسية .

(٢) الآية ٧ من سورة الحشر .

(٣) الأنوار القدسية .

والجنيد رحمه الله تعالى ، سيد القوم وإمامهم - كما وصفه القشيري -
 قال في هذا الموضوع : « من لم يحفظ القرآن ، ولم يكتب الحديث ،
 لا يقتدى به في هذا الأمر ؛ لأن علمنا هذا مقيد بأصول الكتاب
 والسنة . . . إله » وقال أيضاً :

« علمنا هذا مشيد بحديث رسول الله ﷺ ، الطرق كلها مسدودة
 على الخلق ، إلا على من اقتفى أثر الرسول عليه الصلاة والسلام واتبع
 سنته ولزم طريقته . . . إله » (١) .

والكتاب والسنة عندهم أولاً وقبل كل شيء ، قال أبو الحسن
 الشاذلي - رحمه الله تعالى - : « إذا تعارض كشفك مع الكتاب والسنة ،
 فتمسك بالكتاب والسنة ، ودع الكشف وقل لنفسك : إن الله تعالى
 ضمن لي العصمة في الكتاب والسنة ، ولم يضمنها في جانب الكشف ولا
 الإلهام ولا المشاهدة ، إلا بعد عرضه على الكتاب والسنة . . . إله » (٢)

ولو أن ولياً كاملاً فهم بواسطة الكشف والإلهام من حديث
 شريف ، فهماً يخالف فهم أئمة الاجتهاد ، فلا يجوز له أن يخالف ما قرره
 وفهمه أئمة الاجتهاد ، وضح ذلك الشيخ الرواس رحمه الله تعالى بقوله
 في كتابه « بوارق الحقائق » :

« وقد ذهب أناس إلى القول : بأن الولي الكامل لا يقلد مذهباً ،
 بل يأخذ جملة الأحكام من الكتاب والسنة ويعمل ، وإذا أشكل عليه

(١) حاشية التعرف .

(٢) المرجع نفسه .

أمر استفتى في عالم البصيرة النافذة من النبي ﷺ وعمل بفتواه ، عليه أفضل صلوات الله . وهذا القول خطأ ، والعمل به نقص عظيم ، فإن الولي الكامل لا يهتك حرمة التقيّد بالمذهب ، ولا يخرج عن السواد الأعظم ، ولو أحاط بأسرار الحديث النبوي والنص القرآني ، على أن أئمة المجتهدين الذين دونوا لنا هذه المذاهب المباركة وقرروها ، هم أعلم من ذلك الولي بمدارك السنة خبراً ، وإن حصل لذلك الولي الوقوف على مدارك السنة فهماً وإلهاماً ، فإن فهمه وإلهامه لا يعتبر ، لا عنده ولا عند غيره إذا عارضه الخبر ، نعم ؛ تعتبر هذه الأفهام والإلهامات في زوائد الأعمال من النوافل بشرط عدم معارضة الخبر ، وأما قولهم : إنهم يستفتون من رسول الله ﷺ ، فهو استفتاء زائد ؛ لأنه عليه الصلاة والسلام ، ما قضى حتى بلغ وترك الأمة على حجة بيضاء ، لا ضلال بعدها أبداً ، فكيف يستفتى عن شيء بلغه وأوضحه ، واستودعه علماء الأمة ، وهم الذين يسألون عنه في كل عصر بشاهد قوله تعالى :

(فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون)^(١) ، وهذا أمر شمل كل مسلم . . . إله^(٢) .

ثم قال رحمه الله تعالى : « وإن كُتمل الأولياء - قدست أسرارهم العلية - وإن بلغت مقاديرهم رتبة مقادير الأئمة المجتهدين ، فضلاً وعلماً وإرشاداً ، لكن لم تصل إليهم أخبار الكتاب والسنة ، كما وصلت

(١) الآية ٧ من سورة الأنبياء .

(٢) بوارق الحقائق .

إلى الأئمة المجتهدين تلقياً وإسناداً ، فإذا هم مكلفون بالأخذ عن الأئمة
المجتهدين . . . » (١) .

وإن خير ما أتوج به هذا البحث ، كلمة سيدي الشيخ أحمد الرفاعي
— رحمه الله تعالى — وهي : « كل طريقة خالفت الشريعة فهي
زندقة » (٢) .

ولا بد لي أن أشير أخيراً إلى أن كثيراً من الدخائل والمفاهيم
السيئة ، قد دخلت أيضاً إلى أفكار بعض دعاة السلفية . ولقد ذكر
بعضها سيدي — رحمه الله تعالى — في بعض رسائله إلى شيخه أبي النصر
قدس سره . ففي إحدى هذه الرسائل كتب — رحمه الله تعالى — :

« سيدي : وقع لي أن بددت أمام بعض الرفاق ، زعم الذي
يقول : إن هلاك القوم الذين أرادوا هدم الكعبة ، في السنة التي ولد
فيها سيدنا رسول الله ﷺ ، والذين أرسل الله تعالى عليهم طيراً أبابيل ،
ترميهم بحجارة من سجيل ، فجعلهم كعصفٍ ما كول . أقول : إنني بددت
زعم الذي يقول : إن هلاكهم كان بمرض الجدري ؛ أي لا بالحجارة التي
رمتهم بها تلك الطيور ، ويحتال على رد الآية بنوع من التلاعب في معناها ؛
مع أنها قطعية الدلالة على هذا المعنى الواضح الذي لا يرتاب فيه إلا
جاحد ، وكان كلامي أن الذي ينفي مدلول الآية القطعي من الطير
والحجارة والرمي ، كافر لجحده ما هو معلوم من الدين بالضرورة . فإن

(١) بوارق الحقائق .

(٢) المرجع السابق .

السيان في المكاتب يعرفون تلك الحادثة لشهرتها ، وهي أيضاً في سورة من سور الصلاة التي يقرؤها الخاص والعام فيها ، وقد انعقد الإجماع على فهمها على وجهها من غير احتيال من زمن سيدنا رسول الله ﷺ إلى الآن ، ولم يشذ منهم أحد ، إلى أن ظهر هؤلاء الملاحدة الذين آمنوا ببعض وكفروا ببعض ، وراحوا يلعبون بالآيات الواضحة المعنى . قلت لبعض الرفاق : إن الذي يقول هذا القول كافر ، فقال : ألا ينفعه تأويله ويخرجه عن الكفر؟ فقلت : لا ، لأن التأويل إنما ينفع في مواضع احتمال اللفظ لمعانٍ عديدة ، وهذه الآية ليست منها ، فكل تأويل فيها يكون نفيًا لمعناها القطعي الذي آمن به الرسول والمؤمنون ، وهو تلاعب لا تأويل . كان من كلامي : إن هجران الحقيقة إلى المجاز في الكلام لا يصح إلا إذا قامت القرائن المانعة من إرادة الحقيقة ، وكانت تلك القرائن قطعية . ولا بد أيضاً من مناسبة بين المعنى المنتقل منه والمعنى المنتقل إليه ، وهناك لم تقم تلك القرينة المانعة من إرادة الطير والحجارة والرمي ، وليس في الكلام مناسبة بين هذه الثلاثة وبين مرض الجدري ، وقد أجمع المسلمون على الإيمان بها كما أخبر الله تعالى .

لأنهم يا سيدي يزعمون أيضاً : أن كل معجزة ذكرها الله في القرآن ، ليس لها حقيقة واقعة ، فعصا موسى عليه الصلاة والسلام ، وانفلاق البحر وانفجار العيون الاثنتي عشرة من الحجر ، كل هذه لا حقيقة لها في نظرهم ، بل هي عندهم أمور معنوية ، مع أن الله تعالى أخبر بانقلاب العصا (حية تسعى)^(١) (فإذا هي ثعبان مبين)^(٢) ، و(تلقف

(١) طه : ٢٠ (٢) الأعراف : ١٠٧ .

ما يافكون^(١) فالأمر واقع على حقيقته ، وهؤلاء جحدوه وقالوا :
 إنه أمر معنوي فنفوا بهذا صريح القرآن . وانفلاق البحر أخبر الله
 تعالى به بصراحة ، وأن كل فرق منه كالطود العظيم ، بل لقد صرح
 الله تعالى يبس الأرض حين وقع هذا الانفلاق : (ولقد أوحينا إلى موسى ،
 أن أسر بعبادي ، فاضرب لهم طريقاً في البحر يبساً)^(٢) وكذلك أمره
 الله تعالى بأن يضرب الحجر : (فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا ، قد علم كل
 أناس مشربهم ، كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا في الأرض
 مفسدين)^(٣) والله لو أن هلاك من قصد الكعبة الشريفة كانت بمرض
 الجدري ، ولم يكن هناك طير ولا حجارة لبادر المشركون إلى تكذيب
 النبي ﷺ في هذا الأمر ، لحرصهم على تكذيبه ، وفيهم كثيرون شاهدوا
 الحادثة بأعينهم ، ولكنهم سكتوا لأن الأمر وقع أمام أعينهم .

وهم أيضاً مع كل ما تقدم ، ينكرون الجن ، إنهم ينكرون
 وجودهم ، ويزعمون أنهم نوازع الشر في النفوس ، أي وليسوا أمماً
 كالإنس من العقلاء المكلفين ؛ مع أن الله تعالى أخبرنا عنهم في آيات
 كثيرة من كتابه العزيز ، وأنهم يروننا ولا نراهم ، وأنه خلقهم من نار
 السموم ، وأنه سيملاؤ جهنم (من الجنة والناس أجمعين)^(٤) وهل تملأ
 إلا بالأجسام ؟ ! وأنهم استمعوا إلى القرآن من النبي ﷺ ، ثم ذهبوا

(١) الأعراف : ١١٧ .

(٢) طه : ٧٧ .

(٣) البقرة : ٦٠ .

(٤) السجدة : ١٣ .

منذرين إلى قومهم ، فصريح القرآن يدل على وجودهم ، وأنهم عقلاء كالإنس ، وأنهم مكلفون ، فهل القول بأنهم أوهام ، وأنهم نوازع الشرفي النفوس ؛ هل هذا إلا كفر صريح ورد لكتاب الله تعالى ؟!.. إه ،^(١) باختصار .

أركان التصوّف

يقوم التصوف على ركنين أساسيين : أولها الذكر ،
وثانيها الشيخ المرشد .

أولاً - الذِّكْرُ

حقيقة الذكر .

قال الكلاباذي - رحمه الله تعالى - : « حقيقة الذكر أن تنسى ما سوى المذكور ، لقوله تعالى : (واذكر ربك إذا نسيت)^(٢) يعني إذا نسيت مادون الله فقد ذكرت الله . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « سبق المفردون ، قيل : ومن المفردون يا رسول الله ؟ فقال : الذاكرون كثيراً والذاكرات »^(٣) والمفرد : الذي ليس معه غيره .

(١) من رسائل مصر .

(٢) الآية ٢٤ من سورة الكهف .

(٣) ذكره في الفتح الكبير بلفظ : (سبق المفردون المستهترون في ذكر الله ، يضع الذكر عنهم أثقالهم ، فيأتون يوم القيامة خفاً) . رواه الترمذي والحاكم عن أبي هريرة ، ورواه الطبراني عن أبي الدرداء . ومعنى المستهترون في ذكر الله : الذين أولعوا به . كما في الفيض .

وقال بعضهم : الذكر طرد الغفلة . فإذا ارتفعت الغفلة ، فأنت ذاكر
وإن سكنت . . . إه » (١) .

الذكر وسيلة لا غاية .

والذكر عند الصوفية وسيلة لا غاية ، وسيلة إلى الحضور الدائم
مع الله سبحانه وتعالى ، ولا يلتفتون إلى العدد في الذكر إذا تحقق
الذاكر بالحضور ، لأن العدد وسيلة عندهم إلى هذه الغاية الشريفة ، وإن
إحدى الكلمات الإحدى عشرة التي وضعها الشيخ عبد الخالق العجوداني
— رحمه الله تعالى — والتي تعتبر الأصول الأولى للطريقة النقشبندية
هي (الوقوف العددي) وقد شرحها صاحب (الحدائق الوردية)
بقوله : « وهو عبارة عن الذكر الحفي القلبي ، مع رعاية العدد ، لا
بجرد العدد في الذكر ، وذلك لحفظ الخاطر وحبسه عن التفرقة » .

وقال بعض الأكابر من هذه الطريقة العلية :

« كثرة العدد ليست بشرط في الذكر ، وإنما العمدة فيه حضور
القلب مع المذكور ؛ ليرتب عليه فائدة الذكر وأثره . . إه » (٢)

والوقوف العددي وسيلة إلى الوقوف القلبي ، أي الوقوف
المنسوب إلى القلب ، وهذا محمول على معنيين : إما وقوف قلب الذاكر
على المذكور عند ذكره أي إطلاعه عليه بحيث لا يغيب عن مراقبته ،
بل مشاهدته بكل حال ، قال سيدنا عبيد الله أحرار — قدس الله سره — :

(١) التعرف .

(٢) الأنوار القدسية .

« الوقوف القلبي كناية عن الحضور مع الحق تعالى على وجه لا يكون معه التفات إلى غيره ، وهو شرط لازم في الذكر ، ويسمى بالحضور ، والشهود ، والوصول ، والوجود .. إ ه » .

أو المراد وقوف الذاكر على قلبه ؛ بأن يطلع على حاله واشتغاله بالذاكر وملاحظة مفهومه ، وأن لا يخلّي عليه سبيلاً للغفلة . قال سيدنا بهاء الدين النقشبندي قدس سره العزيز : « الوقوف القلبي بالمعنيين ، شرط مهم أكثر من الوقوف العددي . إ ه » (١) .

وهذا يظهر لنا أن الذكر بعدد معين ليس غاية ، بل وسيلة ليعتاد قلب الذاكر على الحضور الدائم مع الله سبحانه وتعالى .

شروط ذكر اللسان .

والذاكر جائز بكل اسم من أسماء الله تعالى الحسنى ، وأسماء الله سبحانه وتوقيفية ، فلا يجوز لنا مجاوزتها إلى غيرها مما لم يقف عليها بنص صحيح . ويجوز جهراً وسراً ، وانفراداً واجتماعاً ، بشرط أن لا يكون في رفع الصوت أذى للآخرين وتشويشاً عليهم . قال سيدي رحمه الله : « والذاكر جائز في انفراد وفي اجتماع ، بشرط أن لا يكون من الذاكرين جهراً ، يتأذى به الجيران والناثمون والعالمون والعابدون والعاكفون في المساجد والمصلون ، وإلا حرم هذا الجهر ، وقد نص الفقه على هذا .. إ ه » .

(١) الأنوار القدسية .

تحريم التحريف في أسماء الله الحسنى .

ويشترط أيضاً في الجهر ، أن لا يكون تحريف في أسماء الله الحسنى ، وألا ترافقه حركات جماعية منتظمة تشبه حركات الرقاصين . وقد نبه - رحمه الله تعالى - على هذا ، فقال : « والذي نراه من بعض متصوفة عصرنا من الحركات الزائدة حال الذكر ؛ إن كانت ممن وجد صحيح ووارد قوي ، أفقد صاحبه التماسك حتى غدت حركاته كحركات المرتعش ؛ فلا إثم عليه ولا لوم ولا محذور ، وإنه في حال غالبه ، وما لم يكن كذلك ، فإن لم تشبه حركاته حركات المخنثين فلا ؛ أيضاً . أما إن أشبهتها وكانت حركات جماعية بخفض ورفع على مقدار معلوم ، لا يزيد أحدهم ولا ينقص عن الآخرين شيئاً ولو يسيراً ، وكانت شبيهة بالرقص ، فإن الشرع يمنع من هذا ويلزم الوقوف عند الأدب الشرعي الاسلامي ، والذكر المحرف ممنوع ، والواجب النطق باسم الله الكريم كما أنزله إلينا دون تغيير ، والإنشاد مسموح فيه إن لم يكن حاوياً معاني غير صحيحة كالقول بالحلول وما إليه . . إه » .

وكتب - رحمه الله تعالى - إلى الشيخ محمد أديب كلكل ، مقولة في هذا الموضوع نشرها في كتابه (قنبيه الفكر إلى حقيقة الذكر) وهي تحت عنوان :

«المنع من الذكر المحرف»

قال فيها : « الحمد لله رب العالمين ، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين . أما بعد : فلقد سئلت غير مرة عن جواز الذكر المحرف ، وإني أجيب مستعيناً بالله القوي العزيز ، فأقول :

قد يتعلق أصحاب الذكر المحرّف بأن اللغة غير مقصودة لذاتها، بل هي لمحض التفاهم، وأن المعنى هو الذي عليه التعويل و (إنما الأعمال بالنيات)^(١) فلا ينبغي التشديد في هذا الأمر ؛ لأن اشتراط النطق بالاسم الكريم باللغة الفصحى يقعد كثيراً من الناس عن التعب ، وذا يتنافى ومقصد الشرع ، وإنه من التكلف ، ولا ضير في تركه ما دام الإخلاص حاصلًا ، وحسن المقصد مائلاً . وقد يعززون دعواهم بأن اللحن في القرآن الكريم غير ضارٍ في بعض المسائل ، وأن افتتاح الصلاة بغير العربية لا يؤثر في صحتها ، وأن قراءة ترجمة سورة الفاتحة الشريفة تجوز بها الصلاة ، وأن الدعاء بغير العربية سائغ ، إلى آخر ما يستظهرون به على جواز ما هم متلبسون به ، من عدم مراعاة النطق حال الذكر باسم الله الكريم واضحاً غير محرّف .

وقبل أن أشرع في تركيز الحقيقة الدينية ، في وجوب النطق بالاسم الكريم كما أنزله الله سبحانه إلينا ؛ أحب أن يعلم الذاكرون أنني لا أتهمهم في إخلاصهم ، ولا أصادرهم في قصدهم ، فإن الإخلاص سرّ بين العبد وربه تعالى ، وليس من الحق التحكم في الضمائر ، ولا من الإنصاف التهجم على السرائر ، بل إني لأراهم في نفسي خيراً مني ، وإني أحمدهم سميتهم الطيب ، وسيرهم الحميد ، وخشوعهم لله ، وخضوعهم لأمره وابتعادهم عن المنكرات ، وانطواءهم على الذوات ، كما أنني لا أجد منازل السائرين إلى الله تعالى والسالكين سبيل التصفية ، فإنها حقائق مقررة لا يجحدها إلا الجهول ، الذي لم يشمّ للقرب من الله رائحة ، ولم

(١) هذا جزء من حديث شريف صحيح .

تعلق في روحه منه فائحة . إن السادة الصوفية لهم من هذا النصيب الأوفى ، والحظ الأوفر ، والله المسؤول أن يعيد علينا من بركاتهم ، وبجشرتنا في زمهرم وجماعتهم آمين . . .

ولكن هذا كله لا يمنع قائل الحق من قوله ، وإن الله فرض علينا التواصي بالحق ، والتواصي بالصبر ، وقدماً قال العارفون بالله سبحانه : لا يزال الصوفية بخير ما تناكروا .

إن الغيرة على اسم الله المجيد ، تحمل صاحبها على النصح بالتزام تصحيح حروفه والنطق به تماماً كاملاً ، فإنه أكرم الأسماء وأعجدها . وإن المرء ليغضب إذا نودي باسمه الشخصي محرّفاً ، فكيف باسم الله المجيد ! وهو سبحانه أحب إلى المؤمن من نفسه ، ومن كان كذلك ذاق حلاوة الايمان على ما جاء في الحديث النبوي الشريف ^(١) ، وعن هذا يمنع التطريب في الأذان : وهو إخراج كلماته عن وضعها بزيادة المدّ والتمطيط ، وقد ذكر المحقق الشيخ كمال الدين بن الهمام الحنفي في كتابه (فتح القدير) الذي شرح فيه كتاب (الهداية) في فقه الحنفية . ذكر فيه أن الإمام أحمد سئل عن هذا في القراءة ، فكرهه ومنعه ، فقيل له : لم ؟ فقال للسائل : ما اسمك ؟ قال : محمد ، فقال :

(١) وهو حديث صحيح متفق عليه ولفظه : « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الايمان : أن يكون الله ورهوله أحب إليه مما سواها ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله ، وأن يكفره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار » .

أعجبك أن يقال لك : (يا موحامد) . إذا لم يحل هذا في الأذان ففي قراءة القرآن أولى

وقد نقله عنه الشيخ الشبلي في حاشيته على شرح الكنز للزيلعي وأقره ، وإذا كان ممنوعاً في القراءة ؛ فهو ممنوع حال الذكر أيضاً ، والفرق بينها محض تحكم ، ومن المعلوم أن لام الجلالة في الاسم الكريم تفخم تارة وترقق أخرى ، ولا يجوز التريق في مقام التفخيم ، ولا التفخيم في مكان التريق ، وكل هذا من الحق المتلقى عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليماً . ولا يجوز العدول عنه بحال ، اللهم إلا إذا فقد الذاكر تماسكه ، وغشيتة حال شديدة جرى معها لسانه بما لا ينطق به لولاه ، فهذا يغتفر له ما لا يغتفر للمتمسك ، وقد يلتبس بحركات كحركات المرتعش ، فيكون منه اضطراب وصياح ، وقد يمزق ثيابه وجدأ وهياماً وشوقاً حاراً إلى الله ، يلهب به التهاباً محرقاً ممزقاً ؛ مثل هذا تسلم له حاله الصادقة ولا يعترض عليه إلا الأجنبي عن هذه النفحات الأقدسية ، التي تضرع قلوب إلى الله تعالى أن يبقى بابها مفتوحاً ، وفيضها بمنوحاً

ولا ضير على من نزلت به هذه الحال في كل حركة يأتيها ، فإن المنوع من الحركات ما كان على غير النحو الشرعي المأذون فيه ، والشرع إنما يأذن بما ليس فيه ثن وتكسر ومسا إليها . . . أما ادعائهم بأن اللحن في القرآن الكريم غير ضار في بعض المسائل ؛ فهو من الغرابة بمكان إذ كيف يسوغ اللحن المتعمد في كلام الله عز وجل ؟ ! . . .

اللحن الذي لا يضير هو ما يزل به لسان القارئ في الصلاة ، من

غير عمد على نحو ما ذكره الفقهاء رضي الله تعالى عنهم في فصل (زلة القاريء من باب مفسدات الصلاة). على أنه يغتفر للعامي فيها ما لا يغتفر للفقهاء العالم ، فقد تفسد في حق إنسان ، ولا تفسد في حق آخر . والتحريف في الذكر ليس من هذا في ورد ولا صدر ، من حيث أنه متعمد متلقف ، فقياسه على زلة القاريء لا يتم ؛ لأن الفرق بينهما قائم ، والقياس يعمل عمله عند التشابه التام بين المقيس والمقيس عليه ، وعند اتحاد العلة أيضاً ؛ ليكون الحكم فيها واحداً ، وشرطه أن لا يكون في المقيس نص وإلا فلا قياس ، ونصوص الدين تمنع من تحريف اسم الله تعالى ، وهل شرع علم التجويد إلا لإعطاء الحروف حقها ومستحقها من الخارج والصفات ؟ واسم الله الكريم أحق من سائر الكلمات بهذه المراعاة المفروضة .

وأما افتتاح الصلوات بغير العربية ، فأمر مختلف فيه ، فأبو حنيفة يجيزه للقادر على العربية ، مع الإثم وكراهة التحريم ، لأن التكبير واجب في أول الشروع ، وتارك الواجب واقع في كراهة التحريم التي يستحق مقارفها العقوبة بالنار ؛ لأنها إلى الحرام أقرب بخلاف كراهة التنزيه فإنها إلى الحل أقرب .

والصلاة التي دخلتها كراهة التحريم ، تعاد وجوباً في الوقت ؛ بل وبعده على الأصح . نعم لا تكون الصلاة باطلة بترك الواجب ، إذ البطلان ينجم عن ترك الفرض . وإن كانا مشتركين في الإثم والخطأ على تفاوت بينهما فيها ، قال الشيخ ابن عابدين في حاشيته « رد المحتار على الدر المختار » بعد أن ذكر جواز الشروع في الصلاة بالفارسية على قول

الإمام ، لان المطلوب الذكر والتعظيم ، وذلك حاصل بأي لفظ كان
وأي لسان كان . قال : نعم ، لفظ الله أكبر واجب للمواظبة عليه
لا فرض . . . اهـ .

والجواز لا يتنافى مع كراهة التحريم ، لترك الواجب كما هو
مقرر الفقه ، أما صاحبه أبو يوسف ومحمد - رحمهما الله تعالى -
فإنهما لا يجوزان الشروع فيها إلا بالعربية للقادر عليها ، ويجوزانه
للعاجز عنها ، فهما يشترطان العجز لجواز الشروع كما في الدر المختار .
فما لم يكن لم يكن . على أن هذا قياس مع الفارق أيضاً ؛ لأن
الكلام في منع ذكر اسم الله تعالى بحروفه العربية المحرفة لا في لغة
أخرى ؛ فلينتبه إلى هذا .

وأما جواز الصلاة بقراءة ترجمة سورة الفاتحة بغير العربية فلا
يفيد شيئاً . ذلك أن هذا الجواز مقيّد بالعجز عن قراءتها بالعربية إلى
أن يتعلمها . وهذا هو الذي عليه الفتوى ، إذ الأصح أن الإمام أبا
حنيفة - رحمه الله تعالى - رجع إلى قول صاحبيه أبي يوسف ومحمد
- رحمهما الله تعالى - بأن قراءتها بالفارسية ونحوها لا تجوز بها الصلاة ؛
إلا عند العجز عن قراءتها بالعربية ، وقد كان الإمام أولاً يقول بجوازها
مطلقاً ، ثم رجع إلى قولهما ، كما في الدر المختار نفسه ، فضلاً عن
الاحتجاج به كدليل .

وأما تسويغ الدعاء بغير العربية ، فلا وجه للاستدلال به على
جواز الذكر المحرف ؛ لأن الدعاء ضراعة إلى الله وذلة له سبحانه ،
ومن ذا الذي يمنع الأعجمي أن يبسط كف الضراعة إلى خالقه ، ويذل

له ، طالباً منه سبحانه قضاء حاجته ، وهو الذي يجيب المضطر إذا دعاه ،
ويحقق له رجاؤه ؟ ! إنه سبحانه المدعو بكل لسان ، والمرجو في كل
آن ، وقد طلب إلى خلقه أن يدعوه ليستجيب لهم . على أن عوام
العرب ، إذا دعوا ربهم بلغتهم العامة غير الفصحى ، فإنهم ينطقون
باسم الذات فصيحاً بيا الله ، واللهم ، وياربنا ، وما إلى هذا ، بما ليس
لتحريف الحروف فيه سلوك ، أما باقي كلامهم ، فهي أوعية للمعاني
التي يشكون بها بشم وحزنهم إلى الله ، والله عليم بالمقاصد والنوايا ، وما
انطوت عليه الصدور من أسرار وخفايا .

وأما الذكر بلفظ « آه » طبعاً لما في القلب من اسم « الله »
وحسباً للنفَس بالهمزة منه ، ثم تصريفاً له بالهاء الصاعدة من القلب
للتفريق عن قلوب المنتهين ، ولتحريك قلوب المبتدئين ، وللاستعانة على
سرعة الاستحضار ، فأمر متوقف على ورود الشرع بأن لفظ « آه »
من أسمائه تعالى ، التي هي توقيفية ليس للاختراع إليها سبيل ، نعم
ينسب إلى بعض الصوفية أنهم يثبتونه اسماً له تعالى ؛ وليتهم بينوا دليل
هذه التسمية من دليل سمعي - كتاب أو سنة - فإن الأمر من حيث
هو متوقف عليها . وبعد : فما الذي يضر إخواننا إذا كثر الله تعالى أن
يَدْعُوا ما فيه شبهة ، إلى ما ليس فيه شبهة ، وقد قال فقهاؤنا رضي الله
تعالى عنهم : إذا ترددنا في شيء بين كونه بدعة أو سنة ؛ فتركه لازم .
إه . وإلى الفقهاء الرجوع في الأحكام لا إلى المفسرين والمحدثين
والصوفية ، على احترامنا لهم .

وفي الحديث النبوي الشريف الذي رواه سيدنا أمير المؤمنين

الحسن ابن أمير المؤمنين علي رضي الله تعالى عنها وكرم وجهها ، عن سيدنا جده المصطفى عليه وآله الصلاة والسلام أنه قال : « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك » رواه الترمذي والنسائي ، وقال الترمذي : حديث حسن صحيح . هذه النصيحة أملاها عليّ النصح للإخوة في الدين ، والله ولي المؤمنين . إ ه » .

ذكر القلب أفضل من ذكر اللسان .

وذكر القلب أفضل من ذكر اللسان ، وفي هذا قال - رحمه الله تعالى - :

« فإن ذكر القلب الذي عليه السادة النقشبندية ، يفضل الذكر اللساني الذي تسمعه الملائكة الحفظة بسبعين ضعفاً ، كما جاء في الحديث الشريف ، من حيث إنه سر بين العبد وربّه تبارك وتعالى ، وإنه مطهر للقلب من كل سوء ، يحرق بجرارته الصفات السيئة ، ويملأ الذاكر نوراً .. إ ه » (١) .

ومع ذلك ؛ كان رحمه الله يميز ذكر اللسان بالشروط التي نقلتها عنه ، لأن الأدلة الشرعية تحبّه ، ولقد كتب رحمه الله تعالى إلى أحد المشايخ - أخبر عنه أنه يقول : إن الإمام الرباني الشيخ أحمد السرهندي يقول : « إن ذكر اللسان ذنب » - كتب إليه يقول : ألقى إليّ إنسان من أهل طريقتنا نبأ عن فضيلتكم ، يتلخص في أن سيدنا الشيخ أحمد السرهندي قدس سره الإمام الرباني مجدد الألف الثاني ، أنه

(١) من الرسائل المحفوظة .

يقول : إن ذكر اللسان ذنب . إ . ه . ولا أخفي عليكم أن هذا الخبر
ثقل على روحي ، لما أعلم من حاله وبما كتبه عنه العلماء وترجموه به ،
من أنه كان فوق الأشخاص العاديين ، هذا إلى كونه متشرعاً للغاية ،
ووفقاً عند الحدود الدينية العلمية ، لا يجاوزها ولا يعدوها ، ولقد
نهض بالهند منذ ثلاثمائة سنة إلى الأوج الأعلى ، وأيد الله به الاسلام ،
وفاض مدد قلبه الشريف إلى أقاصي الدنيا وأدانيها ، فكان مجد الألف
الثاني بحق . فكيف يتصور متصور مع هذا أن هذا القول صحيح عنه !
ومعظم الأذكار الواردة في السنة والمأثورة عن سيدنا رسول الله عليه
 وآله الصلاة والسلام ، كانت لفظية لسانية ، وأكثر طرائق أهل الله ؛
 بل كلها - باستثناء طريقتنا - يُعنى مرشدوها بتسليك المريدين في
الذكر اللساني ، ثم ينتقلون بهم إلى الذكر القلبي ، فكيف يكون
الذكر اللساني بإطلاقه ذنباً ! والذنب إذا أطلق انصرف معناه في
الذهن إلى العصيان ؟ ! ! .

أليس القرآن ذكراً لسانياً ؟ ! ! أليست الأذكار التي جمعها
الإمام النووي وغيره - رحمهم الله تعالى - في عمل اليوم والليلة ،
والتقلبات الليلية والنهارية ، وفي أعقاب الصلوات ، أليست هذه أذكراً
لسانية ؟ ! ألم يقرر أئمة طريقتنا النقشبندية أن ذكر القلب يكون بعد
استيفاء المأثورات الواردة ، وكلها لسانية ؟ ! ! .

الذي أراه على ضوء هذه السواطع أن نسبة تلك القولة إليه غير
صحيحة قطعاً ، ومعاذ الله أن يقرر الإمام الرباني المتشرع هذا
التقرير ، وبفرض وجودها فيما أثر عنه من مكتوبات ومقولات ، فإن

علينا أن نقف منها موقفاً يرضى عنه الاسلام والطريقة ، وهي من الاسلام .

وهل هذا نستطيع أن نقول : إن نقل المعاني من الأوردية الهندية إلى اللغة العربية ، عملت فيه يد الترجمة عملها ، فقد يكون نقص ، وقد تكون زيادة ، وقد تكون دسائس لتشويه سمعة الطريقة ، وكم وكم دس الدساسون ، وكذلك الكذابين ، على سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وعلى أئمة الفقهاء والمحدثين والصوفية ؛ ليلغوا ما يريدون من الإفساد في العقائد والأعمال ، وقد يكون مراده أن الذكر القلبي أقوى أثراً وأعظم ثواباً ؛ لأنه لا تسمعه الحفظة وأسرع إيصالاً إلى الله سبحانه وتعالى . على أن المنقولات عنه — قدس سره — لم يبلغ ثقلوها عدد التواتر الذي يفيد اليقين ، بل ولا عدداً يفيد غلبة الظن ، فيسعدنا والحالة هذه أن ننفي عنه هذا الذي نسب إليه ؛ تبوئة لساحة ذلك الإمام الجليل ، الذي هو حلقة كبرى في سلسلة طريقتنا العلية النقشبندية . . . إله (١) .

الأحوال

الأحوال من ثمرات الاستغراق في ذكر الله سبحانه وتعالى ، يخلقها الله سبحانه وتعالى في قلوب الذاكرين ، وسميت أحوالاً لأنها

(١) من الرسائل المحفوظة .

تتحول ولا تدوم ، وقد تسمى وجداً لوجودها في القلب ، وإذا قويت
قد تفيض عن القلب ، فتظهر على الجوارح حركات اضطرابية أو بكاء
أو صراخاً . وأكثر ما تظهر على جوارح المبتدئين ، أما المتمكنون
فإنهم يصرعون أحوالهم وينعونها من الظهور . قال الكلاباذي في
« التعرف » : « ومعنى الوجد ، هو ما صادف القلب من فزع أو غم ،
أو رؤية معنى من أحوال الآخرة ، أو كشف حالة بين العبد والله عز
وجل . قالوا : وهو سمع القلوب وبصرها ، قال الله تعالى : (فإنها لا
تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور) ^(١) فمن ضعف
وجده تواجد ، والتواجد ظهور ما يجد في باطنه على ظاهره ، ومن قوي
تمكن فسكن . قال الله تعالى : (تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ،
ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله) ^(٢) . قال النوري : الوجد لهيب
ينشأ في الأسرار ، ويسخ عن الشوق ، فتضطرب الجوارح طرباً أو
حزناً عند ذلك الوارد . . . إله » ^(٣) .

ولهذا وصف سيدي رحمه الله تعالى التصوف بقوله : « فإن
التصوف حال أكثر منه قالاً ، وإن من سلك سبيل القوم بصدق ذاق
ما ذاقوه ، إن شاء الله تعالى له ذلك . . . إله » ^(٤) .
وكان - رحمه الله - ينصح بالآ يظهر أصحاب الأحوال أحوالهم ،

(١) الحجج : ٤٦ .

(٢) الزمر : ٢٣ .

(٣) التعرف .

(٤) من الرسائل المحفوظة .

إلا عند الاضطراب الشديد، فقد كتب إلى أحد تلاميذه يقول : والذي يحسن بك ، أن تحسن صلتك بالله تعالى عن طريق ذكره ، ودوام مراقبته عز اسمه وتعالى جده . وتعودُ الصبر على مصارعة الأحوال التي تعترى السالك إلى الله سبحانه وتعالى ؛ من أهم المطلوبات الشرعية ؛ فلا ينبغي أن تظهر الحال على صاحبها إلا عند الاضطراب الشديد الذي يفقد معه التماسك والتثبت .. إله^(١) .

وأرسل إليه أحد تلاميذه ، يشكو إليه شدة أحواله وكثرة صياحه ، فكتب - رحمه الله - تعالى إليه : « إن الذي تتخوفه حال طيب ، وأمر حسن ، إنه ليدل على علوقك بطريق أهل الله وأحبابه الذين أنتسب إليهم . وإن الحال الصالحة والمدد الروحي ، يخلق الله سبحانه سارياً من أرواحهم إلى أرواحنا ، وقد يخلق خلقاً مبتدئاً كما يشاء ربنا تعالى ويريد . فلا تجفل من هذا الذي يدل على خير ويفضي إلى خير إن شاء الله تعالى ، وإني قد مررتُ بي عهد كنت فيه كثير الصراخ والصياح والاضطراب والبكاء ، حتى ضعف صوتي وبيع ، ثم سكنت حالي وهدأت ، وقد يعاودني أحياناً شيء قليل مما كان يغمرني في السابق ، وهذا يعبر عنه السادة الصوفية بالجذب ، وقديماً قال قائلهم :

وَمِنْ عَلَيْنَا يَا وَدُودَ بِجَذْبَةٍ بِهَا نَلْحَقُ الْأَقْوَامَ مِنْ سَارِ قَلْبِنَا
وقد تأتي للمجذوب ملاطفات ربانية ، وحلاوات روحانية ،

(١) من الرسائل المحفوظة .

ولقاضات إلهية ، يخشع لها القلب ، وتبعد بها الروح ، ويفرق السر
في بحر متموج من اللذائذ . وقد قالوا : لو يعلم أبناء الملوك ما نحن عليه
من اللذة ، لجالدونا عليها بالسيف . وقالوا أيضاً :

من ذاق طعم شراب القوم يدربه ومن دواه غدا بالروح يشربه
ولو تعرضَ أرواحاً وجاد بها في كل لحظة عين لا تساويه
وهذا الصراخ الشديد ، دواؤه التحمل لما قد يرد على القلب من
واردات ، وهذا التحمل يكون بالتمرن عليه ، حتى يقوى المرء على
ضبط حاله ، فلا يظهر منه إلا ما كان فائضاً لا يسعه السر .

تهدئة الحال بالإكثار من الصلاة والسلام على النبي .

على أن الإكثار من الصلاة على حضرة سيدنا رسول الله صلى الله
عليه وآله وسلم وبارك ، هذا الإكثار له أثره البين في تهدئة الحال ،
وإبراد الاشتعال ، فالزمها ألف مرة في اليوم ، وزد عليها شيئاً من العدد
غير محدود ، وابدأها واختمها بالصلاة الإبراهيمية ثلاثاً في البدء وثلاثاً
في الحتم ، وقل مع كل مرة من هذه الثلاث : (السلام عليك أيها النبي
ورحمة الله وبركاته) ملاحظاً أنك تسلم على ذاته الشريفة عليه وآله
الصلاة والسلام ، واجعل له وللمسلمين ثواب عملك ، ليصل إليه ، ويكتب
لك الأجر وافراً غير منقوص ، ويكفيك الله همك ، ويغفر لك ذنبك ،
كما ورد في الحديث الشريف .. إله^(١) .

وقد يقوى الحال حتى يغلب على صاحبه غلبة يخرجها عنها عن

(١) من الرسائل المحفوظة .

مراعاة الأدب ، قال الكلاباذي - رحمه الله تعالى - : « الغلبة حال تبدو للعبد لا يمكنه معها ملاحظة السبب ، ولا مراعاة الأدب ، ويكون مأخوذاً عن تمييز ما يستقبله ، فربما خرج إلى بعض ما ينكر عليه من لم يعرف حاله ، ويرجع على نفسه صاحبه إذا سكنت غلبات ما يجده ، ويكون الذي غلب عليه خوف أو هبة أو إجلال ، أو حياء أو بعض هذه الأحوال . كما جاء في الحديث عن أبي لبابة بن عبد المنذر حين استشاره بنو قريظة ، لما استنزلهم النبي ﷺ على حكم سعد بن معاذ ، فأشار بيده إلى حلقه ، أنه الذبح ، ثم ندم على ذلك ، وعلم أنه قد خان الله ورسوله ، فانطلق على وجهه حتى ارتبط في المسجد إلى عمود من عمدته ، وقال : (لا أبرح مكاني حتى يتوب الله عليّ بما صنعت) فهذا لما غلب عليه الخوف من الله عز وجل ، حال بينه وبين أن يأتي رسول الله ﷺ ، وكان هو الواجب عليه لقول الله عز وجل : (ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم ، جاؤوك فاستغفروا الله ، واستغفر لهم الرسول)^(١) . الآية . وليس في الشريعة ارتباط بالسواري والعمد ، وقال النبي ﷺ لما أن استبطاه : (أما لو جاءني لاستغفرت له ، فأما إذ فعل ما فعل ، فما أنا بالذي أطلقه من مكانه ، حتى يتوب الله عليه) . فلما علم الله صدقه وأن ذلك صدر عنه لغلبة الخوف عليه غفر له ، فأنزل الله توبته ، فأطلقه النبي ﷺ .

وكما غلب على عمر رضي الله عنه حمية الدين ، حين اعترض على

(١) النساء : ٦٤ . وثمة الآية : « لوجدوا الله تواباً رحيماً » .

رسول الله ﷺ ، لما أراد أن يصالح المشركين عام الحديبية ، فوثب عمر حتى أتى أبا بكر رضي الله عنه ، فقال : يا أبا بكر ، أليس هذا رسول الله ! قال : بلى ، قال : ألسنا بالمسلمين ! قال بلى . قال : أليسوا بالمشركون ! قال : بلى . قال : أفعلام نعطي الدنية في ديننا ؟ . فقال أبو بكر : يا عمر ، الزم غرزه ^(١) فإني أشهد أنه رسول الله . فقال عمر : وأنا أشهد أنه رسول الله ، ثم غلب عليه ما يجد حتى أتى رسول الله ﷺ ، فقال له مثل ما قال لأبي بكر ، فأجابه النبي ﷺ كما أجابه أبو بكر ، حتى قال : (أنا عبد الله ورسوله ، لن أخالف أمره ، ولن يضيعني) فكان عمر يقول : فما زلت أصوم ، وأتصدق ، وأعتق ، وأصلي ، من الذي صنعت يومئذ ، مخافة كلامي الذي تكلمت به ، حتى رجوت أن يكون خيراً .

ثم قال - بعد أن عرض أمثلة أخرى - : فهذه كلها - وأمثالها ، كثيرة - تدل على أن حال الغلبة حال صحيحة ، ويجوز فيها ما لا يجوز في حال السكون ، ويكون الساكن فيها بما هو أرفع منه في الحال أمكن وأتم حالةً ، كما كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه .. إله ^(٢) .

التمكن في الحال يوصل إلى المقام .

وإذا جاهد صاحب الحال نفسه وقاومها ، فقد يتمكن من حاله ويملكه ، وعند ذلك يدوم له حاله ، ويسمى في هذه الحالة مقاماً . قال الجرجاني في كتاب « التعريفات » :

-
- (١) الزم غرزه : ابعث قوله وفعله ولا تخالفه .
(٢) التعرف .

« والحال عند أهل الحق ، معنى يرد على القلب من غير تصنع ولا اجتلاب ولا اكتساب : من طرب ، أو حزن ، أو قبض ، أو بسط ، أو هيئة ، ويزول بظهور صفات النفس ، سواء يعقبه المثل أو لا ، فإذا دام وصار ملكاً يسمى مقاماً ، فالأحوال مواهب ، والمقامات مكاسب ، والأحوال تأتي من عين الجود ، والمقامات تحصل من بذل المجهود .. إله (١) » .

الأحوال عند الصحابة .

وهذا يفسر لنا لم يكن أصحاب النبي ﷺ مصابين بالأحوال التي أصابت من بعدهم ، فالقوم رضي الله عنهم جاهدوا أحوالهم وتمكنوا منها ، فصرعوها ولم تصرعهم ، وكانوا جبلاً راسية في التمكن والثبات ، ذوي مقامات عالية لم يصل إليها كل من أتى بعدهم . ولقد ساعدهم على هذا التمكن صحبتهم للنبي ﷺ ، والمدد الروحي العظيم الذي كانوا يتلقونه من قلبه الشريف ، ولو لم يكونوا في مقامات التمكن العالية ، كيف يكون شأنهم وهم يشهدون ويسمعون حنين الجذع الذي كان يخطب عليه ﷺ ، وتسبيح الحصى في كفه الشريف ، ونبع الماء من بين أصابعه الشريفة ، وغيرها من المعجزات الحسية التي أكرم الله بها نبيه صلى الله عليه وآله وسلم ؟ بل كيف يكون حالهم ، لو لم يكونوا في مقامات التمكن ، وهم يسمعون القرآن الكريم من فمه الشريف صلى الله عليه وآله وسلم ، فتجتمع لهم أنوار التنزيل

(١) التعريفات .

الكريم ، وأنوار النبي العظيم ، وجلال الوحي الأمين ؟ ! ولعل سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه ، أشار إلى هذا المدد الروحي العظيم الذي كانت قلوبهم تتلقاه من قلبه صلى الله عليه وآله وسلم بقوله :

« لما كانت اليوم الذي دخل فيه رسول ﷺ المدينة ، أضاء منها كل شيء ، فلما كان اليوم الذي مات فيه ، أظلم منها كل شيء ، وما نقصنا أيدينا من التراب - وإننا لفي دفنه - حتي أنكرنا قلوبنا »^(١) .
صاحب الحال لا يقلد أثناء غلبة الحال عليه .

هذا ولا بد لي من أن أنه إلى أن بعض المتصوفة قد تغلبهم أجوالهم ، ويصدر عنهم أثناء ذلك ما يخالف الشرع ، فلا يجوز تقليدهم في هذا الذي يصدر عنهم في حالة الغلبة ، نبه على هذا كبار القوم رضي الله تعالى عنهم ، قال الإمام الرباني السرهندي - رحمه الله تعالى - : « علامة الوصول إلى حقيقة اليقين ، مطابقة علومه ومعارفه لعلوم الشريعة ومعارفها ، وما دامت المخالفة موجودة ، ولو بأدنى شعرة ؛ فذلك دليل عدم الوصول ، وكل خلاف وقع من كافة مشايخ الطرق للشريعة ، فهو مبني على سكر الوقت ، وهو لا يكون إلا في أثناء الطريق ، والمنتبهون إلى النهاية كلهم في الصحو ، والوقت مغلوب لهم ، والحال والمقام تابع لكمالهم ؛ فتحقق أن مخالفة الشريعة علامة على عدم الوصول إلى الحقيقة . . إ ه »^(٢) .

(١) أخرجه الترمذي في الشمايل والفتاوى .

(٢) الأنوار القدسية .

وما أجل ما قاله مولانا خالد - رحمه الله تعالى - في هذا الموضوع :

« الولي يعذر في نطقه بغير المشروع لكسره ومحوه ، ولا يجوز تقليد غيره له بشعوره وصحوه ، ولا يسقط التكليف إلا بمن سقط عنه شرعاً . وأيضاً الخطأ الكشفي كخطأ الاجتهادي يعذر صاحبه ولا يقتل فيه ، ومن لم يجوز الخطأ على الأولياء ، لم يفرق بين النبي والولي تماماً . . . إله » (١) .

القبض على ناصية الحال .

ومن جملة الشروط التي ذكرها سيدي - رحمه الله تعالى - للشيخ المرشد ، أن يكون قابضاً على ناصية حاله ، متمكناً منه ، قال رحمه الله في ذلك :

« ثم القبض على ناصية الحال ، فلا يخرج به عن سنن السنة إلى مخرفة البدعة ، ولا عبثة بالفيض والمدد ما لم يكن مترسماً بسير النبي وصحبه ، وأئمة السلوك ، عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام . فإن لم يحكم هذا إحكاماً صحيحاً ، كان مستدرجاً مكموراً به ، والعياذ بالله تعالى . والله السيد الرواس حيث يقول من قصيدة :

لو تقطعتُ بوجدي إرباً قدمي عن نهجكم مازلقا
وذراعي لو بسيف قُطعتُ أبداً وجه السُّوَى ما طرقا
والكلمة السائدة عند أهل السير إلى الله تعالى : « لو رأيتُم

وجلاً أعطي من الكرامة ، حتى تربع في الهواء ، فلا تغتروا به
حتى تنظروا كيف وقوفه عند حدود الله عز وجل . . إله^(١)

الأحوال والأعمال .

ولا يظن إنسان أن الأحوال الطيبة ثمرة الذكر فقط ، بل لا بد
من الأعمال التي أمر بها الشرع وتعبداً لله بها ، قال الكلاباذي - رحمه
الله تعالى - : « اعلم أن علوم الصوفية علوم أحوال ، والأحوال
موارث الأعمال ، ولا يرث الأحوال إلا من صحح الأعمال ، وأول
تصحيح الأعمال معرفة علومها ؛ وهي علوم الأحكام الشرعية . . إله^(٢) »

وقال الحسن البصري - رحمه الله تعالى - : « لا يغرنك قول
من يقول : المرء مع من أحب ، فإنك لن تلحق الأبرار إلا بأعمالهم ،
فإن اليهود والنصارى يحبون أنبياءهم وليسوا معهم . . إله^(٣) »

وصفة القول تظهر لنا بالكلمة التالية للسيد الرواس رحمه
الله تعالى : « الحال يحول ، والرجوع لا ينبغي إلا إلى الفقه المحمدي
المدوّن ، المعروف الشأن ، البين ، الظاهر الحكم والحكمة في الآخرة
والأولى ، والأمر يومئذ لله . . إله^(٤) »

(١) من الرسائل المحفوظة .

(٢) التعرف .

(٣) الأنوار القدسية .

(٤) بوارق الحقائق .

الشطح والتحذير منه .

وقد يغتر بعض المبتدئين بحاله ، وتغلب عليه نفسه ، فيتلفظ بألفاظ مخالفة للشرع ، وقد أطلقوا على هذه الحالة اسم (الشطح) وحذروا منها ومن الأقوال الناتجة عنها أشد تحذير ، ولقد دخل إلى التصوف عن هذا الطريق دخائل كثيرة . وكان سيدي - رحمه الله تعالى - يحذر منها ، وينبه عليها ، وينصح المبتدئين ألا يقرأوا كتب القوم حتى لا يقعوا على أمثالها . وإن كثيراً منها مدسوس عليهم ، وقد يتكلمون بكلمات لا يفهم حقيقة معناها إلا من كان مثلهم وبلغ رتبتهم . ولقد أرسل سائل إلى سيدي رسالة ، يسأله فيها عن مثل هذه الكلمات التي وقع عليها في بعض الكتب ، فكتب إليه - رحمه الله تعالى - ما يلي :

« إن من أدب المريد ، أن لا يسبق علمه ذوقه ، فلا يتكلف معرفة منزلة قبل أن ينازلها ويبلغها ، وإن تكلف ذلك فقد يفهم غير مراد القوم من كلامهم فيضل ، وهم منعوا غيرهم ممن لم يبلغ منازلهم من مطالعة كلماتهم وقراءة كتبهم لهذا الملحظ ، إذ هو بين أن يكفروهم إن أساء بهم الظن ، وبين أن يتابع فهمه السيء الذي لم يريدوه ، فيفسد اعتقاده ، ويعزب عنه رسأده . وبعض ما في كتبهم مدسوس عليهم ، وقد نبه العلماء عليه ، وبينوا دسه ، وإن لدينا فيما نسب إليهم ميزان الشريعة ، فكل ما لم يقبل التأويل بوجه صحيح فهو مدسوس عليهم .

وإني آخذ نفسي ومن لقنته طريق السادة النقشبندية ، بالامتناع من مطالعة الكتب التي ألفها القوم لأنفسهم ولأمثالهم ، أخذتهم ونفسي

بهذا ؛ حرصاً على سلامة الاعتقاد ، وإبقاء على حسن الظن بالقوم
رحمهم الله تعالى .

وعلى هذا ؛ فلن نجد عندي جواباً لما سألتني ، وإني أرى الاشتغال
بالتفسير والحديث والفقه ، أجدى علينا وعلى الأمة من الاشتغال بهذه
الدقائق ، التي قل أن يخرج المشتغل بها سليماً ، إن كان من المبتدئين ،
وقد سمعت سيدي ومرشدي ، السيد الأستاذ الشيخ محمداً أبا النصر ،
- رحمه الله تعالى وقُدس سره - يقول : « طعام الكبار يضر
الصغار » ويعني به هذه المسطورات في كتب القوم إذا طالعها
السالكون المبتدئون . فلنقبل هذا ، ولنعمل عليه ، حتى يوافينا فتح
الله علينا ، والله قريب مجيب .. إله^(١) .

ولقد أفاد وأجاد كثيراً السيد الرواس - رحمه الله - في كتابه
(يوارق الحقائق) في كلامه عن الشطح والشطاحين والتحذير منهم ، فمن
نثره قوله : « وبوبعت في الحضرة على نصرة سنة النبي العظيم ، وقمع
البدعة المهادمة لمنازل العقائد الإسلامية ، التي قال بها جهلة المتصوفة :
كالشطحات التي تتجاوز حد التحدث بالنعمة ، والقول بالوحدة المطلقة ،
والاشتغال بالكلمات السائقة إلى هذا الباب .. إله » ، وقال أيضاً :
« وخلاصة ما أجمع عليه العارفون ، أن الشطح هضمه جموح ، وضجة
دعوى ، ونهزة تجاوز ، ومفارقة حق ، وانصراف مع هوى ، ولا
يكون الولي ولياً حالة الشطح ؛ بل ينسلخ من ولايته ، وينتقل إلى

(١) من الرسائل المحفوظة

ساحة دعواه ، كما ينتقل النائم بالنوم من يقظته إلى ساحة نومه ، وهو — أعني الشطح — نقص لا يجتمع معه كمال ، وإدلال لا يفارقه الإذلال ، وبينه وبين التحدث بالنعمة أهوال ، وكل من كلمة شطح سرت ، وكتبها أهل النقص في كتبهم ؛ ظناً بأنها من مقام التحدث بالنعمة ، وهي عند الله من سوابب النعمة ، والعياذ بالله تعالى .. إله^(١) .

ومن شعره في هذا الموضوع :

همم تطرقها الزلزل وطوى عزائمها الخلل
سبحت بموجات الهوى غياً على شوط الأمل
فالزم طويق المصطفى واطرح أباطيل الحيل
واهجر صنوف الشطح إن الشطح داعية الزلزل
واقطع صنيع علائق الشطاح واهجر ما فعل
هو واهم إن لم يز ل فكل من يتبعه زل^(٢)

ويؤكد تحذيره من مثل هؤلاء ، فيقول : « ولا يغرنك حال بعض الأدعياء في طريق الله تعالى ، ممن يزعم أنه على شيء ، وهو ممن فارق السنة والجماعة ، واتخذ الزيغ والإلحاد والشطح الكاذب ، له رأس مال وزبدة بضاعة ؛ فأولئك من المقوتين المردودين : (وإن الله لمع المتقين) .. إله^(٣) » .

(١) بوارق الحقائق .

(٢) المرجع نفسه .

(٣) رفرغ العناية .

ومن وصايا مولانا خالد النقشبندي - رحمه الله تعالى - : « أما بعد : فأوصيكم ، وأمركم بالتأكد الأكيد بشدة التمسك بالسنة السنية ، والإعراض عن الرسوم الجاهلية ، والبدع الردية ، وعدم الاغترار بالشطحات الصوفية .. إله (١) » .

ووفاءً للحق وتبياناً له ، أثبت فيما يلي ما كتبه سيدي - رحمه الله تعالى - عندما كان في مصر إلى شيخه ومرشده سيدي الشيخ محمد أبي النصر قدس سره ؛ ليظهر لنا كيف كان - رحمه الله - يسير في طريق التصوف على بصيرة ورشاد ، يقيس كل أمر يعرض له بمقياس الشرع الذي أمر به وأخلص له ، ودافع طيلة حياته عنه . وهذه الرسالة من عيون كنوزه العلمية ، وذخائره الأدبية ، ولذلك أثبتتها فيما يلي بكاملها . قال - رحمه الله تعالى - :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه . من العبد الفقير إلى الله تعالى محمد الحامد ، إلى سيده ومرشده الأستاذ الشيخ محمد أبي النصر قدس سره :

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، وبعد : فإني ألتزم بكم الشريفة بشقة الروح ، سائلاً الله تعالى أن يحفظ فيكم بقية الصالحين ، ويديم مناركم عالياً وذكركم سامياً ، وبعد : فإني مستشعر تقصيري إذ لم أحدث بكم عهداً كتابياً ، بعد أن كتبت إليكم أوائل ذي الحجة

(١) الأنوار القدسية .

الماضي ، وقد يُظن أن هذا الانصراف عن الكتابة لذهول أو نسيان ،
أو لاطراح المودة وهجران المحبة . إنني أرجو من سيدي أن لا يظن
بولده هذا الظن ، فما أنا بالذي يقطع حبل المودة ، ولست أجفو من
حنا عليّ وبرني ، وكان لي الدوحة التي أنظلل بها إذا حمي عليّ الهجير ،
ولأنا كما يقول ناظم الموال المصري :

ياسادتي إن نسيتوني أنا فاكرو وإن هجرتكم أنا لودادكم شاكر
وحياة من أنزل القرآن وفيه فاطر غبم عن العين ، ماغبتم عن الحاطر
غير أن الهموم والأحزان التي ألحت عليّ في مصر ، غلبتني على
أمري ، وصرفتني عن أداء واجباتي نحوكم ، ولعل الأوقات تصفو
فأصفو ، وأعود سيرتي الأولى ، وأملّي أن لا يكون هذا بعيداً .

عندي أمور كنت متردداً في مكاشفتكم بها ، ولكن صح
العزم مني على ذكرها في هذا الكتاب ؛ لتعود الكتابة بالنفع على
الكاتب ، وقد يبسط الأدنى بين يدي الأعلى ما يساوره ، ويعرض
له ، وعلى هذا قام شأن أهل الشأن .

كنت سائراً في كنف حسن الظن بالقوم عامة ، وبشخصيات منهم
خاصة ، مبتعداً عما يحدث لي سوء ظن أو يخدش حسن اعتقادي بهم ،
لا سيما وقد ضربتم لي مجالكم مثلاً أعلى وسيرة صالحة ، ولأوائك الذين
تتعطر بذكركم المجالس وتجلو ذكراهم القلوب . كنت حريصاً على
طيب قلبي نحو تلك الشخصيات ، منصرفاً عن مطالعة كتبهم ، لما شاع
في الأوساط العلمية أن فيها ما يصطدم والشرعية المطهرة ، وأن
المعتذرين عنهم يقولون : إنها لعلوها عن مدارك حَمَلَة الشرع ، يظن

بها ذلك ، وهي على التحقيق روح الشريعة ولبابها ، وحيث إنني مقتنع بأنني لست من ذوي الأفهام الدقيقة ، التي تنحل أمامها المشكلات ، فقد رأيت أن أنحاشي جانباً عن موطن النزاع ، وأكون على اعتقاد الحسن في المتنازعين ، قائلاً: إن الخلاف الفقهي وإنهم متلاقون في نقطة واحدة ، هي البراءة بما توهمه العبارات ولا يفهمه إلا أهل الإشارات ، وهكذا أصمت أذني عما يعكر عليّ حالي ، ولكن هذا النوع من السير لم يطل بي ، خصوصاً في مصر ، وخصوصاً في هذا الزمن الذي ظهر به ما كان كامناً ، وانكشف ما كان يحرق الأشياخ على بقاءه في خفائه . على أنني تصامت في أول الأمر ، وتغافلت إلى أن صرت إلى حال لا ينفعني معها التصامم ولا التغافل ، إذ وقفت في مفترق لطريقين: حق ، وباطل ، وأيقنت حينئذ أنني أمام حقيقة واقعة ، وأن عليّ أن أميز بين الحق والباطل ، قياساً بالتكليف الإلهي ، وتحقيقاً لمقتضيات الايمان الذي به النجاة يوم يخسر المبطلون .

أما هذه الأمور فهي مما ترفضه الشريعة بالبدهة ، إذ أن القول بها معناد التماس من حبال الدين ، والتحلل من قيوده ، فيما أوجبه من العقائد ، وقضى بالمصير إليه والتزامه ، وها أنذا مبتدئ بها تعديداً واحداً إثر واحد ، والله المستعان .

الأول في الرد على من قال بنجاة إبليس يوم القيامة .

ألقي إليّ بعض الناس ، أن الشيخ عبد الكريم الجيلي صاحب كتاب « الانسان الكامل » يقول بنجاة إبليس يوم القيامة ، فدهشت لهذا النبأ ، الذي لا يتصور عاقل صدوره من مسلم ، يؤمن بالقرآن؛ فضلاً

عن يومئذ إليه كثير من الصوفية بأنه عارف محقق . وليت شعري ماذا يكون موقفنا من القرآن ؛ إن لم نعترض على هذا الزعم ولم نشمر لجده وإنكاره ؟ هل يكون إلا إهمالاً له وهجراناً ، وتمسكاً بما يضاده علي طول الخط ! ! سمعنا الله تعالى يقول : (كمل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر ، فلما كفر ، قال : إني بريء منك ، إني أخاف الله رب العالمين . فكان عاقبتها أنها في النار خالدین فيها ، وذلك جزاء الظالمين) (١) . ويقول أيضاً : (وقال الشيطان لما قضي الأمر : إن الله وعدكم وعد الحق ، ووعدتكم فأخلفتكم ، وما كان لي عليكم من سلطان ، إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ، ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي) (٢) الآية . وهي صريحة في أن هذه الخطبة لإبليس تكون في جهنم ؛ لأن الإصرار لا يكون إلا لمن كان تحت العذاب لحاجته إليه . قيل لي : إنه يمكن الاحتجاج لهذا القول بقوله تعالى خطاباً لإبليس : (وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين) (٣) حيث غيّا اللعنة (٤) بيوم الدين ، فيمكن أن ينجو بعده . فقلت : هذا المفهوم معطلّ بالآيتين السابقتين المفيدتين أنه في النار ، وأنه خالد فيها ، وقد حكم الله تعالى عليه في آيات كثيرة بالكفر ، والكفرة خالدون في النار أبداً .

(١) الحشر : ١٥ - ١٦ .

(٢) إبراهيم : ٢٢ .

(٣) سورة ص : ٧٨ .

(٤) غيّا اللعنة : جعل لها غاية .

وعلى هذا ، فقد قطعت بأن هذا القول كفر بواح ، عندي من الله فيه برهان ، وانضاف إليه علمي بعدمدة ، بأن الإمام الشعرازي رحمه الله تعالى ، نص على أن هذا القول مكذوب على الشيخ محيي الدين والشيخ عبد الكريم الجيلي ، فالحمد لله على ذلك ؛ إذ تبينت أن ما هو كفر ، منحول لهما ممدوس في كتبها ، وهما بريئان منه .

الثاني : في الرد على من يقول بأن المطيع والعاصي سواء أمام الحق عز وجل .

أخرج بعض المعاصرين كتاباً في التصوف الاسلامي ، ذكر فيه نقولاً عجبية عن بعض كتب القوم منها : أن الشيخ الجيلي قضى في كتابه « الانسان الكامل » بأن المطيع والعاصي سواء أمام الحق عز شأنه ، لإطاعة كل منهم له سبحانه في صفة من صفاته واسم من أسمائه ، فالأول أطاعه في اسمه الهادي ، والثاني أطاعه في اسمه المضل ؛ فكلهما إذا مطيع ، ومقرّب ، ومثاب على طاعته .

قرأت القرآن فوجدت الله تعالى يقول : (أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض ، أم نجعل المتقين كالفجار) ^(١) وسمعت يقول : (أم حسب الذين اجترحوا السيئات ، أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات ، سواء بحياهم ومماتهم سواء ما يحكمون) ^(٢) ويقول أيضاً : (أفجعل المسلمين كالمجرمين ، ما لكم كيف تحكمون) ^(٣)

(١) سورة ص : ٢٨ .

(٢) الجاثية : ٢١ .

(٣) القلم : ٣٥ .

هذا قول الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ،
ينفي المساواة بين أهل السعادة وأهل الشقاوة ، فكيف يقدم مؤمن على
القول بخلافه ، وهل يكون سيدنا محمد رسول الله وحيه صلى الله تعالى
عليه وسلم كأبي جهل لعنه الله تعالى ؟ ! اللهم لا ، وإن هذا الزعم
باطل وكذب ظاهر لا يقبل التأويل ، وإن أريد بأنها سواء من حيث
إن كلاً منها نفذت فيه إرادة الله ، فهو مظهر لتحقيقها ، فهذا حق ،
ولكنه لا يلزم منه التساوي في إطلاق الطاعة عليها ؛ لأن الإرادة غير
الأمر ، وقد يريد الله من عبده ما يأمره بوضده ، إذ ليست الإرادة
الإلهية إلا التخصيص للشيء ببعض ما يجوز عليه ، لا الأمر به ولا الرضى
عن فاعله لتنزه الله تعالى عن الأفاعيل النفسانية ، والميول الطبيعية ،
وعلى هذا فالمطيع مثاب والعاصي معاقب .

الثالث: في الرد على من يقول بأن أهل النار يتلذذون فيها .
عزاهذا المعاصر إلى الشيخ الجليل أيضاً ، أنه ذكر في كتابه
« الانسان الكامل » أن أهل النار يتلذذون فيها ، كما يتلذذ أهل الجنة
بمجنّتهم . وهذا بناء منه على النظرية السابقة من أن المطيع والعاصي
سواء أمام الحق عز شأنه .

عرضت هذه النقطة على القرآن الكريم ، فوجدته يقضي بخلافها ،
إذ يقول عز شأنه : (كلما خبت زدناهم سعيراً) ^(١) . ويقول : (في
العذاب هم خالدون) ^(٢) ويقول : (كلما نضجت جلودهم بدلناهم

(١) الإسراء : ٩٧ .

(٢) المائدة : ٨٠ .

جلوداً غيرها ، ليدوقوا العذاب) (١) . والآيات في هذا المعنى كثيرة جداً ، فمن قال بخلافها فقد عطلها وكفر بها ، وكنت رأيت هذا المعنى في كتاب « الفصوص » وشرحه ، فقد قرر الماتن وتبعه الشارح الجزائري ، أن العذاب ينقلب على أهل عذوبة في النهاية ؛ فهم فيه متلذذون . وهذا القرآن ناطق بعكس ذلك تماماً ، إذ هو مصرح بالخلود في العذاب لا في العذوبة . وأين هو منها ، الشريعة تقضي على قائل هذا القول بالكفر ، لأنه لم يؤمن بآيات الله تعالى الناطقة بالوعيد على أتمه ، وليس للتأويل فيه مجال ، والتأويل الذي ينبو عنه النظم الكريم مردود على صاحبه .

الرد على من يقول بخروج الكافرين من النار .

ويقرب من هذا الزعم الباطل ، ما يلجج به بعضهم من خروج الكافرين من النار ، وقد أشبع التقي السبكي - وهو من أنصار الصوفية - القول في هذه المسألة (الاعتبار ببقاء الجنة والنار) رد فيها على من قال بخروجهم منها ، أو بفنائها ، وقرر أنها عقيدة كفرية ؛ لمصادمتها الآيات القرآنية ، وخرقها الإجماع المنعقد على خلود الكفرة فيها ، وعدد الآيات في الخلود لأهل الجنة ، وأهل النار فإذا هي اثنتان وثلاثون آية ، ولعمري الحق إن واحدة منها كافية لحصول اليقين عند المؤمن الموقن .

إني محدثكم بقصة قصيرة وقعت لي ، أثلجت صدري وملائتني

مروراً ، وهي محض كرامة لسيدي الشيخ محمد سليم خلف^(١) قدس سره .

تلك أنه حدثني بعض الناس ، أنه كان يقول في قوله تعالى عن أهل النار : (لا بين فيها أحقاباً)^(٢) : إن هذه الأحقاب تنقضي . وهذا حق ولكن يخلفها غيرها إلى ما لا نهاية له ، ولكنه رحمه الله ، كان يقف عند قوله : تنقضي ، ولا أكتممكم أن هذا النبأ بدأ ينكت في صدري ، إذ القول بالانقضاء دون خلف معارض للآيات المتعلقة بالخلود ، وقد حصل لي من ذلك كرب عظيم كتمته عنكم ، لحرصي على صحة الاعتقاد في جنبه ، إذ به نفعي إن شاء الله تعالى . ولكن هنا يظهر سر الشيخ قدس سره ، فقد كان الحاج عبد الحميد الرمضان في حماة ، فزارني في غرفتي بالجامع الجديد ، وهو - حفظه الله تعالى - مولع بالشيخ - رضي الله تعالى عنه ، ومشغوف به ، وبحب لذكر كراماته ، فألهمه الله تعالى ، أن يحكي لي حكاية عنه ، فيها نفي لما شوش عليّ خاطري من ذلك الخبر . والحكاية تتلخص : في أنه ذكر أن رجلاً تهب من جهنم ، فتخرج من فيها ، وقد سمع رجل من أهل دمشق هذه الكلمة عن الشيخ ، فجاء إلى حمص ليدأله عن صحة تكلمه بها ، ولما أت حضر حصة الدرس عنده ، كوشف الشيخ قدس سره بما في نفس الرجل ، فقال بعد انتهاء الحصة : بلغني أن رجلاً تهب من جهنم ، فتخرج من فيها من المؤمنين ،

(١) هو والد الشيخ أبي النصر شيخ سيدي ، قدست أكرام جميعاً ، وستأتي ترجمته في الباب الرابع من هذا الكتاب .

(٢) النبأ : ٢٣ .

فكان هذا القول قاطعاً لشبهة الرجل في أمر الشيخ قدس سره ، كما أنه قاطع لشبتي ، ولا تسألوا عن فرحي وقتئذ ، فقد كان عظيماً جداً . ويشهد الله أنه لم يتقدم مني ذكر للإشكال أمام الحاج عبد الحميد الرضوان ، وإنما هو إلهام من الله تعالى بسر الشيخ قدس سره .

الرابع : في الرد على من يقوله بنجاة فرعون .

القول بنجاة فرعون المنسوب إلى الشيخ محيي الدين ، تعلقاً بقوله تعالى - حكاية عنه حين عين الهلاك وأدركه الغرق - : (آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل ، وأنا من المسلمين)^(١) قال القائلون : ولم يزد الله تعالى في ذلك المقام على أن عاتبه وبكته بقوله : (آلاآ وقد عصيت قبل ، وكنت من المفسدين)^(٢) الآيات . قالوا ذلك غافلين عن قوله تعالى : (فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا ، سنة الله التي قد خلت في عباده ، وخسر هنالك الكافرون)^(٣) فإيمانه إيمان يأس غير مقبول .

ثم ماذا يضعون بقوله تعالى : (وما أمر فرعون برشيده ، يقدم قومه يوم القيامة ، فأوردهم النار وبئس المورود ، وأتبعوا في هذه لعنة ويوم القيامة بئس الرفد المرفود)^(٤) . أفقدمهم إلى النار ويوردهم إليها ثم يعود أدراجه إلى الجنة ، ما هذه المهزلة التي يتنزه عنها القرآن ! .

(١) يونس : ٩٠ .

(٢) يونس : ٩١ .

(٣) غافر : ٨٥ .

(٤) هود : ٩٩ .

ولئن قالوا : إن رجوعه للنكاية بهم ؛ حيث لم ينجهم منها مع أنهم عبوده ، قلنا لهم : إنهم إنما كفروا بسببه ، فهو رأسهم في الكفر وكبيرهم في الضلال ، فيتقدم أمامهم إلى النار . على أن الضمير في قوله : (وأتبعوا في هذه لعنة ويوم القيامة) يعود عليهم وعليه ؛ لئلا يلزم تفكيك النظم بتشتيت الضمائر ، والقرآن الفصيح لا يقبل هذا الضعف في التركيب . وماذا يصنعون بقوله تعالى : (فأخذه الله نكال الآخرة والأولى)^(١) ! . أليست الأولى هي الدنيا ، والآخرة هي يوم القيامة وما بعده .

على أن هناك آيات أخرى قاطعة لشبهتهم ، وليس بعدها مجال لقائل ولا اجتهاد لمجتهد ، إذا الاجتهاد في موارد النصوص ممنوع ، وليس لله مع أحد كلام فيما قضاه . قال الله تعالى في سورة القصص : (واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق ، وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون . فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم ، فانظر كيف كانت عاقبة الظالمين . وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ، ويوم القيامة لا ينصرون . وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ، ويوم القيامة هم من المقبوحين)^(٢) . فإذا كان الله تعالى نفى عنهم النصر يوم القيامة ، ولعنهم في الدنيا وفي الآخرة ، وأخبر أنهم من المقبوحين فيها . إذا كان ذلك كذلك ، فهل بقي شك في كفر فرعون وجنوده ، لا هم وحدهم فقط ؛ لأن الضمائر في الآيات له وجنوده .

(١) النازعات : ٢٥ .

(٢) القصص : ٣٩ - ٤٢ .

إذا فالقول بنجاة فرعون كفر صريح ، وعن هذا أقسم الشيخ الشعراي في كتابه «اليواقيت والجواهر» بأن هذا القول مدسوس على الشيخ محي الدين ، ومنحول له ، ولم يقل به ، وهذه هي العقيدة الصحيحة المنجية عند الله تعالى . ورضي الله تعالى عن الشعراي الذي دفع عن القوم ، وبين أن كثيراً مما هو في كتبهم دسه الوضاعون فيها ، وليس للقوم علم به ، حتى إنه حكم بأن كل ما في الفتوحات والفصوص ، مما يخالف مذهب أهل السنة ، مدسوس على الشيخ . ومثله ما هو منسوب إلى الجلي من القول بتساوي المطيع والعاصي ، وبانقلاب العذاب عنوبة ، كل هذا كذبه الشعراي ، ونقل عن الشيخ الأكبر القول الصريح بخلود الكفرة في العذاب أبداً دون تخفيف ، كما قال الله تعالى : (فلا يخفف عنهم العذاب ، ولا هم ينصرون)^(١) . ويكفي الاعتماد على ما ذكره أيضاً من أن أحد العلماء اليمانيين ، أخبره أن النسخة الأصلية للفتوحات وهي في (قونية) خالية من كل هذه الكفريات ، وهي التي بخط الشيخ محي الدين ، وغيرها من النسخ دخلها التحريف والتبديل . في مصر الآن رجل من أجلاء أهل السنة ، يشايع الشعراي في قوله : إن كل ما يخالف الشريعة مدسوس على القوم ، ويكفيني الاعتماد على ما ذكره الشعراي ، فهو عالم بطريق القوم وخبير به ، وتصوفه يتمشى مع العلم دون خروج عليه ، لا أستطيع غير هذا من حيث إني آمنت بالقرآن ، ولا يسعني أن أسلم ما يضاذه ، إذ هو جمع بين الضدين ، وهو مستحيل قطعاً ، والله تعالى سائلني عن عقيدتي ، فم أجيبه

لو جمعت إلى الايمان بكتابه التسليم بهذه الكفريات ، التي أ كفر إن لم أحكم بكفر قائلها ؟ لأن الله حكم بكفر الكافرين ، ومن زعمهم مؤمنين فقد كفر ، والفقهاء مقررون أن الشك في كفر الكافرين كفر . على أن القوم ، قرروا بأن طريقهم محكم البناء ، على أسس الكتاب والسنة ، وأن كل حقيقة خالفت الشريعة فهي زندقة ، وهامو مولانا خالد قدس سره ، كان يوصي المريدين في مرض موته بالتزام عقيدة الأشعري ، إذ هي المعتمدة عند أهل السنة . إذاً : فلم أتعد الحدود ولم أتجانب لإثم ، إذا أبطلت ما أبطل القوم أنفسهم . أما التسليم للسادات فيما يقولونه عن المقامات ، والأحوال ، والواردات ، والأمور الغيبية والكشفية ، مما لاتعترضه الشريعة ، فأنا مؤمن به كل الايمان ، وحاشاهم أن يكذبوا في دعاويهم . أما تلك الطامات فهم يريثون منها ، وإن وجدت في كتبهم ، فهي من غيرهم ، على هذا ألقى الله تعالى .

الخامس : في الرد على من قال بوحدة الوجود .

وقد فسر لها بعض الناس عنهم : بأن هذا الكون ، بحيواناته ، وجماداته ، مجموعة إلهية ، والله تعالى هو روح لها ، وهذا كفر قطعاً ، إذ هو الحلول الذي يتبرأ منه المؤمنون ، ويقضون بأنه كفر ، وأهل التصوف في عصرنا ، يفسرون وحدة الوجود بوحدة الشهود^(١) ، وهذا المعنى لا بأس به ، أما على التفسير الأول فهو الممنوع . أما المنظومات والمنشورات التي رأيتها في الحلول ، فشيء كثير ، وإن كان الكثير من الصوفية يحيلها على معنى الفناء وما إليه . على أن

(١) أي أن الصوفي يغيب عن العالم فلا يشهد إلا الله سبحانه .

هناك جملة منسوبة إلى صاحب كتاب «الانسان الكامل» محصلها: أن
النصارى إنما كفروا لحصرهم الإشراف في المسيح وأمه عليها السلام، فقد
كفروا بهذا الحصر، وخرجوا عن زمرة الموحدين القائمين بالشيوع،
وهذا القول كفر مهما قلبت فيه وجوه التأويل، ولا مخلص إلا بالحكم
بأن هذه الجملة مدسوسة عليه أيضاً، لأنه عارف لا يقول إلا ما يلائم
والشريعة المطهرة، كيف وهو في كثير من مواقفه في كتابه يتكلم
بالحق المبين الذي لا شائبة فيه ولا غبار عليه، وإذا كان النصارى
كفروا بدعواهم الحلول في اثنين أو ثلاثة، أفلا يكون القول بالحلول
في الجميع كفراً؟! .

هذا - ياسيدي - ما يحولك في نفسي، حدثكم به، لئلا أخفي عليكم
شيئاً من شأني . وإني - والله - لولا أهران بها بقاء نسبتي إلى الطريق،
ولولاها لم يعد لي فيه أدنى ارتباط إلا من حيث الذكر المأمور به في
كتاب الله تعالى، لأن هذه المكفريات لا يسكت عنها .

الأمر الأول : ما رأيته في كتاب «الإحياء» وكتاب «عوارف
المعارف» و«الرسالة القشيرية» وكلمات ساداتنا النقشبندية والرفاعية،
وكلام سيدي الشيخ عبد القادر الكيلاني، وسيدي الشيخ أحمد الرفاعي
وأمثالهما وكتب الشعرائي، كل هؤلاء أنوا بالكثير الطيب الذي به
بعث الله تعالى سيدنا محمداً ﷺ، فهم قد أظهروا التصوف بثوب شرعي
جميل، لا يعترض عليه إلا كل أحمق ناقص العقل، قاصر النظر، قليل
الفهم للدين على حقيقته .

الأمر الثاني : محبتي إياكم، فوجهكم الكريم الذي يمتني

ومجيني ؛ به تعلقي بالطريق ونسبتي إليه ، ووالله إني لم أهو في الناس مثلكم بعد الجنب الأعظم وصحابته الميامين الغر ، رضي الله تعالى عنهم وصلى الله تعالى على سيدهم ، ومهما كانت في مصر شيوخ ، فأين هم منكم ؟ ماء ولا كصداء ، ومرعى ولا كالسعدان^(١) . وأين النجوم من الشمس المشرقة ؟ إني معترف بأني ذو تقصير في العمل ، بل أ كاد أكون خلياً منه ، ولكني بنعمة الله ، ثم بنظركم الشريف قائم على حماية العقيدة التي هي أساس الفلاح ، ولا يمكنني بحال من الأحوال ، أن أسوغ ما ينقضها ولو من وجه بعيد .

انتهى كلامه - رحمه الله تعالى - ، وقد ختم رسالته بعد التحيات بقصيدة يشكو فيها إلى الله همه وغرته ، ويتوسل بالنبي ﷺ ، سننشرها ، إن شاء الله في مكان آخر من الكتاب ، وكان تاريخ هذه الرسالة الكريمة يوم الجمعة لست بقين من صفر سنة ١٣٥٨ هـ .

المجاهدات والمكابدات

ولا بد لي قبل أن أختم بحث الذكر ، من أن أنبه الذاكرين إلى ضرورة مجاهدة أنفسهم ، وتنقية قلوبهم قبل تحليتها بالذكر . والفلاح

(١) صداء : بئر لم يكن عندهم ماء أعذب منها . السعدان : نبت وهو من أفضل مرعى الإبل . وفي مجمع الأمثال السعدان : أخثر العشب لبناً ، وإذا خثر لبن الراعية ، كان أفضل ما يكون وأطيب وأدم . يضرب مثلاً للشيء يفضل على أقرانه وأشكاله .

منوط بتزكية النفس ، قال تعالى : (قد أفلح من زكاهها ، وقد خاب من دساها)^(١) . وإلى هذا أشار الشيخ بهاء الدين النقشبندي - رحمه الله تعالى - بقوله : « لا يتمكن من الوصول إلى حب أهل الله إلا من خرج عن نفسه . . . »^(٢) . وفصل سبب ذلك الإمام السهرندي الرباني - رحمه الله تعالى - ، فقال : « اعلم أن أصل كل بلاء ، إنما يكون من الابتلاء بالنفس ، ومتى تخلص الإنسان منها ، تخلص من الابتلاء بما سواه تعالى ، فإن كان يعبد الأصنام فإنما يعبد نفسه في الحقيقة : (أرايت الذي اتخذ إلهه هواه)^(٣) . خل نفسك وتعال . وكما أن الخروج عن النفس والمرور عنها فرض ؛ كذلك الدخول إليها والغوص فيها لازم ، فإن الوجدان إنما يكون فيها ولا يكون في الخارج عنها ، السير الآفاقي بعدد في بعد ، والسير الأنفسي قرب في قرب ، فإن كان هناك شهود ففي النفس ، أو معرفة فكذلك ، أو حيرة فكذلك ، وليس في خارج النفس موضع قدم ، فخالي الذهن يفهم الحلول والاتحاد من هنا ، ويقع في ورطة الضلال إذ الحلول والاتحاد كفر »^(٤) .

وقال رضي الله تعالى عنه أيضاً : « لا يقبلون هناك إلا سلامة القلب ، وخلص الروح ، ونحن هنا دائماً في تحصيل أسباب ابتلائها ،

-
- (١) الشمس : ١٠ .
 - (٢) الأنوار القدسية .
 - (٣) الفرقان : ٤٣ .
 - (٤) الأنوار القدسية .

هيات هيئات : (وما ظلمهم الله ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) (١) .. إهـ (٣) .
وقديين سيدي - رحمه الله تعالى - ضرورة تزكية النفس بقوله :
« تزكية النفس واجبة على كل مكلف ، وإن الفلاح منوط بهذه
التزكية ، فتطهير النفوس من العيوب الاختيارية الظاهرة والباطنة
فرض ، وجهاها حتم ، حتى يسلس قيادها ، ويلين جماحها ، وتستقيم على أمر
الله سبحانه وتعالى . وطريق التزكية هو الأخذ بالأوامر ، واجتناب
المناهي ، طبق ما نطق به الكتاب الكريم ، ومادلت عليه السنة الشريفة ،
ولا بد من اجتياز عقبات ، وذوق مرارات ، واحتمال مكابدة ، لأن
جهاد النفس أشد جهاد ، فهي كلما ظن صاحبها بها خيراً ، إذا بها تنفلت
انفلاتاً ، وتشرذش وداً ، يتبين منها أنها ما تزال في الطريق ، وأنها لماتصل
إلى الغاية بعدد . فاحذر الحذر ، والانتباه الانتباه ، والاهتمام لها حتى
تزكو ، شأن العارفين بدخائلها والمشرفين على دوائها ، بأعين نقادة
بصيرة . ولا بد من علم لمجاهد نفسه بطريق التزكية ، وقد كشف عنها
علماء التربية النفسية العارفون بالله ، وأجمع كتاب في هذا العلم هو كتاب
« إحياء علوم الدين » للإمام الغزالي حجة الاسلام - رحمه الله تعالى - ،
إن المرء إذا قرأه مطبقاً لما رسم فيه - إلا مواضع قليلة استثنائها العلماء
منه - كان مفلحاً ، وكان سالكاً سبيل التصفية المفضية إلى أفضل
النتائج .. إهـ (٣) .

(١) النمل : ٣٣ .

(٢) الأنوار القدسية .

(٣) من الرسائل المحفوظة .

ثانياً - الشيخ المرشد

وهو الدعامة الثانية التي يقوم عليها صرح التصوف^(١) ، ولا بد لكل من أراد سلوك الطريق من شيخ يبدله عليه ويرشده إليه ، يضع له العلامات وينبئه إلى المزالق والمخاطر ، يبين له الدسم ويبعده عن السم ، يستمع إلى أقواله ويتلقى من أحواله .

قال سيدي - رحمه الله تعالى - بين أهمية الشيخ المرشد :
« ومن حيث إن الانسان جاهل إلا مَنْ علمه الله تعالى ، كان الشيخ المرشد العارف بالله تعالى ، والبصير بطريق الوصول إليه ، أصلاً في الطريق لا يهمل ، ولا يتغاضى عنه كدليل مرافق ، ورفيق موافق ، والله سبحانه وتعالى هو الهادي إلى سواء السبيل . وليس للشيخ إلا الدلالة بالقول والفعل ، وبالحال الصالحة التي تسري بالتوجه السليم من روحه إلى روح المريد السالك في الطريق ، ولا نكران لسريان الحال ، فإننا نرى الحماسة والحزن والفرح ، نرى كل هذه وأمثالها ، تسري من نفس إلى نفس ومن قلب إلى قلب . . . إله »^(٢) .

وقال أيضاً :

« وليست الطريقة إلا العمل بالاسلام على قدم الجود والصبر ، وأركانها هي : الذكر ، والبعد عن الناس قدر الإمكان ، والصمت إلا

(١) بينا أن الدعامة الأولى هي الذكر .

(٢) من الرسائل المحفوظة .

عن خير ، وعدم الإمعان في الشبع ، وقيام شيء من الليل ، وصحبة الشيخ المرشد الكامل ، جسداً وروحاً ، وإن افرقت الأبدان فالصحبة الروحية قائمة . . إ هـ . (١) .

وكتب - رحمه الله تعالى - إلى بعض تلاميذه ، يبين علاقته الروحية به رغم بعده عنه :

« الأرواح يحاضر بعضها بعضاً ، وتتجاذب على القرب والبعد جميعاً ، بل قد يكون البعد أمتع ، وعن الانحراف أمتع ، فإن الشوق حارس الأفئدة من التحول ، وباعثها على التعلق ، فيكون التأخي في الله قوياً سويّاً ومجيداً ومديداً معاً . . إ هـ . (٢) .

وفي بيان فوائد صحبة المرشد الكامل ، قال رحمه الله تعالى :

« صحبة المرشد الكامل - وهو أندر من الكبريت الأحمر في هذا الزمان - مصححة للتصورات والأعمال ، ومطهرة للقلب من الرعونات والأوضار ، وملحقة للقاصر بالكامل ، حتى يدرج في دائرة الولاية . . إ هـ .

ضرورة صحبة المرشد .

وفي نصيحه إلى الشباب ، بين ضرورة صحبة المرشد ، فقال :

« السير بدون مرشد عالم ، قد لا يفضي إلى الغاية المرجوة ، فلا بد لكم منه ، وكما لا يكون المرء طيباً بمطالعة الكتب فقط ، دون أن يدخل دور الطب الرسمية ، ثم بعد النجاح في الامتحانات ، يعمل في المشافي

(١) من الرسائل المحفوظة .

(٢) من الرسائل المحفوظة .

تحت نظر الأطباء ؛ كما لا يكون الطبيب طبيباً إلا بهذا ، لا يكون
السير إلى الله تعالى مضمون النتائج ؛ إلا بصحبة عالم تقى نقي ورع ،
قد تربى بصحبة غيره . وغيره بغيره ، وهكذا إلى أن ينتهي الأمر إلى
السيد الأعظم ، حضرة سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله
وسلم . . . هـ » .

تعريف المرشد الكامل .

وفي تعريف المرشد الكامل قال - رحمه الله - :
والمرشد الكامل ، هو العالم العامل ، ذو الحال الصالحة القوية ،
التي إذا توجه بها إلى مريده ، نقله من حال إلى حال ، ورقى به من
مقام ، إلى مقام ، مع الاستعانة بالصبر والصلاة والذكر والفكر ،
والجاهدة والمكابدة . . . هـ »

شروط المرشد .

١ - الاجازة بالارشاد : بين - رحمه الله - هذا الشرط في
قوله : « وهذا المرشد ، شرطه أن يكون تربى على يد مرشد مثله ، حتى
نضج علماً وحالاً وكلاً وقوة إفاضة ، فأجازته بالإرشاد ، وهكذا حتى
تتصل الطريق بإجازة شيخ عن شيخ إلى حضرة سيدنا رسول الله صلى
الله تعالى عليه وآله وسلم . ولا بد لهذا المرشد ، من أن يكون قد
اجتاز العقبات ، وتخلص من العيوب عيباً فعلياً ، وارتقى مقاماً مقاماً ،
حتى قعد مقعد الكمال ، فهو بصير بما يعترى السالك وله من قوة
توجهه القلبي ما يدرأ به عنه الأخطار إن شاء الله تبارك وتعالى . من
ظفر بهذا المرشد ، فليشد يده عليه ، وليكن له سامعاً مطيعاً ، فإنه

الطبيب النفسي الذي تجب الرحلة إليه ، والجلوس بين يديه (١) .

٢ - العلم الواسع والعمل بالعلم : وفي رسالة أخرى ، تحدث - رحمه الله - أيضاً عن شروط الشيخ المرشد مؤكداً على هذا الشرط فقال : « وللشيخ المرشد الكامل في الطريقة شروط كثيرة ، أهمها ؛ أن يكون عالماً واسع العلم ؛ لئلا يميل في السير إلى غير الاستقامة ، فيميل المرید بيله ، فيكون ضالاً مضلاً ، ومن كان كذلك ، فهو بعيد عن الإرشاد كل البعد . والعلم الديني يعم علم العقائد ، وعلم الأحكام في العبادات والمعاملات ، وعلم أحوال القلب وأمراضه المعنوية ، والسبيل إلى تخليصه منها بمعالجته بالإفاضة الروحية الصحيحة والتوجه القلبي القوي . ويشترط مع علمه الجلم الغزير ، أن يكون عاملاً به ، فإن القدوة بالعامل أكثر منها بالعالم عند الجماهير ، وعند المتقدمين من المريدين أيضاً ، وليكن عمله متجلياً طبق الشريعة ، فلا يأذن للحال التي تغشاه ومريديه بأن تتأمر عليه وعليهم إن كانت مخالفة لقواعد الشريعة ، أو لركائز الأعمال . ويشترط فيه أن يكون تربى على يد مرشد كامل ، قد تربى على يد مرشد كامل ، وهكذا إلى حضرة سيدنا محمد رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم تسليماً ، وهو كما نوقن ، سيد المرسلين ، وخاتم النبيين ، ومرشد المرشدين ، ويشترط مع هذه التربية ، أن يكون مأذوناً له بالإرشاد ، ومجازاً إجازة صحيحة من شيخه الذي رباه ، حتى تكمل على يده . . . إله . (٢) » .

(١) من الرسائل المحفوظة .

(٢) من الرسائل المحفوظة .

٣ - الترفع عن مال المرید : وزاد في مكان آخر ، فقال - رحمه الله تعالى - : « ويتأكد عليه الترفع عن مال المرید ، فإن أكل الدنيا بالدين حرام ؛ إلا إذا كان إهداء عن طيب نفس ، وخلوص نية ، وبعد عن الاغترار . . . » (١) .

٤ - المرشد ليس معصوماً : وجمع كل هذا ، فالمرشد ليس معصوماً ، لأن العصمة لا تكون لغير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ومن هنا تكون صفة الشيخ المرشد شاقفة ، وقد بين - رحمه الله تعالى - هذا المعنى فقال :

« وإن صفة الشيخ المرشد ، قد تكون شاقفة لمن لم يرزق الاستسلام له ، وقد قص الله تعالى علينا من نبأ موسى والحضر على نبينا وعليهما الصلاة والسلام ، ما فيه إشارة إلى هذا . وليكن على بال المرید أن المرشد ليس نبياً معصوماً ، فقد يجري عليه ما يجري على غيره من القضاء والقدر ، لكنه سريع الأوبة ، وشيك التوبة ، وإنها لتغسل الحوبة .

وقد وقع بعض الشيوخ فيما صورته المخالفة ، وكان ذلك امتحاناً منه لمريديه ، فتغير بعضهم وثبت غيره ، فقال للذي ثبت : لم لم تتغير كما تغير أصحابك ؟ فقال : ما صحبتك على أنك معصوم ، ولكن صحبتك على أنك أعرف بطريق الله مني . . . » (٢) .

(١) من الرسائل المحفوظة .

(٢) من الرسائل المحفوظة .

ولعل مولانا خالداً - رحمه الله تعالى - قصد إلى هذا المعنى بقوله : « وكما يجب التحرز عن إنكار الأولياء ، يجب التحرز عن الغلو في الاعتقاد بهم ، بحيث يؤدي إلى خلل في فرض العقيدة ، وهذا كثير من المفرطين في حسن الظن بالأولياء ، والشيطان ذو مكر ومكيدة ، وإذا أراد الله بأحد أن يأخذ حظاً من فيض شيخ ، يظهر عليه كمال ذلك الشيخ فوق ما هو فيه . . . إله » (١) .

٥ - الاخلاص : ولقد لحص السيد الكبير الشيخ أحمد الرفاعي - رحمه الله تعالى - أهم صفات الشيخ المرشد بقوله : « كم طيَّرت طقطقة النعال حول الرجال من رأس ! وكم أذهبت من دين ! والرجل من جمع الناس على الله لاعلى نفسه ، وجذبهم إلى الله لا إلى نفسه ، وبقي قلبه عنهم بمعزل ، وهو ذاك الفارس البطل . . . إله » (٢) .

المرشد الكامل نادر في هذا الزمن

ويرى سيدي - رحمه الله - أن المرشد الكامل الذي تتوافر فيه هذه الشروط ، قد ندر في هذا الزمان ، حتى إنه كما قال - رحمه الله تعالى - : « لأندر من الكبريت الأحمر . وفي هذه الحالة ينصح بتلقي الذكر عن شيخ سماه رحمه الله (شيخ بوكة) . قال رحمه الله تعالى : « المرشد : إما أن يكون كاملاً ، ذا مدد روحي عظيم ، ومعرفة قلبية بمراحل الطريقة ، وهذا من شرطه : العلم الواسع ، والتحقيق

(١) الأنوار القدسية .

(٢) البوارق .

العميق ، والمعرفة الغزيرة ، كشيخنا الشيخ محمد أبي النصر النقشبندي قدس سره . وإما أن يكون شيخ بركة ، يلقن الذكر كما تلقنه من ، شيخه ، وهذا يصار إليه حتى الظفر بالمرشد الكامل ؛ لكن من شرطه أيضاً ، أن يكون على علم واطلاع ، حتى لا يضل مريده ، فيعكس المشروع ، وينقلب الموضوع . أما الأمي الجاهل ، فلا يسوغ له مطلقاً دعوى الشيخوخة في الطريق ، لأن ما يفسده أكثر بكثير مما يصلحه . . . إله (١) .

الصلاة على النبي تقوم مقام المرشد عند فقده .

وينصح أيضاً عند فقد المرشد ، فيقول :

« وخير ما يحسن في هذا الزمان إن لم يكن ظفر بالمرشد الكامل ، هو الإكثار من الصلاة والسلام على سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله ؛ ثم هبة الثواب له وللمؤمنين عموماً . إن هذه الصلاة ذكر الله سبحانه صحيح ، مقبول ، تعيد على صاحبها بركات الرسول ﷺ ؛ فإنه عليه وآله الصلاة والسلام ما زال مربياً لمن يحبه من أمته حباً صادقاً امتثالاً ، وتزكيتاً للمؤمنين مستمرة إلى ما شاء الله ، إلى نهاية هذه الدنيا ، فإنه الكامل المكمّل ، وإن الأصفياء يحسون آثار هذه التربية تمام الإحساس ، وقد ذكر علماء التصفية : أن الصلاة عليه صلى الله تعالى عليه وآله وسلم موصلة إلى الله تعالى عند فقد المرشد الكامل . . . إله (٢) .

وبين - رحمه الله تعالى - لأحد تلامذته وهو ينصحه آثار الإكثار

(١) من الرسائل المحفوظة .

(٢) من الرسائل المحفوظة .

من الصلاة عليه صلى الله عليه وآله وسلم ، فقال : « إنها برد وسلام على القلب ، وإنها لتعود إلى محاسن الأخلاق ، ومكارم الشيم ، وتعود بأجل البركات . ولتكن بأعداد كثيرة ، وليتخذها مثلك ورداً إلى ورده ، ومراحاً إلى مراحه ، وأهد الثواب إلى حضرة المصلي عليه ، صلوات الله تعالى وتسليماته عليه وعلى آله . . إ هـ »^(١) .

الكَرَامَات

عرف الجرجاني في « التعريفات » الكرامة ، فقال : « هي ظهور أمر خارق للعادة من قبل شخص غير مقارن لدعوى النبوة ، فما لا يكون مقروناً بالآيمان والعمل الصالح يكون استدراجاً ، وما يكون مقروناً بدعوى النبوة يكون معجزة . . إ هـ »^(٢) .

ولقد ظهر لنا في بحث شروط المرشد، أن ظهور خوارق العادات على يديه ليس شرطاً من شروط الإرشاد، وإنما الشرط الأساسي تمسكه بالكتاب والسنة : علماً ، وعملاً . قال السيد أحمد الرفاعي - رحمه الله تعالى - : « وأشرف الكرامات ما زادك انسلاخاً من أنايتك ، وحجبتك عن رؤية نفسك . وأجل النعم ، ما قطعك عنك ، وذلك على ربك . . إ هـ »^(٣) .

(١) من الرسائل المحفوظة .

(٢) التعريفات .

(٣) بوارق الحقائق .

ومن كلمات القوم المشهورة بينهم : « الاستقامة عين الكرامة »
والكلمة السائدة عند أهل السير إلى الله تعالى : « لو رأيتم رجلاً أعطي
من الكرامة حتى تربع في الهواء ، فلا تغفروا به حتى تنظروا كيف
وقوفه عند حدود الله عز وجل . . إله » وأعظم علامات الولاية ،
الاستقامة على أمر الله سبحانه وتعالى ، والولي إذا خلق الله تعالى على
يديه بعض خوارق العادات بدون ميل منه ولا قصد ، لا يفرح بها
ولا ينظر إليها ، وإنما فرحه يكون بالمكرم لا بالكرامة .

وما أجل قول الشيخ الرواس - رحمه الله تعالى - في هذا
الموضوع : « ولزم عدم الالتفات إليها ؛ لكيلا يشتغل العبد بالكرامة
عن المكرم ، وإن تحولت النسبة فقليل كرامة فلان ، وقبلها الرجل
الذي تنسب إليه ، فقد أطعم نفسه السم القاتل ، ونادى عليه بالحرمان ،
وعلى هذا فعدم الالتفات للكرامة أولى ، وهذا مع إعظام شأن الكرامة
وشكر الله تعالى عليها شكراً عظيماً ؛ على أنها من عظام النعم ومن
أجل الاختصاص ، والله سبحانه وتعالى يختص برحمته من يشاء والله ذو
الفضل العظيم . . إله » (١) .

ولهذا كان سيدي - رحمه الله - يستر كراماته لأن نظره
الشريف ، كان مقصوراً على المكرم ، وليس للكرامة فيه نصيب ،
ولأنه كان يعلم أن أعظم تكريم من الله به عليه ؛ هو توفيقه له إلى
الاستقامة الكاملة على نهجه وشرعه ، وسنة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم ،

(١) بوارق الحقائق .

استقامة أجمع عليها أعداؤه فضلاً عن أحبابه وتلاميذه ، ولقد مكن الله تعالى له في القلوب تمكيناً لم يحتاج معه إلى إظهار خوارق العادات ، كما يفعله بعض الشيوخ لتقوية اعتقاد المريدين بهم . ورغم شدة تستوره ، فإن بعض كراماته ظهرت ، وفاحت وانتشرت انتشار الطيب من حامله . وأعظمها انتشاراً ، هذه التي عرفها القاصي والداني والقريب والبعيد ، وأعني بها شفاء الله تعالى للأمراض ببركة دعائه ، أو ببركة الحُجُب التي كان يكتبها بيده الشريفة ، وإن في حماة لكثيراً من الذين ينعمون بالصحة والعافية من الله تعالى ؛ ببركة حجاب يحملونه كتبته اليد الطيبة المباركة ، وإن فيهم من طوّف الأرض بحشاً عن الشفاء حتى وصل إلى أقاصي أوربا، فلم يخلقه الله تعالى ، حتى باركته اليد الطاهرة ، وتوجه إلى الله لشفاؤه القلب الكبير .

الطريق

وبعد هذه الجولة في معية سيدي رحمة الله تعالى عليه ، في رحاب التصوف ، وفي بيان حقائقه ودخائله ، أعود معه — رحمه الله — ليجدنا عن الطريق الذي سلكه ، وشيخه ومرشده الذي سلك على يديه . ولنستمع إليه رحمه الله تعالى — يقول :

« إني منتسب إلى السادة الصوفية ، على أصول الطريقة النقشبندية العلية ، التي تلقنتها من أستاذي العارف بالله تعالى ، سيدي الشيخ محمد أبي النصر الحمصي ، المرشد الشهير والعالم الكبير ، الذي كان يعلن براءته

من كل من يخالف السنة الشريفة ، وإني أسألكم بمن يتلقونها مني على صراط
 الشريعة الإسلامية ، فلا أسمح ببدعة تدخل عليهم ؛ لا في الاعتقاد ولا في
 العمل ، وليست الطريقة إلا العمل بالاسلام على قدم الجد والصبر . . . اهـ» (١)
 وقال - رحمه الله تعالى - أيضاً في جواب سائل : « المرشد الكامل في
 هذا الزمان قد ندر ، حتى إنه لأندر من الكبريت الأحمر ، وقد
 أظفروني الله به - والحمد لله تعالى - فتلقيت عنه ، وهو سيدي الشيخ محمد
 أبو النصر النقشبندي الحضي - رحمه الله تعالى ، وقد كان قبل وفاته
 يتردد إلى مدينة حلب لتربية مريديه ، ولا يزال أتباعه إلى الآن متوافرين
 فيها ، يرأسهم ولده سيدي الشيخ عبد الباسط ، وقيمون الحتم الشريف
 عقب صلاة الجمعة في جامع العثمانية قرب باب النصر ، فاجتمع به وتلق
 عنه . وطريقتنا النقشبندية ، خالية من البدع السيئة ؛ وأهلها يذكرون
 الله بقلوبهم ، وليس هناك حركات ، إلا حين تغلبهم الحال ، فيضطربون
 من قوة الواردات على قلوبهم ، وهذه الواردات لها حلاوتها وطلاوتها ،
 يقيضها الله عز وجل على قلوب الذاكرين له سبحانه . . . » (٢) .
 وفي رسالة من رسائله التي أرسلها من مصر إلى شيخه ومرشده ،
 قال - رحمه الله تعالى - :

« ما أنفس الطريقة العلية ، وما أعز جوهرها ، وأعلا قدرها ،
 إني عاشق لها ولأهلها ، ويريد الشياطين أن يقتالوني عنها ، والله هو
 المستعان عليهم . وما يزيدني تعلقاً بالطريق ، عظم الحب لكم ، وشدة

(١) من الرسائل المكتوبة .

(٢) من الرسائل المكتوبة .

التعلق بكم ، فأنتم في سويداء الفؤاد ، وحبّة القلب ، وعسى أن
ينفعني الله تعالى بهذا الوجد ، وهذا التعلق ؛ فيطهر سري وضميري ،
بتوجه قلبكم الطاهر ، وسرّكم العامر ، ونفسمك العاطر . . إهـ»^(١)

هذا التعلق العظيم لسيدي - رحمه الله تعالى - بالطريقة ، وشيخ
الطريقة - رحمه الله تعالى - لا يستطيع أن يعبر عنه أحد سوى سيدي
- رحمه الله تعالى - ، ومن يطالع رسائل مصر^(٢) ، يوقن أنه لا يوجد
في عصرنا هذا حب ، يوازي هذا الحب : رفعة وسمو وأطهر . وبما كتبه
في إحدى رسائله : « تذكرني الحال التي أنا عليها بقول مجنون ليلي :

أراني إذا صليتُ يمتمُ نحوها بوجهي ، ولو كان المصلّي ورائي
وما بي إشراك ، ولكن حبّها وفرط الهوى ، أعيا الطيب المداويا
وما أحراني أن أنسج على منواله ، فأنشد ، وأقول :

أصلي فتسري الروحُ فحوما كُثمُو وللقلب في ذاك الجنب و'لوعُ
وكيف بصّبُ أن يطبق تصبراً وقلب به يشكو الجوى ويذيع
أبسادتي إن المشوق - وحقّكم - له كبد حرّتي بكم وضلوعُ

وفي مكان آخر قال - رحمه الله تعالى - :

سرينا إليكم في الدجى وقلوبنا إلى ربكم يا سيدي تتشوقُ
وإن الذي يهوى لفي الشوق دائماً ونارُ الهوى في صادق الحب تحرقُ
ألا ليت شعري كيف حظي منكم وهل من رضى أم هل لديكم ترفقُ

(١) من رسائل مصر .

(٢) أرجو من الله تعالى أن يوفقي لنشرها في كتاب مستقل .

وهل لي أن أحظى بنيل وصالكم
 وحاشاكم أن تطردوني وعندكم
 أمولاي أنت الشمس يسطع نورها
 بكم هدي الخيران وانزاح غيبها
 وإن كان لم يبصر من هو أكمه
 فشمس الضحى قد لا يراها أخوال العمى
 أيا عاذلاً في جهنم وهو جاهل
 وعذل عذولي لا أريد سماعه
 أحباي أنتم في فؤادي وحبكم
 جاري في دمي والقلب فيكم معلق

وفي رسالة أخرى قدم قصيدته ، فقال - رحمه الله تعالى - :

« وقد تطلعت على مقامكم العالي الكريم بهذه الآيات ، فإن
 قبلتموها ففضل منكم ، وإن كان غير ذلك فلا ريبه - والله - في
 أنه عدل :

خذوني إلى حمص فإني متم
 لقد عظم الشوق المبرح بعدما
 ألا إن لي في حمص قلباً معذباً
 حنانكم يا أهل ودي فإني
 بكم هام قلبي وانثني اللوم راجعاً
 يورقني في الليل وجدي وفي الحشا
 وكيف مقام الصب بعد فراقكم
 وهيروا إلى أرضها الصب مغرم
 تراءى لنفسي منه صاب وعلقم
 فهل لي بها قلب يرق ويرحم
 ضعيف وأشواق تريد وتعظم
 ولاحي الذي يهوى أذل وأظلم
 لهيب وكيف النوم والنار تضرم
 وكيف سلو عنكم وتلوّم

أيا سيدي لي فيك أعظم حاجة
وأنت قديماً محسنٌ ومؤملٌ
أرجئك للداء الدويّ بأضلعي
وأنت طيب للقلوب وحسبكم
وإني لراج عطفة من جنابكم
وظني أني عطفكم لست أحرمُ
وعلى ضفاف النيل ، قال — رحمه الله — :

« خرجت ليلة إلى النيل بعد أن طالعت دروسي ، وكان القمر بدرًا
فتجلى لي جمال الكون ، وأنست بمشهده ، وكانت ذكراكم تتردد في
أعماق قلبي وقرارة نفسي ، فابتدأت بنظم أبيات ، أحبت أن أعرضها
عليكم ، وهي ثمرة التعلق العظيم بجنابكم ، وهي :

آه بما تلقى سويدا فؤادي من غرام محرق وقناد
قد ألح الوجد المبرح في القلب — لب وثاقت روحي لأهل ودادي
وتهافت مدنفاً من هواهم والهوى قد يذيب قلب الجماد
آه من مهجتي ومن حر قلبي زاد وجدي في يقظتي ورفادي
إن تراءوا للروح في النوم أصبحت وأنسي وفرحتي في ازدياد
أو أتااني منهم لطيف خطاب عظمت منهم لدي الأيادي
ذاك شأني شغلي بهم مستمر فهم منيتي وأقصى مرادي
يا أهيل الوفا تحية قلب قلبته نار الجوى والبعاد
إن هجرتم ففي حناياه بالك أو وصلت في الجوانح شادي
إيه يا حص باحبيبة روحي أنا لكرع من مياحك صادي

كم تركت العشاق ذهلاً حيارى
 فيك ترعى القلوب مؤتلفات
 يا سليم الجنان وابن سليم
 أنا - والله - في اشتياق إليكم
 يا إمامي ويا حيائي وروحي
 (إن يوماً أرى يحياك فيه
 أتراني أنساك يا نور عيني
 أنا ما حلت عن ولوعي فيكم
 ليت شعري متى تعود الليالي
 في حمى سيدي أجل ووليتي
 الإمام السامي الجنب المعلن
 لو تراه ترى سناً وسناء
 إن ذكرني إياه يحلو قلبي
 أسأل الله أن يقرب يوماً
 وصلاة الإله تشهدى دواماً

ولكم فتت من أكباد
 يا إمام الهدى وداعي الرشاد
 شيخ أهل الصلاح والعباد
 قد ملكتم أعنتي وقيادي
 إن حبيبك ما له من نفاذ
 لهو عيد من أجل الأعياد
 كيف أنسى ومهجتني في اتقاد
 وارتباطي بكم وحسن اعتقادي
 عامرات بالذكر والإنشاد
 في الحياة الدنيا ويوم التنادي
 زين جمع الأبدال والأوتاد
 وبهاء ورفعة في العماد
 ولساني ولو على الترداد
 فيه أحظى به بعيد انفرادي
 للنبي الكريم أشرف هادي

ويستبد بقلبه الحب والشوق فيكتب قائلاً :

« أي سيدي أي عارة تطاوعني على أن أملاها بما احس به
 نحوكم من إخلاص ووفاء ، ألا فلكم مني الإخلاص كله ، والوفاء كله ،
 والحب كله ، والهيام كله ، والله إنكم لأشهى إلى قلبي من الماء البارد
 على الظما ، وأحب إلى نفسي من إخوتي وأولادهم ؛ بل ومن أبي وأمي ،

بل نفسي لك فداء يا روح الروح، ويا قلب القلب ، ويا شيخي الاوحد،
ومرشي الفرد ، وقائدي إلى منازل أهل القرب . . إله^(١) .

فمن هو هذا الشيخ العظيم أبو النصر ، الذي احتل هذه المكانة في
قلب سيدي - رحمه الله تعالى - ؟ ولولم يكن شيخاً عظيماً ومرشداً كبيراً ،
لما احتل هذه المكانة العالية عند سيدي - رحمه الله تعالى - ، ولا يعرف
الفضل لأهله إلا ذوهه ، وما رأيت أحداً أعرف بالرجال من سيدي ،
رحمه الله تعالى .

وما هي الطريقة النقشبندية التي وصلت سيدي بمرشده الكبير ؟
ومن هم رجالها وأعلامها ؟ وكيف يكون السلوك بها ، والتشرف
بالانتساب إليها ؟

الطريقة النقشبندية

الطريقة ، كما في التعريفات ، « السيرة المختصة بالسالكين إلى
الله تعالى ، من قطع المنازل ، والترقي في المقامات . . إله^(٢) .

وسميت (نقشبندية)^(٣) نسبة إلى الشيخ محمد بهاء الدين نقشبند ،

(١) من رسائل مصر .

(٢) التعريفات الجرجانية .

(٣) النقش : صورة الطابع إذا طبع على شمع ونحوه ، وبند : ربطه
وبقاؤه من غير نحوه . . إله من الأنوار القدسية ، فالكلمة تشير إلى تأثير
الذكر في القلب وانطباعه به .

قدس سره ، وهو من أعظم شيوخ هذه الطريقة ، ولد في شهر المحرم سنة
 (٥٧١٧ هـ) في قصر العارفان - قرية من قرى بخارى على فرسخ منها -
 وعرفت الطريقة به ؛ لأنه قصر الذكر فيها على الذكر الحفي القلبي ، وقد
 كانوا قبله يجتمعون الذكر جهراً ، وإذا الفردوا ذكروا خفية ، فلما
 تلقى - رحمه الله تعالى - هذه الطريقة أقصر على الذكر الحفي أخذاً
 بالعزيمة . وتوفي - رحمه الله - سنة (٥٧٩١ هـ) ، وكانت تنسب قبله
 إلى الشيخ عبد الخالق العجوداني قدس سره ، ولذلك سميت بالعجودانية ،
 وسميت أيضاً بعد ذلك بالفاروقية والمجددية ، نسبة إلى الشيخ العظيم
 والمرشد الكبير مجد الألف الثاني ، السيد أحمد الفاروقي السرهندي قدس
 سره ، وعرفت في بلاد الشام أيضاً بالخالدية ، نسبة إلى مولانا خالد
 القشبندي دفين دمشق ، وهو الذي نشرها في هذه البلاد ، بعد أن رحل
 إلى بلاد الهند لتلقيها من الشيخ الأجل عبد الله الدهلوي - رحمه الله
 تعالى - . وتسمى هذه الطريقة (طريقة العلماء) لأن الشرط الأساسي
 في شيوخها أن يكونوا من العلماء الأعلام ، الذين جمعوا بين العلم والذكر ،
 وكان توجيههم لمريدتهم وتلاميذهم ، لا يقتصر على الذكر والطريق
 ومراحله وآدابه ، بل كانوا يوجهونهم إلى الدراسات العلمية للكتاب
 والسنة والفقه ، ولقد مر معنا أن مولانا خالداً - رحمه الله تعالى - ،
 كان يوصي أتباعه بقوله :

« واعلموا أن أحبكم إليّ ، أقلكم أتباعاً وعلاقة بأهل الدنيا ،
 وأخفكم مؤونة ، وأشغلكم بالفقه والحديث . . . »
 ونظراً لعناية شيوخ هذه الطريقة بالعلوم الشرعية والتزامهم

بأحكام الشرع ، خلت عن البدع والدخائل التي دخلت إلى النصف .
والشرع عندهم فوق الأحوال والواردات والمواجيد ، قال الإمام الرباني
- رحمه الله تعالى - :

« واعلم أن كل مسألة يكون فيها خلاف بين العلماء والصوفية ،
إذا تأملت ودقت النظر تجد الحق مع العلماء ؛ وسر ذلك أن
نظر العلماء بواسطة متابعة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، نافذ إلى
كالات النبوة وعلومها ، ونظر الصوفية مقصور على كالات الولاية
ومعارفها ، فتكون العلوم المأخوذة عن مشكاة النبوة أصوب قطعاً
من العلوم المأخوذة عن رتبة الولاية . . إله »^(١)

وتعتمد هذه الطريقة ذكر القلب ، وهو سر بين العبد وربّه ،
وبهذا تمتاز على بقية الطرق بأنها أدرجت البداية في النهاية . ففي بقية
الطرق يأمر الشيوخ مرديهم بذكر اللسان ، ثم ينقلونهم بعد ذلك إلى
ذكر القلب ، أما في هذه الطريقة ، فبدايتها ذكر القلب ، ونهايتها
الحضور الدائم مع الله سبحانه وتعالى ، فهم ظاهراً مع الخلق باطناً
مع الحق ، كما وصفهم الله تعالى بقوله : (رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع
عن ذكر الله)^(٢) .

قال الشيخ نثبند قدس الله سره العزيز :

« نحن أدرجنا النهاية في البداية . . إله »^(٣) ، وقيل لأبي يزيد

(١) الأنوار القدسية .

(٢) الآية ٣٧ من سورة النور .

(٣) الأنوار القدسية .

البسطامي : ما أعظم آيات العارف ؟ قال : « أن تراه يسواك لك ،
ويشاركك ويمازحك ، ويبايعك ، ويشاركك ، وقلبه معلق بالله ،
ليس له هم سواه . . إله »^(١) .

هذا ولذا ذكر عندهم آداب بينها سيدي - رحمه الله - بما يلي :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ، وعلى آله وصحبه .
الطريقة النقشبندية العلية ، تعتمد ذكر الله في القلب ، وموضع القلب
تحت الثدي الأيسر ، مائلاً إلى الورا قليلاً . ولهذا الذكر آداب هي :
١ - الاستغفار خمساً وعشرين مرة .

٢ - ثم الصلاة على النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم خمساً وعشرين
مرة بأي صيغة كانت .

٣ - قراءة الفاتحة الشريفة مرة ، ثم قراءة سورة الإخلاص ثلاثاً ،
ثم قراءة المعوذتين مرة مرة .

٤ - رابطة الموت باستحضار النزع للروح ورؤية ملك الموت
وأعوانه عليهم الصلاة والسلام ، ثم التغسيل والتكفين والصلاة عليه ، ثم
دفنه ، ثم سؤال الملكين الكريمين عليها الصلاة والسلام في القبر عن العقيدة
الايمانية ، وعن سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ، يستحضر
هذا كله مع الإجابة لهما .

(١) الأنوار القدسية .

٥ - يكون الذاكر مستقبلاً القبلة ، والأحسن أن يجلس على أليته اليسرى مخرجاً الرجل اليمنى من تحت الرجل اليسرى ، بعكس تورك الشافعي في صلاته ، وذا ليكون القلب منتهضاً ، وإن أنعته هذه الجلسة ، يجلس كيف شاء ليستريح .

٦ - الذكر الشريف يكون بإغماض العينين ، وإطباق الفم إطباقاً تاماً ، ووضع اليد اليمنى بالمسبحة على القلب تحت الثدي الأيسر ، وأن يقول القلب لا اللسان : (الله . الله . الله) إلى تمام المائة ، فإذا أتمها ، قال بلسانه : (إلهي أنت مقصودي ورضاك مطلوبني) ثم يعود إلى الذكر على هذا الترتيب ، حتى يتم خمسة آلاف مرة على الأقل ، ويزيد عليها قليلاً بلا عدد . ثم يقرأ الفاتحة الشريفة مرة ، والإخلاص ثلاثاً والمعوذتين مرة مرة ، ثم يسكن قليلاً يستمنح الله فضله وفيض نعمته وإيناسه للقلب .

ثم يهب الثواب للنبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ، وللمشايع والمريدين والمسلمين ، ويدوم على الذكر القلبي في كل أحيانه إذا استطاع ، وهذا الورد يستغرق نحواً من نصف ساعة زمنية تقريباً .

ومعنى كلمة (الله) أنه اسم للذات العلية المقدسة ، والله ليس كمثل شيء ، فلا يشبه الكائنات . ولا الكائنات تشبهه . (ولم يكن له كفواً أحد) .. إله^(١) .

(١) من الرسائل المحفوظة .

ولا يأمر شيخ هذه الطريقة مريدهم دخول الخلوات، والانصراف عن الأعمال ، والسهر المتواصل ، وترك الطعام ، وإهمال شؤون الآخرين ، فالخلوة عندهم في الخلوة . قال الشيخ عبيد الله أحرار - رحمه الله تعالى - : « إن الخلوة في الخلوة في هذه الطريقة أصل عظيم ، مبنى طريق الخواجكان ^(١) عليه ، وهو مأخوذ من قوله تعالى : (رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله) ونسبتهم محبوبة ، والمحجوب لا يكون إلا مستوراً إذا المحب غيور ، فينبغي أن تستر هذه النسبة بشغل من أشغال الدنيا .. إله ^(٢) .

وأكثر ما يأمر به المريد ، بمجاهدة نفسه ، والخروج عن أهوائه ونزواته ، حتى يكون القلب خالياً عن الكدورات والأغيار ، مستنيراً بنور الذكر ، وكلمتهم المشهورة في ذلك : **خل نفسك وتعال** . ونسبة المريد إلى شيخه في الطريقة نسبة محبوبة ، وهذا يفسر لنا التعلق العظيم لسيدي - رحمه الله تعالى - بشيخه ومرشده أبي النصر - رحمه الله تعالى - ، ويعلل الإمام الرباني - رحمه الله - سبب النسبة المحبوبة فيقول : « أيها الأخ ، رأس هذه الطريقة العلية ، ورئيس هذه السلسلة السنية ، الصديق الأكبر الذي هو بعد النبيين أفضل البشر رضي الله عنه ، وبهذا الاعتبار قال أكبر هذه الطريق : إن نسبتنا فوق جميع النسب .. إله ^(٣) ، ولا يخفى على أحد أن أبابكر الصديق رضي الله عنه ،

(١) الخواجة بتفخيم الخاء المفتوحة وترسم بالواو ولا تقرأ وإنما هي علامة التفخيم وهي فارسية ومعناها الشيخ وتجمع على خواجكان .
 (٢) الأنوار القدسية . (٣) المرجع نفسه .

كان على أعلى وأسمى علاقة حية مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

أَبُو النَّصْرِ

هو مرشد العلماء العاملين ، الشيخ محمد أبو النصر خلف الجندي الحمصي - رحمه الله تعالى - . ولد في مدينة حمص سنة ١٢٩٢ هـ ، في بيت والده الشيخ سليم خلف - رحمه الله تعالى - ، ظهرت عليه منذ صغره علامات الولاية ، وأمارات العناية الربانية ، فقد كان بعيداً عن عادات الأولاد في تضييع الوقت باللغو واللعب ، محباً للعلم والتعلم والعبادة ، ولا عجب في ذلك ؛ فقد نشأ في بيت التقى والعبادة ، مشمولاً برعاية والده الشيخ سليم خلف - رحمه الله تعالى - وقد تلقى عنه علم التوحيد والفقه والتصوف ، كما قرأ فقه الشافعية على الشيخ عبد الغني السعيد ، والشيخ محمد المحمود الأناسي ، والشيخ عبد الستار الأناسي ، والشيخ عبد القادر الشيخة .

وبعد أن تحقق الشيخ الوالد في ولده الأهلية الكاملة للإرشاد ، أجازته به وأذن له فيه ، فكان - رحمه الله تعالى - بحق مرشداً المرشدين ، ومربي السالكين ، وشيخ العلماء العاملين ، اعترف له بذلك الخاصة والعامة ، وأقر بفضل القريب والبعيد . حتى إن كثيراً من أهل العلم والفضل في مصر كتبوا له ، يرجون دعواته ، ويطلبون تبريكاته ، بما سمعوا من أوصافه وأخلاقه من سيدي - رحمه الله تعالى - عندما كان في مصر .

كان - رحمه الله - متواضعاً ، رحيماً بخلق الله تعالى ، لين القلب ، طيب النفس ، غزير الدمعة ، فمن تواضعه أنه كان يقدم الطعام لمريديه بنفسه ، ويطعمهم أحياناً بيده ، ويقوم على خدمتهم ، وبأكل فضل طعامهم ، ويلتصق أصابعهم . وكان يحمل العجين بنفسه إلى الفرن ، ثم يعود بالجبز إلى البيت ، وكان كثيراً ما يتنقل بين القرى ماشياً والدواب تقاد خلفه - رحمه الله تعالى - . ويحترم العلماء كثيراً ، ويقرب طلبه العلم الشرعي ، ويجلسهم في صدر مجلسه ، ويقول : هؤلاء عظمهم الله سبحانه فعلينا تعظيمهم .

ومن رحمته أنه ما دعا على أحد من أصحاب النفوس المريضة ، الذين كانوا يحقدون عليه ، ويشعرون الشوائع السيئة عنه ، وما كان رحمه الله يزيد - إذا وصل إليه شيء من أقوال أحد منهم - على قوله : ادعوا له ، ادعوا له .

يتحمل إساءات الناس ، وسوء أدب بعضهم بنفس راضية مطمئنة ، يتفقد مريديه ويزورهم في بيوتهم ، ويسافر من أجل رؤيتهم ، ولقد قدم إلى حماة مرات ومرات ، وصرح لسيدي - رحمه الله - في إحدى المرات أنه قدم من أجل رؤيته .

ومع ذلك ، فإن البعد ما كان يحجبه عن أتباعه وأحبابه ، فهو دائماً بروحه القوية معهم ، وكان كثيراً ما يقول : « البعد والقرب عندنا واحد » ولقد حدث سيدي - رحمه الله تعالى - أنه عندما كان في مصر كان تنتابه نوبات من الضيق النفسي الشديد ، فيكتب إليه - رحمه الله تعالى - ، فما يمضي وقت وصول الرسالة ، حتى يكشف الله ضيقه ،

ويعود إلى هدوءه وانسراح نفسه ، ولنستمع إلى سيدي - رحمه الله تعالى في مقالة له في «مجلة حضارة الاسلام» : « واثق كان مني نفع للأمة ، فهو في صحيفة شيخني مسجل ، إذ قد انتابني نائبة روحية أيام دراستي في مصر ، كادت تشل فكري عن العمل ، وتربيني بكارثة التعطل العقلي ، فكتبت إليه بما عاني ، فرأيت فيما يرى النائم أنه مديده الكريمة إلى قلبي ، وحرره بأصابعه الشريفة ، فاستيقظت وقد أبرأني الله من العلة بعد أن حار إخواني المصريون في أمري ، ولولا أن الله سبحانه أغاثني بسيدي ؛ لكنت من نزلاء المشافي من الأمراض العقلية ، فإن كان خير مني الآن للمسلمين ، فله من ثوابه قسط عظيم وحظ وافر . . إلهه وقال - رحمه الله تعالى - في إحدى رسائله إلى شيخه - رحمه الله تعالى - يصف له حالته :

« أحمد الله تعالى على ما أنجاني على يدكم من الكرب العظيم ، فلقد كنت بحال رديئة ، يتقطع لها نياط القلب من الضيق الشديد الذي لزمني وسد عليّ مسالك الراحة ، وما هو إلا أن وصل كتابي إليكم ، حتى أحسست بتحسن الحال ، وإقلاع الغم عني في معظم اليوم ، بعد أن كنت أبقى ساعات متوالية في غالب أيامي ، لا أستطيع وصف الغم الشديد الذي كان يغشاني . وأذكر أنني في إحدى المرات ، بقيت مستلقياً على الأرض من بعد العصر إلى وقت الضحوة من اليوم الثاني ، فلم أقم إلا للصلاة والأمور الضرورية ، وذهنى لا يساعدني على المذاكرة في العلم ، ولا يقبل التفكير في أي مسألة علمية . كنت أبقى طيلة اليوم على قطعة من الخبز رغيفاً أو دونه ، واجتزىء بعصير البرتقال ونحوه ، حتى بدا

علي الشحوب؛ أما الآن فإني - والله الحمد - في عافية بما كنت فيه، ولا يعاودني الحال السيء الشديد إلا في بعض اليوم، وأسأل الله أن يزيح الغمة كلها عن قلبي بإدامة التوجه منكم بكشفها ، وبالرضى بأقدار الله رضا عميقاً .

يا سيدي ما أعظم سر كم ، وما أكرمكم على الله الكريم ، كدت أهلك ، فنفس ربي الكرب عني بكم ، إني أعتقد أن دعاءكم يخرق السبع الطباق ، وأن توجهكم ، يحقق الله به لكم ما تبتغون . فرضى الله عنكم وأرضاكم ، وجعلني في قلبكم وجعلكم في قلبي . . . إله^(١) .

وإني أعتقد أن أعظم كرامات الشيخ أبي النصر - رحمه الله تعالى ، احتلاله لهذه المكانة العالية في قلب سيدي - رحمه الله تعالى - ، فقد كان سيدي - رحمه الله تعالى - يقول : لم يكسر رأسي من الشيوخ غير أبي النصر . ولهذا قصة .

كان سيدي - رحمه الله - في أول نشأته العلمية وقبل سفره إلى حلب ، على مشرب يخالف السادة الصوفية ، متأثراً في ذلك بخاله الشيخ سعيد الجاني - رحمه الله تعالى - وبمساعي الشيخ سعيد غلب على حماة هذا المشرب، ومما ساعد الشيخ سعيد في نشر آرائه إخلاصه وتقواه ، فقد كان - رحمه الله - مخلصاً ، ورأى كثيراً من الدخائل والبدع عند

(١) من رسائل مصر .

متصوفة ذلك الزمان ، فشن عليهم حملات عنيفة ، لم تقف عند البدع والدخائل ، بل كان فيها إفراط وتحمّل كبيران من الشيخ رحمه الله تعالى .

في هذا الجو نشأ سيدي - رحمه الله - ، ولما كان الإخلاص لما يعتقد من حق طبعاً له ، حمل أفكاره إلى حلب بكل ما يحمل من إخلاص وحماس . وكان الشيخ أبو النصر - رحمه الله - متربعاً فيها على عرش قلوب أكثر علمائها وجمرة عامتها ، وكان يتردد عليها كثيراً ، وكان سيدي - رحمه الله تعالى - على معرفة بالشيخ وثيقة ، وقد سبق أن تلقى الذكر منه ، إلا أن أفكار خاله كانت لا تزال متمكنة من قلبه ، راسخة في وجدانه . وقد عرف بذلك بين أقرانه من طلاب المدرسة الشرعية ، واشتهر بكثرة المناقشات التي كان يخوضها معهم . وفي إحدى الليالي العامرة بالذكر ، التي كانت تشهدها حلب حين مجيء الشيخ إليها ، ذهب سيدي مـ مع رفيق دراسته الشيخ أحمد الحصري حفظه الله تعالى - وهو شيخ المعرة وعالمها الآن - ذهب معه لرؤية الشيخ أبي النصر والسلام عليه ، لما عرف من وفاء سيدي وحفظه للمودة . ولما دخل الدار ، خشي رفاقه في المدرسة من أتباع الشيخ ، أن يسبب لهم بعض المشاكل ، لما يعرفون عنه ، ولكن الشيخ أبا النصر - رحمه الله - ما إن وقع بصره عليه حتى استدعاه ، وأجلسه أمامه مـ مع صاحبه الشيخ أحمد الحصري حفظه الله ، وأمر المنشد بالإنشاد ، وبدأ المنشد بقصيدة مطلعها :

كان لي ظل رسوم فاستوت شمسي فزالا^(١)

وأخذ الشيخ يتوجه بقلبه الكبير إلى سيدي - رحمه الله تعالى -
وما مرت فترة ، حتى اشتعل القلب النقي بالأحوال والمواجيد ،
فطغت عليه ، وقام مأخوذاً هو ورفيقه بصيحان ، وسيدي يردد أثناء
ذلك : أشهد أنك يا أبا النصر على حق . ثم أكبا على حجر الشيخ ،
فقلقاها - رحمه الله - بهدوء وسرور كما تلتقى الأم أطفالها ، وبعد أن
سكنا وعادا إلى صجورهما ، آخى - رحمه الله - بينهما أخوة روحية
ما زادت الأيام بعد ذلك إلا قوة وإخلاصاً وصفاء ، حتى إن سيدي
- رحمه الله - كان يقول : « الشيخ أحمد الحصري هو الانسان الأول
في حياتي ، وهو أخي الروحي » . هذا اليوم من الأيام المشهودة في حياة
سيدي ، وفيه حصل له التحول العظيم ، والانتقال الكبير ، ببركة
شيخه ومرشده أبي النصر - رحمهما الله جميعاً - وإلى هذا أشار - رحمه
الله - بقوله : « إنه الذي أخرجني الله تعالى به من ظلمات الغفلة
والقسوة والشرود ، إلى نور الذكر والرامة والوقوف بباب الله سبحانه

(١) ومن هذه القصيدة :

بعد ما كنت خيالا
في عزاً وكها
منه والله انفصالا
أجنتني منه وصالا
افرحات تتوالى
كان والله انفصالا

عشت بالمحجوب حقاً
وتخفى عن غياني
لست بعد اليوم أخشى
أنا في مقعد صدق
كل أوقاتني منه
هكذا العشق وإلا

في ذلة وضراعة لهذا الرب الكريم ، إنه الذي ملأني بتوجهات قلبه الشريف . وكم طهرت فيوضاته من أسرار ، وأزاحت من أكدار ، وأعلت من همم ، وأنجت من نقم . كم أنقذ من غرق في بحار الطغيان ، وكم جلا عن القلوب من ران العصيان . وكم أبكى من عيون الناس عيوناً ، وكم ألقى في ضمايرهم سرّاً مكنوناً . كان من الصديقين الراسخين الذين لهم قوة إشعال الحال في مريديه على القرب والبعد . وقد سمعته يقول : القرب والبعد عندنا واحد . من لم ينفكك بعده لم ينفكك قربيه . وكراماته التي أكرمها الله بها من خوارق العادات كثيرة جداً جداً .. إله^(١) .

ومن هذه الكرامات ما سمعته من الشيخ منير لطفي - من علماء حماة الصالحين - فقد سمعته يحدث : أنه كان إذا زار الشيخ أبا النصر في حمص ، وأستأذنه بعد ذلك للعودة إلى حماة ، لا يأذن له ، ويأمره بالانتظار ، ثم بعد ذلك يأذن له فجأة ، فيذهب إلى موقف السيارات ، فيجد السيارة على وشك التوجه إلى حماة فيركبها ، ويعود فوراً دون انتظار .

ولقد حدثنا سيدي - رحمه الله تعالى - كثيراً عن كرامات شيخه أبي النصر ، وأشهرها شفاء الله تعالى ببركة دعائه لامرأة مشلولة ، حُمِلت إلى بيته حملاً ، وخرجت منه بعد قليل تمشي بصحة وعافية . ولقد اشتهر عنه أن الله سبحانه وتعالى ، يكشف له مخبات النفوس وأسرار القلوب ، فكان يقرأ ما في نفوس مريديه ، ويخبرهم عن طوايا

(١) ضيف الحضارة .

قلوبهم . ولقد سمعت من سيدي - رحمه الله - أن الشيخ عيسى
البيانوني - من كبار علماء حلب - قدم إلى حمص لزيارة الشيخ، وكان
في الطريق يتساءل عن أبي الهدى الصيادي - رحمه الله تعالى - وعن
رأي الشيخ أبي النصر فيه ، ولما التقى بالشيخ على مشارف حمص ،
متوجهاً إلى قرية تلييسة ابتدره الشيخ قائلاً : (الشيخ أبو الهدى رجل
صالح ، ولكن للناس فيه مطاعن) . وما من مرة جلس - رحمه الله
تعالى - إلى مائدة طعام ، إلا وبارك الله فيها ، وكفت الجموع الكثيرة
التي تلتف حول الشيخ حينئذ حل وأبنا انجبه ، ولذلك كان - رحمه الله
يقي جالساً على المائدة حتى يأكل كل الناس ، ثم يقوم عنها ويأمر برفعها .

ولو أردت أن أستقصي كراماته كلها ، لاحتجت إلى كتاب
مستقل ، ولكنني أكتفي بهذا الغيض من الفيض ، ملتزماً المبدأ الذي
ذكرته في بحث الكرامات ، وهو : الاستقامة عين الكرامة ،
واستقامة الشيخ أبي النصر أجمع عليها كل من رآه وعرفه - رحمه الله
تعالى - فما كان - رحمه الله تعالى - يترك قيام الليل ، ولقد سمعت
من سيدي : أن الفجر ما كان يطلع على أبي النصر ، حتى يذكر الله
ثمانين ألف مرة ، وكان كثير القراءة للقرآن الكريم وخاصة قبيل
وفاته . توفي - رحمه الله تعالى ورضي عنه - وقت السحر ، من ليلة
الجمعة الخامس من رمضان سنة ١٣٦٨ هـ ، وقد انكشف بعدسنة مرت
على وفاته حجر من فوقه في عملية حفر ، ففاحت رائحة زكية من قبره
الشريف ، ورؤي الشيخ - قدس سره - بحاله التي دفن عليها لم يتغير
ولم ينتن . رحمك الله يا سيدي ، يا مرشد الخائرين ، وشيخ السالكين ،

ونور قلوب العارفين . ويحسن بي أن أذكر أخيراً ما قاله الشاعر
الكبير ، شقيق سيدي ، الأستاذ بدر الدين الحامد - رحمه الله تعالى -
في مدح الشيخ أبي النصر قدس سره :

يا هيكلَ الجسمِ دعُ رُوحِي ومِسرَها

تُسقى بِسَاحِ التَّدَانِي من حُمَيَّاهَا
هناك حيث رياض القرب ناضرة

تَهِمُ وَجِداً بِسَلمَها وِريَها
وكم لها من تنَاجٍ كُلِّه شَغَف

حَذَارِ يا قَلْبَ من إِفْشاءِ بَخْواها

بتنا على حالة من ذاقها كُشِفَتْ	له الستور فتادى ما أُحْيَلَاها
شيخِي أبو النصر نِبراس الحَقِيقَة بل	قطب الطَريقَة يَحمِيها وِيرِعاها
عرج على رُبعه المَأهول تَلَقَّ بِهِ	نوراً كشمس الضحى تجلِي بَعلِياها
تَهفو القلوب إِلِيه وَهي خَاشِعَة	وسرّه كَم تولاها وأولاها
يا سِيدِي إن لي في الذِكر سابِقَة	عِدا الزَمان على قَلبي فَعُفَّاهَا
فَصل بِجَبَلِك جَبلي إنني دَنَف	وأنت لي قَدوة في ذِكري - اللهُ

وقال رحمه الله تعالى أيضاً :

وَحَقُّ هَوا كُفُّ ما غَا	بَ طَيفُ خِيالِكم عَنِّي
نَزَلْتُمْ في الحُفَا والِه	رَّ يا أَهلَ الوِفا مَني
فَصَرْتُمْ بِجَبْجَبِكم كَلِيفاً	أَغْنِي وَالهِوى فَنِي
سَويَدائِي بِكم خَفَقَتْ	وَجَفَنِي آهٍ من جَفَنِي

تفيض مدامع المزن	بذكركم بفيض كما
فاخجل قامة الغصن	بدا في القرب محبوبي
وخف بقربه وزني	دعاني فانمجت به
إذا ضاقت به أذني	وروحني تفهم المعنى
جبال الأرض كالعين	إشارات بها تغدو
مقالك في الهوى دعني	فدعني يا عدولي من
من الكأس إلى الدن	تعالَ وذق حميانا
فإن البعد لا يغني	ولم إن شئت أو فاعذر
طلّى أحلى من المن	شرابك يا أبا النصر
جميع الإنس والجن	تخر له الجبابر من
وغير الله لا نعني	بسر الله مشربنا
محمدنا بما أنني	صلاقي والسلام على

حدثني الأستاذ عبد الغني اخامد حفظه الله تعالى، فقال: وصلتنا إلى حماة أخبار الشيخ محمد، وما حصل له، وأنه ترك مدرسته، ولحق بأبي النصر إلى حمص، فأرسلني أخي بدر الدين لرؤيته، وإذا بي أتعلق بأبي النصر - رحمه الله - وأتلقى الذكر عنه، وعدت إلى حماة قائلاً القصيدة الأولى في الشيخ أبي النصر - رحمه الله - (في مجلس الذكر):

الحب في القلب أمسى ثابت القدم والشرق خالط مني أعظمي ودمي

والروح تلج في الآصال ذاكرة وفي الليالي سناء المفرد العلم

يا من ترامت إليه الروح والهمة إني على البعد لا أنفك في ضرم

كيف السلو وقلبي لا يكفكفه
 أم كيف أنسى التداني منكم ولقد
 في مجلس الذكر والأنفاس حابسة
 تبارك الله ما أسمى مجالسنا
 والقوم قد خشعت منهم بصائرهم
 وأنت يا سيدي فينا حليف جوى
 إني إلى الذكر يا مولاي في كلف
 شيعي أبا النصر أنت الشمس في زمن
 فهل ألام إذا علقت بكم
 واليوم كل رجائي أن أنال رضى

كيف يرجون لنا أن ننثي

ثم إلى الكأس ولا تخش الملاما
 ودع العاذل لا تحفل به
 نحن أدري بالذي يجلو فهل
 والشراب الصرف هل كان سوى
 فإذا ما ذقت منه نقطة
 واجبال الشم لو يجلى لها
 كيف يرجون لنا أن ننثي
 من يدي شيخ لنا قد بلغت
 يا أبا النصر جزيت الخير عن

وارتشف من خمرة الحب التهاما
 فن الجهل لقد صاغ الكلاما
 كانت الكأس سوى الروح قواما
 نفحة عمت فأحيت مستهاما
 ليج بي الشوق وعفت الاحتشاما
 لهوت منه خشوعاً تترامى
 والذي ذقناه في السر أقاما
 رتب الفضل به العليا مقاما
 معشر علقتهم هذا الغراما

لم نكن نعرف من قبل جوى يملك القلب ولا دمعاً سجاماً
 ثم لما أن توجت لنا أصبحت نار الهوى تذكو ضراماً
 أنت ألهمت الحشا من خمرة هي ذكر الله في القلب دواماً
 وبجب المصطفى علقنا وإلى الإخلاص وجهت الكراماً
 سيدي شيعي ترفق بالذي حرمت عيناه في الليل المناماً
 أنا أصبحت بكم من كلفي أجد السلوى على نفسي حراماً
 ولئن نلت الرضى منكم فقد فزت في الحب وبلاغت المراماً

الشيخ محمد سليم خلف

وإن سرّ هذه النسبة الشريفة إلى الطريقة النقشبندية، سرى إليه
 من قلب والده الشيخ محمد سليم بن الشيخ خلف الجندي الحسيني، قدس
 الله سره العزيز . ولد - رحمه الله تعالى - في مدينة حمص سنة ١٢٣٢هـ ،
 ونشأ - رحمه الله تعالى - متحلياً بالأخلاق والآداب الإسلامية ، أخذ
 العلم على كثير من الشيوخ الفضلاء في وقته ، ولا سيما على الشيخ الجليل
 الكبير علامة حمص الشيخ جمال الدين الجمالي ، وهو جد الشيخ جمال
 الدين الذي كان خطيب الجامع الكبير في حمص . وألقى به والده إلى
 الشيخ أحمد الطزقلي رحمه الله تعالى ، فكان له خير مرشد ومرب ، والشيخ
 الطزقلي - رحمه الله تعالى - أحد خلفاء مولانا خالد النقشبندي ، كان عالماً
 جليلاً ، جمع العلوم الظاهرة والباطنة ، ونال قصب السبق بين خلفاء

مولانا خالد ، وقد كان قدس الله سره يعتمد عليه في المهمات . تلقى العلوم الشرعية على أكابر علماء دمشق ، حيث أقام هناك مدة طويلة لهذا الغرض ، كما أنه سلك في الطريقة النقشبندية على شيخه العظيم مولانا خالد ، حتى إذا كمل سلوكه أجازته شيخه بالإرشاد العام ، وأذن له بالعودة إلى حمص لتكون مقر الإرشاد له ، فسكن حمص ، وظهرت كراماته وشاعت ، واهتدى الناس بهديه ، وكثر خلفاؤه ، وعم نفعه الخاص والعام ، وكان يتردد على دمشق لزيارة شيخه الكبير كثيراً ، حتى انتقل شيخه إلى رحمة الله تعالى ، فتفرغ للإرشاد ونشر العلم والطريقة ، فأجلب خلفاء وعلماء أقوياء ، مثل الشيخ سليم خلف والشيخ سليم صافي ، والشيخ عبد اللطيف التلاوي ، ولا يزال إلى وقتنا هذا هو وخلفاؤه محل اعتقاد أهل حمص ، فلا ينقطعون عن زيارة قبورهم ، والتوسل إلى الله سبحانه وتعالى بهم .

ولقد توسم الشيخ الطزقلي أهلية الإرشاد في تلميذه ومريده الشيخ سليم خلف ، منذ كان عمره ثمانية عشر عاماً ؛ فأجازته بالإرشاد، وكتب له بذلك . ولقد أحببت أن أزين هذا الكتاب بصورة إجازة الشيخ سليم خلف من شيخه الشيخ أحمد الطزقلي - رحمهما الله تعالى - ، تبركاً بالآثار الصالحة ، والأنفاس الطاهرة :

بسم الله الرحمن الرحيم —————

وبه نستعين ، الحمد لله حمداً يرتضيه جنابه ، والصلاة والسلام على أجل من اصطفى لوحيه وخطابه ، خليفة الله في خلقه ، محمد وعلى آله وأصحابه ، وبعد : فقد أجزت الأخ الشفيق ، والصديق الرفيق ، العالم

العامل ، والفاضل الكامل ، الحافظ للوحد والوداد ، الشيخ سليم بن السيد
 خلف الجندي ، صاحب الأوراد ، ثبتته الله على منهج الاستقامة ،
 وحفظه من موجبات الندامة ، بتلقين الذكر والتوجه والإرشاد في الطريقة
 العلية النقشبندية ، بعدما جربت مراراً تأثير نظره للطلاب ، وحسن
 اقتداره على إلقاء النور ، وكشف الحجاب ، وما أجزته إلا بعد
 الاستجازه من سادة السلسلة العلية ، والاستخارة الشرعية النبوية ، فليغتم
 صحبته كل من يريد التثبت بطريقة الأولياء ، وأضمن لكل من يلزم
 أمره وخدمته أن ينال ما لا يحيط به عقل العقلاء ، ويقصر عنه علم
 العلماء . وأوصيه بالتمسك بالكتاب والسنة والأمر بتصحيح العقائد
 بمقتضى آراء أهل السنة ، الذين هم الفرقة الناجية ، على ما أطبق عليه أئمة
 الكشف والوجدان ، وأوصيه بتوقيف حملة القرآن ، والفقهاء والفقراء
 وسلامة الصدر ، وسماحة النفس ، وسخاوة اليد وبشاشة الوجه ، وبذل
 الندي ، وكف الأذى ، والصفح عن عثرات الإخوان ، والنصيحة
 للأصغر والأكبر ، وترك الخصومات ، وترك الطمع وبالاتماد في قضاء
 الحوائج إلى الله جل جلاله ، فإنه لا يضيع من عول عليه ، وأن
 لا يرجو النجاة إلا في الصدق ، والوصول إلى الله تعالى في اتباع محمد
 صلى الله تعالى عليه وآله وصحبه وسلم ، وأن لا يظن أنه أفضل من أحد
 بل لا يرى لنفسه وجوداً . وكل من يتناول عليه بالنميمة والحسد ،
 يقوض أمره إلى الله تعالى ، ولا يتكلم في دفع شره بالهمة ، فإن
 مشايخ هذه الطريقة العلية ، تندك من همهم الجبال ، فإن شأؤوا قطعوا
 مادة فساد بقدره الله تعالى أسرع ما يكون ، وصلى الله على سيدنا محمد

السي الامي وعلى اله وصحبه عدد خلقه ورضى نفسه ، ومداد كلماته ،
وسلم تسليماً كذلك . والحمد لله رب العالمين .

حرر وجري به عليه

خادم الفقراء

أحمد النقشبندي الطظلي الخالدي

ولا يزال المستنون من أهل حمص ، يذكرون كرامات الشيخ
سليم قدس سره ، وأشهرها ما حصل عند انحباس المطر سنة ١٣١٥ هـ ،
فقد ضج الناس بالشكوى ، واشتد الكرب بالمسلمين ، وطال الانحباس ،
وتجهز الناس للاستسقاء . وخرجوا إلى خارج المدينة من الجهة الجنوبية
الغربية ، والسماء مصحبة ليس فيها قطعة غيم ، وخرج الشيخ سليم معهم ،
فطلبوا منه الدعاء ، فدعا - رحمه الله تعالى - وأطال وألح ، ثم أمسك
بليحيته الشريفة وقال : (يا رب لا تخجل هذه الشيبة) ولم يتم الشيخ
كلامه ، حتى ظهرت من الغرب ديمة هطلاء ، وما لبثت أن امتدت ،
وغطت الأفق ، وبدأت تسكب الماء ، كأنه أفواه القرب ، والناس
لا يزالون مع الشيخ في أما كنهم لم يبرحوا ، حتى ارتوت
الأرض . وأسلم في هذا اليوم الكثير من نصارى حمص . توفي - رحمه
الله تعالى - في منتصف شهر المحرم من عام ١٣٢٨ هـ ، في وقت السحر ،
وجرى له تشييع رسمي وشعبي عظيم ، ودفن في المقبرة الجنوبية

على طريق دمشق ، وقد دفن ولده الشيخ أبو النصر قدس سره قريباً
منه بعد ذلك .

الباب الرابع

محامد الخلقية

يقولون لي صفها، فأنت بوصفها خير، أجل عندي بأوصافها علم
صفاء ولا ماء، ولطف ولا هوى ونور ولا نار، وروح ولا جسم

ابن الفارض

تمهيد

قال الإمام الغزالي في كتاب الإحياء ، في بيان الأسباب التي يُنال بها الخلق الحسن: «الأخلاق الحسنة نارة تكون بالطبع والفطرة ، ونارة تكون باعتياد الأفعال الجميلة ، ونارة تكون بمشاهدة أرباب الفِعال الجميلة ومصاحبتهم ، وهم قرناء الخير وإخوان الصلاح ، إذ الطبع يسرق من الطبع الشر والخير جميعاً ، فمن تظاهرت في حقه الجهات الثلاث ، حتى صار ذا فضيلة طبعاً واعتياداً وتعلماً ، فهو في غاية الفضيلة .. إله» .

ولقد كان سيدي - رحمه الله تعالى - في غاية الفضيلة ، بعد أن تظاهرت في حقه الجهات الثلاث ، بل إن جهة الطبع والفطرة غلبت على أخلاقه رحمه الله تعالى . دليل ذلك اظهور هذه الأخلاق الفاضلة فيه منذ صغره ، حتى كان الناس يسمونه شيخاً قبل أن يسلك سبيل العلم الشرعي ، وكان - رحمه الله - يأبى لهذه التسمية ، ويفرح بها ، لأنها تتناسب مع السلوك الديني الذي تُعف به وفطر عليه ، وهذا هو السبب الذي حمل أخاه الأستاذ بدر الدين - رحمه الله - أن يخرج من المدرسة الإعدادية بعد أن أدخله إليها ، ليتابع تحصيله فيها للعلوم العصرية ، فلم يجد - رحمه الله - في نفسه ميلاً إلى هذه العلوم ، حتى شعر أخوه أنه يحمله على الذهاب حملاً ، فأخرجه منها ، ووضع عند

معلم خياطة للملابس العربية ، ليتعلم عنده هذه المهنة ، وليتابع معها طلب العلم الشرعي كما يريد^(١) ، ولقد حدثني - رحمه الله - أن معلمه الخياط وأهل السوق ، ما كانوا يدعونه إلا بالشيخ .

عرف - رحمه الله - من نفسه هذه الصفة ، وأدرك أنه سيحمل في المستقبل هذه الأمانة العظيمة ، ولهذا كانت تثور في نفسه مشاعر الفرح ، ويفيض قلبه بعرايم الشباب ، وينطق لسانه هاتفاً في قاعات المدرسة الشرعية : أنا وقف للمسلمين ، أنا وقف للمسلمين .

وإن كل أقران الشيخ وزملائه ، عرفوا فيه الثبات على السلوك الحلقى الديني الكامل طيلة مراحل حياته ، فلم يتغير ولم يتبدل لديه هذا الحلق الطيب منذ طفولته إلى أن توفاه الله تعالى ، ولنستمع إلى شهادة شقيقه الأستاذ عبد الغني ، وهو أكثر الناس معرفة بالشيخ - رحمه الله تعالى - طفلاً وشاباً وشيخاً :

« أما أنا ومحمد فقد كنا كغصني شجرة لا يفترقان ، نذهب ونزوب ونطعم ونبيت معاً ، يدانا متأسكتان ، وقلباناً متمازجان . في هذه الظروف القاسية عشت أنا ومحمد أول ما تعرفت إلى الحياة ، وارتسم على قلبي منه منذ ذلك الحين كل شيء عرفته فيه من الصفات ، فلم أجد شيئاً منه قد تبدل فيما بعد عندما كبر وأصبح رجلاً ، إلا علمه

(١) ولم ينس - رحمه الله - أن يداعبه قائلاً : تعيش خياطاً ، وتموت خياطاً ، وتحشر يوم القيامة في زمرة الخياطين . لكن إرادة الله شامت أن يعيش عالماً ، وأن يموت عالماً ، ويحشر يوم القيامة - إن شاء الله - في زمرة العلماء العاملين .

الذي اكتمل ، وجهاده الذي برز في خدمة الدين ، هو محمد نفسه في السادسة من عمره ، كما هو بعد العاشرة ، أو بعد الثلاثين والخمسين ، العاطفة الطيبة ، والحنو العميق ، والصدق في القول ، كل ذلك أستشعره منه ونحن صغيران ، ولم يكن في تلك السن المبكرة ، يألف من الأمكنة إلا المساجد ، يصلي خلف الأئمة ، ويحضر دروس العلماء ويأخذ بحفظ القرآن الكريم .

وكان أبعد ما يكون عن الشر ، أشد ما يكون تحرياً للحلال ولو في أصغر الأشياء ، لم تمس به قدم إلى ملهى قط ، والأطفال والفتيان من حوله يتحدثون يومئذ عن ذلك الشيء العجيب الذي يسمونه (السينا) ، والذي فوجئت به البلاد فأدهش العقول . التسلية عنده هي الزهدة فحسب ، ولقد أكسبته المناظر الطبيعية ، حساً شعرياً . وذوقاً سليماً صافياً ، بقي أثرها في نفسه حتى عهد شبابه وكهولته . هذه أمور أروها عنه وهو صغير ، كنت أحيها معه كل يوم ، وأشهدا منه سلوكاً ثابتاً لا يتغير . . . إله .

ثم قال حفظه الله : « رحم الله محمداً ، فقد كان عالماً في التقوى والورع ، حجة في العلم ، قدوة في النزاهة ... هو نفسه كما عرفته في السادسة من عمره ، وأواريه التراب اليوم بدمعي ، لم يتغير من خلقه شيء ولم يتبدل من أعماله عمل . . . إله . »

الْوَرَعُ

وهو الصفة البارزة لسيدى رحمه الله تعالى ، قدمتها لأنه

اشتهر بها بين الناس أكثر من غيرها . والورع : اجتناب الشبهات خوفاً من الوقوع في المحرمات ، وقيل هي ملازمة الأعمال الجميلة .. إله^(١) وهو من ثمار المعرفة لله تعالى ، فكلمة ازداد العبد معرفة لربه وقرباً منه ، زادت خشيته له وزاد ورعه ، دليل ذلك قوله تعالى : (إنما يخشى الله من عباده العلماء^(٢)) قال البيضاوي في تفسيرها : شرط الخشية معرفة الخشي والعلم بصفاته وأفعاله ، فمن كان أعلم به كان أخشى منه ، ولذلك قال صلى الله عليه وآله وسلم : « إني أخشاكم لله وأتقاكم له .. إله^(٣) .

ولقد كان ورع سيدي - رحمه الله تعالى - ورع المتقين ، بل إنه في مثل هذا الزمن ليلعب ورع الصديقين ، فالاستقامة الدينية الصارمة ، التي ألزم نفسه بها منذ نعومة أظفاره إلى كهولته وشيوخته ، في عصر مشحون بالفتن والمغريات والمضلات تدل على المقامات العالية التي بوأه الله تعالى إياها . وإن الذي يدرس طبيعة العصر الذي عاش فيه ، ليعجب أشد العجب من تمكن هذا الرجل العظيم من العيش حياة الصديقين في مثل هذا العصر ، دون أن نخالطه شبهة أو يلحقه لوث ، واجه الحياة منذ صغره تقياً نقياً ، وخرج منها تقياً نقياً .

ولقد ظهر ورع سيدي غريباً عن طبيعة هذا العصر المدنسة بالمحارم والملطخة بالمآثم ، حتى إن كثيراً من الناس ظنوا لجلهم ورع سيدي

(١) التعريفات .

(٢) فاطر : ٢٨ .

(٣) حديث صحيح ، رواه البخاري بلفظ : (إن أتقاكم وأعلمكم بالله

أنا) . انظر كشف الخفا .

— رحمه الله — ترمماً وتشدداً ، وما عرفوا أن ورعه في هذه الحياة كالواحة الخضراء في الصحراء ، وأنه حزمة من النور سرت في دياجير حياة القرن الرابع عشر الهجري المظلمة . جعله الله سبحانه وتعالى مثلاً حياً للسلف الصالح ، الذين عاشوا في عصر النور ، فكانوا صفوة الله من خلقه بعد النبيين عليهم الصلاة والسلام .

ولقد كنت قبل تشرفي بخدمة سيدي — رحمه الله تعالى — من هذا السواد الجاهل ، أجهل في نفسي صورة له ، شيخاً متمزماً ، متشدداً قاسياً ، وإذا بي أجده بعد اقترابي منه ، أصفى من الصفاء ، وألطف من الهراء ، وأطيب من كل طيب ، وأجمل من العندليب ، وتذكرت وصف علي لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : « من رآه بديه هابه ، ومن عرفه أحبه » .

ولقد أكرمه الله تعالى بصفاء الباطن ونقاء الظاهر ، وحرصاً منه على صفاء الباطن ، كان — رحمه الله تعالى — يحرص أشد الحرص على سلامة العقيدة وصفائها ، حتى لا تشوبها مشائبة ولا تخالطها بدعة ، ولهذا كان — رحمه الله تعالى — يتحرى الدقة العلمية في عرض حقائقها ، ويختار لها الألفاظ المناسبة لمعانها ، ويحتاج بشأنها ، فيأمر الناس بتفقد قلوبهم ، وتفقيش دخالهم ، وتجديد إيمانهم ، خاصة إذا سمع منهم لفظاً مكفراً من قريب أو بعيد ، وكما كان — رحمه الله تعالى — يحمل نفسه من عناء ومشقة في هذا السبيل ، إذا سمع من إنسان لفظة قد تحمل معنى مكفراً استفسر منه عن مراده ومقصده ، ودقق في سؤاله ، وألح في استفساره ، وقد يزوره في بيته من أجل أن يتأكد من سلامة إيمانه ، وصحة اعتقاده ،

فيظن الجاهل أن هذا من الشيخ تشدد وتزمت ، وهو لا يدري أنه صفاء القلب ، ونقاء النفس ، وسلامة العقيدة .

حدثني أحد أصدقائه - رحمه الله تعالى - أن كلمة بدرت منه - يفهم منها معنى سيء ، لا يريده ولا يقصده - أمام الشيخ رحمه الله تعالى ، فما زال الشيخ يسأله مستفسراً عن مراده ، حتى طمأنه إلى أنه ما قصد معناها السيء ، ومرت عدة أيام بعد ذلك ، نسي صديق الشيخ الحادثة كلها ، ولم كانت دهشته كبيرة ، عندما ذكره الشيخ وهو في إحدى نزهااته معه بكلمته التي صدرت منه ، وطلب منه أن يجدد عقد نكاحه مع زوجته احتياطاً .

ومن المعلوم أن أكثر الأشياء تأثيراً على صفاء القلب والنفس ، تناول المال المشوب بالحرام . ولهذا كان الشيخ - رحمه الله تعالى - يجتهد اجتهاداً كبيراً في البحث عن الرزق الحلال ، الذي لا تشوبه أية سائبة ، ويترك الكثير ، حتى يسلم له القليل الطيب ، وقد وصل به الأمر في بعض الحالات ، أن ترك المدرسة الشرعية في حلب ، عندما عرف أن أموال الوقف فيها مخلوطة بغيرها ؛ خوفاً أن يدخل إلى جوفه شيء من مال حرام ، تركها وخرج إلى القرى يبحث عن الرزق الحلال ، حتى وصل إلى قرية «عرب ملك» على الساحل ، قرب مصب نهر السن ، وهناك التقى برجل صالح ، نصحه أن يعود إلى المدرسة ، مذكراً له أن الرزق الحلال الصرف الذي يبحث عنه ، لن يجده في مثل هذا الزمان ، بكلمة قالها له وهي : ليس بالإمكان أبدع مما كان .

وفي أحد الشهور ، فر معتمد توزيع الرواتب في المدرسة بمال

الطلاب ، فاضطرت إدارة المدرسة أن تصرف لهم من أموال أخرى ، ليست مخصصة للطلاب ، وعندما علم الشيخ - رحمه الله تعالى - بالأمر ، رفض أن يستلم راتبه ، وعلم مدير المدرسة - رحمه الله تعالى - سبب رفض الشيخ ، فاستدعاه في اليوم الثاني ، وقدم له كمية من المال ، فرفض الشيخ استلامها ، حتى حلف له أيماناً مغلظة أنها من ماله الخاص ، يقدمها هبة خالصة له .

ومن ورعه - رحمه الله تعالى - حرصه ألا تكون مكانته الدينية في قلوب الناس سبباً يجر له بعض المكاسب ، ولهذا كان يرد كل هدية تقدم له ولو من أخص تلاميذه وأحبابه ، لأنه يعتقد أن هذه الهدايا قد تكون أكلاً للدنيا بالدين .

وكم رد - رحمه الله تعالى - هدايا كثيرة ، قدمت له ، وخاصة من عواده الذين كانوا يعودونه أثناء مرضه ، وإذا غلب عليه حياؤه وقبل بعضها ، كافأ أصحابها بهدايا تزيد كثيراً عن التي قدمت له ، وإن أخص تلاميذه كانوا يمتنعون عن تقديم أية هدية للشيخ ، حتى لا يسبوا له مضايقة نفسية ، وحتى لا يكلفوه المكافأة عليها .

ومن ورعه - رحمه الله تعالى - أنه كان يطلب من البائعين أن يعاملوه كسائر الناس ، وإذا شعر أن أحدهم خفص له السعر ، ألح عليه أن يأخذ السعر المعتاد ، وأعطاه زيادة على طلبه ، وحوادثه في هذا الشأن مع الباعة كثيرة ، فقد اشترى من أحد السماسرة جنناً بسعر الكيلو / ١٨٠ / قرشاً سورياً ، وأوصاه على كمية أخرى ، فلما أخذها في اليوم الثاني سأله عن سعرها ، فقال له كالسابق ، فسأله - رحمه الله

تعالى - : وهل هذا هو السعر اليوم ؟ فقال : لقد بعث اليوم بسعر / ١٩٠ / قرشاً ، فقال الشيخ : وهل هذا الذي بعته خير من هذا الذي بعته ؟ فقال : لا . قال : فإنك تظلم صاحبه ، ولست آخذه إلا بسعر / ١٩٠ / قرشاً ، وكان صاحب الجبن حاضراً ، فقال : أنا رضيت يا سيخي بسعر / ١٨٠ / قرشاً ، فقال له - رحمه الله تعالى - : إن هذه الزيادة هبة مني لك .

وكان يحرص حرصاً شديداً أن لا يأخذ منفعة أحد دون أن يعطيه أجرته كاملة ، فقد استأجر مرة حمالاً ليحمل له صفيحة الكاز إلى البيت ، وأرسل معه ولده ليدله على البيت ، وأرسل مع ولده وعاء فيه قليل من الحليب ، ولما سار الحمال التفت إليه الشيخ ، فوجده قد حمل وعاء الحليب أيضاً ، فناداه قائلاً : إني لم أشاركك على حمل الحليب ، فتعال خذ أجرته ، فقال الحمال : لا أريد أجرته ، ولكن الشيخ أصر عليه وأعطاه أجرته . وخرج مرة - رحمه الله تعالى - يبحث عن حمال أرسل معه علة لبن إلى البيت ، فكلفه أهل البيت أن يحملها إلى غرفة على سطح البيت ، خرج يفتش عنه ، ليعطيه أجرة حملها إلى غرفة السطح .

ومن ورعه - رحمه الله تعالى - ، أنه كان يتهم نفسه دائماً بالرياء وقلة الإخلاص ، وهو السبب الذي حمله على رفض أول وظيفة أسندت إليه ، رغم حاجته الشديدة إلى المال في ذلك الوقت ، رفضها - رحمه الله تعالى - ، ثم قبلها مكرهاً ، وكتب إلى شيخه أبي النصر يصف له شأنه فيها :

« سيدي ومرشدي :

أقبل يدركم الشريقتين ، وأسأل الله تعالى لكم مزيد الإحسان
والإنعام ، وبعد : فقد توجهت على الفقير ولدكم خطبة الجمعة في جامع
الأسقر ، بعد أن عرضت عليّ فرفضتها ، ولكن المشايخ - حفظهم
الله تعالى - أصرّوا على قرارهم ، وعملوا جهدهم لإقناعي ، فقبلت
وخطبت في الجامع المذكور يوم الجمعة الماضي ، وإني أحمد الله تعالى على
توقيفه ، الذي لا شك في حصوله ببركة انتدائي إليكم ، وانتدائي
لسدتكم العالية . وقد طلب مني بعض جيران المسجد درساً عقب الصلاة ،
كما كان يفعل الخطيب السابق ، ففعلت ولطف الله تعالى بي ، وله سبحانه
الحمد على كل حال . غير أنني يا سيدي ذا كرّ لكم في كتابي أمرأ هو
منكم ومن ولدكم على بال ، ذاك أنني لم أكن ذا طمع شديد في المال ،
ولا في الجاه ، وما رضيت بالوظيفة جاً بأحدهما ، وإن كنت صعلوكاً
فقيراً . بل إنما قبلت بهار جاء أن يخلق الله تعالى على يدي شيئاً من
النفع ، أكون فيه عاملاً لربي جل وعلا ، ولا يخفى على مولاي - قدس
سره - أن ذلك لا يحصل ما لم يكن القائم بالأمر مخلصاً في عمله لله
تعالى ، وإلا فإن ما يفسده أكثر مما يصلحه ، وإني أرى نفسي قد
ركنت بعض الركوت إلى قبول الناس لها ، وهي لا تزال تدّعي
الإخلاص ، فامتحنها ، فأجدها كاذبة ، كما قال القائل :

كل من يدّعي بما ليس فيه كذبتّه شواهد الإمتحان

فرايت أن أخبركم بأمر عسى أن تلاحظوني بنظركم الشريف ،
وترعوني بقلوبكم الطاهر ، وتتوجهوا إلى الله تعالى بأن يقذف نور

الإخلاص في قلبي ، ويطهر سري ، فأكون من خدام حضرته .
إني يا مولاي إلى الآن ، أحب الإفلات من هذا القيد الذي
أخشى أن يفسد علي قلبي ، ولولا إصرار الشيوخ وإكراه أخي بدر ،
ما قبلت بهذا الأمر ، وإن كنت أرجو نفع الناس ، لأنني أعلم غش
نفسي لي وخداعها ، فلا يخفى علي تلييسها ومكرها ، وإني لولا
خوفي من غضبكم على ولدكم ، لفررت من حماة قبل يوم الجمعة ، وإن
غضب بدر .

والآن إني أقول لكم بصراحة تامة : إني منتظر ثلاث جمع ،
فإن صلحت سريري استقمت ، وإن فسدت تركت حماة إلى حيث
شاء الله تعالى ، فلست في حاجة إلى أن أكتب عند الله تعالى في
جريدة المرائين ، فأكون تحت غضبه ومقته سبحانه وتعالى ، ولست شديد
الحرص على المشيخة ، وإني واثق بوعد ربي بأن يرزقني .
أحب الإخلاص ، والإخلاص في الإخلاص ؛ حتى أكون عاملاً
لربي جل وعلا ، لا عاملاً لنفسي وشيطاني .

وإني أظن أن الله تعالى لا يخيبكم ، في طلبكم منه لي العلم
الكثير النافع مع العمل ، والإخلاص مع عدم الغرور والكبر
والعجب ، وقد طهر سبحانه بكم قلوباً كثيرة ، وأرجو أن يكون
قلبي واحداً منها . . . إله (١) .

وفي حاشية هذه الرسالة ، كتب رحمه الله تعالى :
« لي أسوة بتوك الوظيفة إذا لم أكن مخلصاً بالإمام الغزالي ، فقد

(١) من الرسائل المحفوظة .

ترك تدريس المدرسة النظامية ، وبأحد أصحاب أبي حنيفة ، فقد ترك الكلام في العلم ، وهو يشاقه اشتياق الظلمان إلى الماء البارد ، ويشتر الحافي ، فإنه ترك التحديث ، فقل له : لو سألك الله تعالى عن ذلك ما تقول ؟ فقال : أقول : إني ما وجدت في قلبي الإخلاص . وقد امتنع ابن سيرين من الصلاة على الحسن البصري ، وقال : ليس لي ظفر بالنية .

فأنا إن تركت هذا الأمر ، فلي أسوة بهؤلاء الأكابر ، وإن قال الناس عني مجنون ، فقد قيلت لرسول الله ﷺ . . . هـ ، ولعل ما ورد في هذه الرسالة ، يكشف لنا سبب تركه وظيفة تعليم الصغار ، التي أسندها إليه مفتي حماة - رحمه الله تعالى - في المدارس التي أنشأها لهذا الغرض ، فقد استمر فيها ثلاثة أشهر ، ثم تركها وخلق بالعمال الذي كانوا يعملون في شق الطريق إلى حلب ، ولكن الله سبحانه ، لما سبق في علمه أنه سيكون عالم الأمة الكبير ، ما كتب له الرزق في هذا المجال ، فسافر بحثاً عن الرزق إلى طرابلس ، ثم إلى دمشق ، ثم هياً له الله تعالى سبيل الالتحاق بالمدرسة الشرعية في حلب .

الرَّحْمَةُ

أخرج أبو داود والترمذي ، عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تنزع الرحمة إلا من شقي »

وكما نزع الله الرحمة من قلوب الأشقياء، جعلها في قلوب الأصفياء
والأولياء والأنقياء .

ولقد خص الله سبحانه وتعالى قلب سيدي - رحمه الله تعالى -
بقسط وافرمها، مازادتها قسوة الحياة المادية للقرن الرابع عشر الهجري
إلا ظهوراً وبروزاً ، وكان من آثارها ، رقة قلبه ، وندادة نفسه ،
وغزارة دمه .

هذا القلب الرحيم أتعب صاحبه كثيراً ، وحمله فوق ما يحمله
عظام الرجال ، فقد جمع عليه هموم الاسلام والمسلمين في مشارق الأرض
ومغاربها ، فكل كيد يوجهه للاسلام يضيف له همماً جديداً ، ولكل
مصيبة تصيب المسلمين ، وقع شديد على القلب الكبير المتروع بهموم
الاسلام والمسلمين ، وما أكثرها في هذا الزمن ! .

هذه الهموم الدينية المحضة ، عامل رئيسي من العوامل التي أدت
إلى تسريع العلة في كبده رحمه الله تعالى ، وما كان يستطيع
انفكاكاً عنها ، ومن ذا الذي يستطيع انفكاكاً عن قلبه وعن فطرته
التي فطره الله عليها !! .

وما من مرة جلست إليه - رحمه الله تعالى - إلا حدثني عن
همومه وآلامه وشقيقته على الاسلام والمسلمين ، حتى بعد ظهور العلة في
كبده ، ونشضع الأطباء له بالابتعاد عن التعب الفكري والنفسي ،
لم يستطع - رحمه الله - أن يخلي قلبه - ولو لفترة من الزمن - عن
هموم الاسلام الذي وقف حياته عليه ، ولقد قلت له مرة : يا سيدي
أسفق على نفسك ، وأسفق على حبيك ، الذين تحترق قلوبهم وتذوب

نفوسهم ، كلما هجمت العلة عليك . فاجابني رحمه الله :

« كيف لا أتألم والاسلام يذبح ، وتنزف دماؤه أمأنا ؟ »

وفي أشد المراحل التي مر بها - رحمه الله تعالى - أثناء مرضه ، لم تستطع آلام المرض أن تنسيه مشاكل المسلمين وآلامهم ، ولعل الطبيب السيد مأمون شقفة يذكر تلك الليلة الرهيبة ، عندما اشتد النزف الداخلي عليه ، واجتمع الأطباء حول الشيخ ، يبذلون جهودهم لنقل دماء جديدة إلى جسمه ، وقد تألم - رحمه الله تعالى - في تلك الليلة آلاماً لا يعلم مداها إلا الله ، فكلما ثقبوا عرقاً لتسهيل الدم خلاله ، ينسد بسبب التخثر ، وكلما كانت دهشة الطبيب عظيمة ، عندما رفع الشيخ - رحمه الله تعالى - رأسه إليه ، سائله عن مشكلة اجتماعية بين عائلتين - كان الشيخ يحاول حلها قبل مرضه - هل انتهت ؟ ولما أجابه بالنفي ، أخذ الشيخ يجمعه بعض الوصايا إلى بعض من لهم علاقة بها ، تساعد في إنهاؤها . وكان - رحمه الله تعالى - يبذل جهوداً كبيرة في تخفيف آلام المتألمين ، ومواساة المحزونين ، وتفقد اليتامى والأرامل والمحرومين ، وكل أزال من خصومات بين الناس ، وأزاح عن قلوبهم من أكرار وأحزان ، وقل أن تجد بيتاً في حماة إلا وللشيخ فيه أثر صالح . منح الناس فكره وقلبه وماله ، فعلم جاهلهم ، وأرشد حائرهم ، وواسى محزونهم ، وساعد محتاجهم ، وشاركهم في أفراحهم ومسراتهم ، كما شاركهم في أحزانهم ، فكان لهم قبل أن يكون لنفسه ، وإن الانسان ليعجب كيف تمكن من كل هذه الأعمال إلى جانب أعماله العلمية الضخمة ، فضلاً عن الحيلة الصارمة التي كان يأخذ بنفسه بها في أمور عبادته .

لا يمكن أن تسير معه في طريق ، إلا وتلاحظ كيس نقوده يخرج عدة مرات لمساعدة المحتاجين ، ويغيّر الطريق أحياناً ليتفقد أرملة أو عاجزاً . وقف مرة أمام بيت لا باب له ، فنادى امرأة باسمها ، فلما خرجت إليه ، سأله عن باب البيت ، فقالت : يا شيخني إن المال الذي قدمته لنا لم يكف ، فأخرج كيس نقوده وما زال يعطيها حتى قالت له : أصبح الآن كافياً

ولم تمنعه هيأته الدينية ووقاره العلمي ، من الركض في شارع مزدحم من شوارع اللاذقية ؛ ليأخذ يد طفل ضائع ، ولم يتركه حتى سلمه لأمه .

وإذا أردت أن تعرف مقدار رحمته للحيوان ، فاسأل العسافير الحائمة فوق بيته ، هل نسي الشيخ يوماً أن يضع لها فتات الحبز في زوايا سطح بيته ، واسأل الكلاب الشاردة ألم يحمل لها الشيخ بيده قطع الحبز .

أصاب سائق السيارة التي يركبها الشيخ بسيارته كلباً خطأً على طريق حمص ، فأسرع - رحمه الله تعالى - إلى حماة وكلف الطبيب البيطري أن يخرج لمعالجته ، وكان يوماً بارداً ، ومع ذلك ؛ لم يجد الطبيب بداً من الخروج تنفيذاً لرغبة الشيخ - رحمه الله تعالى - ولما عاد وأخبر الشيخ أنه وجده ميتاً تألم الشيخ كثيراً ، وتصدق على الفقراء ، رجاء أن يغفر الله ما اعتبره - رحمه الله تعالى - ذنباً يؤاخذ به الله عليه .

ورأى - رحمه الله - مرة في أحد شوارع اللاذقية كلباً يبحث في

كومة تراب ، فظنه جائعاً ، فالتفت إليّ وقال : إن هذا الكلب جائع ،
وعليّنا أن نطعمه ، فاستأذنته أن أذهب لأشتري خبزاً لإطعامه ،
ولكنه أصر أن يذهب بنفسه رغم تعبته ، وذهب - رحمه الله -
إلى الخبز ، فاشتري رغيفاً ، وعاد إلى الكلب وأخذ يرمي له
قطع الخبز .

وسمع مرة وهو في طريقه إلى البيت بعد الدرس المسائي صوت
هر في داخل أحد الحوانيت المغلقة ، فبال الحارس عن صاحب
الحانوت ، وأخذ يبحث في الليل عن بيته ، حتى وجده وطلب منه أن
يذهب لإخراج الهر من الحانوت .

وإذا كنت تمشي معه ، فاحذر أن تطأ على غلّة ، وانظر إلى
موطئ قدمك ، حتى لا تقع على مجمع غلّ أو ذر ، وإلا تعرضت
للوم الشيخ ، وسببت له حزناً وألماً .

الأمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمُنْكَرِ

قال تعالى : (ولتكن منكم أمة ، يدعون إلى الخير ، ويأمرون
بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون)^(١) .
وأشهد أن سيدي - رحمه الله تعالى - كان في حياته من الأمة
الأمّرة بالمعروف والنّاهية عن المنكر ، ويشهد معي كل من عرف
الشيخ - رحمه الله تعالى - فلقد كان يحمل قلباً مرهف الإحساس ،

(١) آل عمران : ١٠٤ .

سريع التأثر لرؤية المنكر ، شديد الغضب لربه ، لاتأخذه في الله لومة
لائم ، صدّاعاً بأمر الله تعالى ، الناس في نظره أمام الحق سواء ، رزقه
الله تعالى قوة ملاحظة لكل ما حوله ، فلا يدخل بيتاً إلا وتحتفي منه
كل المنكرات .

وإياك أن تقترب منه وفي يدك خاتم ذهب ، فهو نزاع الحواتم
المحرمة - وما أكثرها - من أيدي العامة والخاصة والرؤساء
والمرؤسين .

وإياك أن تذكر أحداً في مجلسه بسوء ، فجالسه - رحمه الله -
العامة والخاصة مجالس العلم والأدب ، لاتتوّن^(١) فيها الحرم ، ولا ترفع
فيها الأصوات ، ولا تؤتى فيها المنكرات .

ومن المعلوم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، يحتاج إلى
شجاعة فائقة ، وتحمل كبير لأذى الناس ، خاصة في هذا الزمن
الذي ألف فيه الناس المنكرات ، وانغمسوا في الشهوات ، حتى أصبحوا
لا يعرفون معروفاً ولا ينكرون منكراً ، عباد شهواتهم وأهوائهم .
ولك أن تتصور شجاعته - رحمه الله تعالى - إذا عرفت أنه ما كان
يسكت على منكر مهما كان فاعله : رئيساً أو مرؤوساً ، جاهلاً أو
علماً ، قريباً أو بعيداً .

والعجيب أن كثيراً من الناس ، مهما اشتد عليهم الشيخ في
الإنكار ، ازدادوا حباً له وإقبالاً عليه ، وتقبلاً لنصائحه وإرشاداته .
كسب كثيراً من الأصحاب والأحباب بسبب نهيه لهم عن أخطاء

(١) لا تؤن : لا تعاب .

وقعوا بها أو منكرات كانوا يقارفونها، ولذلك قال - رحمه الله تعالى - :
 « المواقف التي وقفتها في الذود عن حياض الايمان ، أكثرت أوليائي
 وأعدائي ، فانا أعيش في قلوب محبياً إليها ، كما أن قلوباً أخرى تبغضني ؛
 لأنني كالحسكة في حلق أصحابها : (وكفى بالله ولياً وكفى بالله
 نصيراً) . . . إله » (١) .

وإن هذه الصفة هي التي حبته إلى المصريين ، واشتهر بها بينهم
 بالشيخ الحموي ، لكثرة نصائحه وإرشاداته وتنبيهاته لهم ، وإن تعرفه
 على الشهيد حسن البنا - رحمه الله تعالى - كان عن هذا الطريق ، فقد حضر
 الشيخ له محاضرة ، فأحصى له تسع أخطاء علمية ، فذهب الشيخ إليه
 بعد المحاضرة ، وذكرها له ، فقبلها الرجل العظيم ، وأعلن تراجع
 عنها في المحاضرة الثانية ، بعد أن أثنى على الشيخ الحموي . وكان هذا
 أول التقاء للقليلين الكبيرين ، تحول بعد ذلك إلى امتزاج روحي ، ومحبة
 وجدانية صادقة بين الرجلين العظيمين . ظهر ذلك في حديثه عنه الذي
 قال فيه : « صحبتني في مصر سنين ، وحديثي عنه لوبسطته لكان طویل
 الذیل ، ولكانت كلماته قطعاً من قلبي ، وأفلأذاً من كبدي ، وحرراً
 من حرارة روحي ، ودموعاً منهلة منسجمة ، تشكل سيلاً من فاجع
 الألم وعظيم اللوعة . . . إله » (٢) .

الصراحة ورعاية الحس الديني كافة طبعاً له ، فما كان - رحمه
 الله تعالى - يطبق رؤية المنكرات ويصبر عليها ، ولذلك نصحه العالم

(١) ضيف الحضارة .

(٢) المرجع السابق .

الكبير (الشيخ زاهد الكوثري) - رحمه الله تعالى - عندما التقى به في مصر ، نصحه أن لا يختلط بالناس كثيراً ، حتى يوفر على قلبه الآلام التي تسببها له رؤية المنكرات المتفشية بين الناس ، ولما ألح المسؤولون عليه ليقبل منصب الإفتاء في حماة ، كان يقول لهم في جملة اعتذاره عن قبول هذا المنصب : «إني لا أصلح لهذا المنصب ، لأنني كالحجر في القطرميز كيفما استدرت كسرت » ، يعني بذلك - رحمه الله تعالى - أن هذا المنصب سيضطره إلى الاختلاط بأناس كثيرين ، ورؤية منكرات كثيرة ، لا يسكت - رحمه الله - عليها .

ولم يكن - رحمه الله تعالى - في أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر يتبع أسلوباً واحداً مع كل الناس ، بل كان ينزل الناس منازلهم ، ويخاطب كل إنسان بلغة يفهما ويقبلها بوقت واحد ، يبحث عن جانب الخير عند الانسان ، ويدخل إلى قلبه عن طريقه ، وما يزال ينمّي عنده هذا الجانب ، ويثني عليه به ، حتى يفتح له قلبه ، ويسلم للشيخ قياده ، وعندها يواجهه - رحمه الله تعالى - إلى الحق ويبعده عن المنكر . وما كان - رحمه الله - يداري في الحق أو يماري ، ولقد قال لأحد المسؤولين وقد أتى بيت الشيخ زائراً - : «الأمة بيننا وبينكم ، أنتم تحكمون ظواهرها ونحن نحكم قلوبها» وقال لآخر : «والله إن الروح لترخص في سبيل العقيدة» . وحاول أحد المسؤولين في عهود سابقة ، أن ينتزع من الشيخ اعترافاً بشرعية عمل سيقوم بتنفيذه ، وهو ليس شرعياً . فما كان من الشيخ بعد جدال طويل إلا أن انتفض قائماً وهو يقول : «هذا العلم أمانة في أعناقنا ولن نخون

أمانة الله» وترك المجلس وخرج . وقابله بعد ذلك هذا المسؤول على طريق حمص عائداً إلى حماة ، فدعا الشيخ إلى السيارة ليوصله بها إلى حماة ، فأجابه الشيخ : «هذه السيارة ملك للدولة ، ولا يجوز لك أن تستعملها إلا في المصالح العامة ، فكيف تدعوني إلى استعمالها ؟ » . ورفض - رحمه الله - دعوته . ودعاه مرة رئيس الدولة في بعض العهود لحضور حفلة رسمية ، تقام في حمص ، فأجابه : «إنها ستقام في مكان تشرب فيه الخمر ، وسيحضرها النساء مع الرجال ، فلا أستطيع مشاهدة هذه المنكرات » .

وعندما كان في الأزهر ، اصطدم بأحد أساتذة الأزهر ، وعرض نفسه لغضبه وانتقامه ، لأنه أعلن مخالفته لبعض آرائه التي تخالف الإسلام ، وحصل ذلك عندما سأل هذا الأستاذ سؤالاً أثناء أحد الامتحانات ، حول موضوع كان سيدي - رحمه الله تعالى - يعتقد خلافه ، واضطر الطلاب إلى الإجابة بما يوافق أستاذهم ، إلا الشيخ - رحمه الله تعالى - فقد أجاب بالحق الذي يعتقد ، وأيده بالأدلة التي تكشف زيف ما يراه أستاذه ، وأتى الأستاذ في اليوم الثاني معلناً غضبه على صاحب هذه الإجابة ، مهدداً متوعداً ، بينما الطلاب يتهايمون قائلين : هذا عمل لا يفعله أحد غير الشيخ الحموي .

ولعل أحسن شيء في هذا الموضوع ، أن نستمع إلى سيدي - رحمه الله تعالى - يقول في إحدى خطبه : «كن أيها المؤمن حراً غير مستعبد لأهواء الخلق ونزعاتهم ، إذا رأيت ما لا يتفق وتعاليم الشريعة الإسلامية ، فلا تكن ممثالاً على الباطل ، ولا تكتم الحق وأنت

تعلم ؛ فتكون شيطاناً أخرس ، تلجم بلجام من نار يوم القيامة . وليكن خوف الله تعالى أخوف الأشياء عندك ، وتكن خشيتك مائلة قلبك وفائضة على جوارحك ، اصدع بالحق واجهر به ، ولا عليك إن رضي فلان أو سخط فلان ، فإن الله أجل وأعظم من الجميع . والله ما أفسى المنكرات وعممها ، وجعلها ظاهرة لا يبالي بها ، إلا اغضاً وناعلي القذى ، وسكوتنا على الباطل ، وبمالاتنا لأصحابه . ماضر الجماهير شيء كسكوت الواعظين ، حين يرون المخالفات العلنية ، فلا يزجرون عنها ، وما كثر عدد المبطلين إلا عدم تقريعنا أدنياء المهم وصغار النفوس ، الذين يطلبون رضا الناس بسخط الله عز وجل . هذا الذي زعزع كثيراً من الناس عن مبادئ الشريعة ، وجعلهم يسعون وراء أبناء الدنيا ، لينالوا من حطامها وأوساخها التي يرميها إليهم المترفون .

ألا إن من كان مع الله كان الله معه ، وإن العاقبة للمتقين ، أتقياء القلوب ، ذوو الضمائر النقية ، لهم العز والشرف في الآخرة والأولى ، يعرف لهم أعداؤهم مكانتهم وقدرهم ، ولهم القبول في القلوب ، والذكر العطر ، والثناء الحسن في حياتهم وبعد مماتهم ، والله تعالى هو الذي يطلق الألسنة بمدحهم حين أفردوه بالقصد ، وصدقوه وهو الذي ييده كل شيء .

وأما الوسخون عبيد المنافع ، فلمهم السخط من الله تعالى ، بل ومن العباد أيضاً ، ولهم الذلة والصغار وكال الحقارة ، حتى عند من يتسمون لهم ليسخروهم في أغراضهم ، ولهم قبيح الذكر أحياء وأمواتاً ، قلب الله تعالى القلوب عليهم حين أعرضوا عنه ، والتمسوا رضا

الناس بسخطه جل وتقدس ، والله تعالى هو مقلب القلوب . . إله (١)

الزهد والتواضع

الزهد في اللغة : ترك الميل إلى الشيء ، وفي اصطلاح اهل الحقيقة : هو بغض الدنيا والإعراض عنها ، وقيل هو ترك راحة الدنيا طلباً لراحة الآخرة ، وقيل هو أن يخلو قلبك بما خلت منه يدك .. إله (٢)

ولقد حقق سيدي - رحمه الله تعالى - في حياته هذه المعاني الثلاثة للزهد ، فقد أبغض الدنيا وأعرض عنها ، واشتاق إلى الآخرة وأقبل عليها ، فلم يكن طيلة حياته عاملاً لدنياه بل لآخرته ، وكان - رحمه الله تعالى - يقول عندما يجذعه بعض الباعة : أنا لست من رجال الدنيا . وعرضت عليه المناصب الرفيعة التي تطمح إلى أقل منها أنظار الكثير من الناس ، فرفضها ، وكلما ألحوا في عرضها عليه ، ألح في رفضها والتعالي عليها . عرضوا عليه منصب الإفتاء في حياة ، فرفضه عدة مرات ، ولم يسندوا هذا المنصب إلى أحد طيلة الفترة الأخيرة من حياته ، وجاء أن يقبل ، فما قبله - رحمه الله - ورعاً وزهداً ، وكلما اجتمع بمسؤول كان يقول له : « لا أريد منكم رتبة ولا راتباً » وطلبوا منه أن يذهب لحضور بعض المؤتمرات العلمية على نفقة الدولة ، فرفض خشية أن يكون فيها ما لا يرضاه دينه وورعه ، وعرضوا عليه الحج مع

(١) من الخطب المكتوبة .

(٢) التعريفات للجرجاني .

بعثة الشرف الرسمية ، فأجابهم لقد حُججت بمالي ، ولا يجوز أن أترك تعليم طلابي للذهاب إلى حج النفل . وفكروا في بعض العهود تكليفه بوزارة الأوقاف ، فلما سألوا عنه ، قيل لهم : إن هذا الرجل لا يستلم مثل هذه المناصب . وكان يردد دائماً : العلم عندي أفضل من الملك . ولقد غلب عليه في آخر حياته الشوق إلى الله تعالى ، حتى أصبح يرى في النُزْه التي كان يقوم بها ترويحاً عن نفسه وتخفيفاً من متاعبه ، كان يرى فيها حظاً من حظوظ الدنيا ، لذلك أخذ يدعو قائلًا : اللهم أخرج حب النزّه من قلبي . مع أنه — رحمه الله تعالى — ما كان في نزّهاته إلا عابداً لربه سبحانه وتعالى .

وتحقق أيضاً — رحمه الله تعالى — في المعنى الثاني للزهد ، فقد ترك راحة الدنيا ، وأتعب فكره وقلبه وجسمه من أجل راحة الآخرة ، فما ترك تعليم الناس وإرشادهم وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر طيلة حياته ، حتى في مرضه الذي توفاه الله به ، وما أراح قلبه من هموم المسلمين ، حتى في أشد مراحل مرضه ألماً وخطراً ، أضنى جسمه — رحمه الله تعالى — وأحرق فكره في الساعات الطويلة التي كان يقضيها بين كتبه ، تحضيراً لدروسه ورداً على رسائل السائلين ، فقد كان دائم التنقل من ميدان إلى ميدان ، يخرج متعباً بعد صلاة العشاء من الدرس ، فيذهب لعيادة مريض ، أو مواساة محزون ، أو لإصلاح بين الناس ، وإذا وجد فراغاً في بعض الليالي ، ذهب إلى بعض المحلات التي يجتمع فيها الناس ، فيقضي السهرة كلها في تعليمهم وإرشادهم ، وكنت إذا ذكرته بتعب جسمه ، يحيني — رحمه الله — قائلًا : وماذا

أفعل ! هذا واجبنا ، والقوم لا يحضرون الدرس في المسجد .
وإن كل من زاره في بيته البسيط ، في حيه المتواضع ، عرف
مقدار زهده في الدنيا ، حصر نفسه وعائلته فيه ، وتحمل ضيقه ومتاعب
الطريق في الوصول إليه من أجل آخرته ، ورفض عروضاً كثيرة
ليتحول إلى بيوت أوسع سكناً ، وأجل موقعاً ، خوفاً أن تكون
في أصلها وقفاً أو غصباً .

وحقق أيضاً - رحمه الله تعالى - المعنى الثالث للزهد ، فخلى
قلبه بما في يده ، فضلاً عما في أيدي الناس . فما رأيت أكثر صدقة وبراً
منه ، لا يرد سائلاً ولا يجيب طالباً ، ولا بد أن يكرم كل من يزوره
وما أكثر زواره ! وإذا سافر إلى بلد يتوارى فيها عن عيون أصدقائه
وأحبابه ، حتى لا يكلفهم مؤنة تكريمه ، رغم أنه كان يشاقق لرؤية
بعضهم وزيارتهم ، حتى إنه إذا مرّ ببلد له فيها أصحاب كثيرون ، يوصي
السائق أن يمر بطرفها ، وأن يسرع خلال ذلك ، ويغطي في بعض
الأحيان عمامته ومعظم وجهه ، حتى لا يراه أحد ، وكان يقول لي :
الناس في ضيق مادي ولا أريد أن أكلفهم ولائم من أجلي .

والتواضع من ثمار الزهد ، فما كان - رحمه الله - يرى لنفسه
امتيازاً على أحد ، يكره القيام له ، ويقول لمن يقوم له : كأنكم
تقومون على قاي ، يسعى جاهداً ألا يشعر تلاميذه أن له ميزة عليهم ،
فإذا نادى أحدهم ساهياً باسمه ، اعتذر بعد ذلك منه ، يخدم ضيوفه
بنفسه ولو كانوا تلاميذه ، ويقدم لهم الطعام بيده ، يحمل حاجاته ولا
يكلف أحداً بحملها ، ينزل إلى السوق ويشتري حاجات بيته بنفسه ،

يتمنى ألا يعرفه أحد ، ولقد سمعته مراراً وهو يقول : « ما أجل حياة
الذي إذا حضر لا يوقر ، وإذا غاب لا يفقد » لا يسمح لتلاميذه أن
يسيروا خلفه ، بل كان يأمرهم أن يتفرقوا ، مستشهداً بكلمة الرفاعي
- رحمه الله - : كم طيَّرت طقطقة النعال خلف الرجال من عقول .
ولا يسمح لهم أيضاً بأن يُطروه إطراءً زائداً عن حدود الشرع ، ولما
كتب له أحد تلاميذه رسالة أطرى فيها الشيخ كثيراً أجابه قائلاً :
« وبعد : فأرجو الاقتصاد في التعبير ، ولكن شرعين ، فإنه
يرضيني ما يرضي الشرع ، ويسخطني ما يسخطه . إنه لا يجوز تقبيل
الأرض فما ورد من هذا في كتابك إليّ ، لا يجوز شرعاً ، ولقد انقبضت
نفسي لما رأيته ، حتى لقد ضربت على الجملة التي أفادت هذا المعنى ، ولقد
نص فقهاؤنا - رحمهم الله تعالى - على حرمة تقبيل الأرض بين أيدي
العلماء وغيرهم من المعظمين . فلنقف عند حدود الله ولا
نتعدّها . . . إله » (١) .

الوفاء

إذا أردت أن تعرف وفاء الرجل فانظر حنينه إلى وطنه ، وما
من بلد حل فيه سيدي ؟ إلا حن إليه ، كأنه ترك جزءاً من روحه
وقلبه فيه ، فكيف كان حنينه إلى بلده الذي نشأ فيه ؟

(١) من الرسائل المحفوظة .

وإذا أردت أن تعرف مدى حبه لوطنه ، فاستمع معي إليه
وهو في حلب أثناء دراسته في مدرستها الشرعية .

يا عين جودي بدمع منك مدرار على زمان مضى والأهل والدار
أيلم أرتع في ظل النعيم ومن طيب المسرة قد قضيت أوطاري
سقياً لدهر مضى والأنسُ يجمعنا ويلجلي البدرُ محفوفاً بأزهار
رعى الإله بقاعاً طاب ربعها فيها حيثُ وفي جنتها داري
فإن ذكرتُ الحى حنّ الفؤادُ له إذ في المصائب قد قضيتُ أسفاري
وله على العاصي ذكريات عذبة يحن إليها قائلاً :

يرحمُ الله عهدنا يوم كنّا إذ رشقنا من الكؤوس زلالا
كنتُ حول العاصي وبين جنانٍ ألبستها يدُ الإله جمالا
مذ جرى الريح في الرياض عليلاً وأغدا الغصن زاهياً مختالاً
وتجلتُ شمسُ السماء ملكاً يلا الكون هبةً وجلالا
ما ألد المقام بين ربوع قد جباها الجمال ربي تعالى
يا أهيلَ الوفاء إن فؤادي من فراقِ الأحباب ذاق الوبالا
قد بعدتم وفي حشاي سغيرٌ وهنائي قد غاب عني وزالا

ويئن قلبه شوقاً إلى حماة فيخطبه معاتباً :

يا قلبُ ويحك كم تنن بلبك الساجي دجاء
تتذكر الإلف الجم لوطيب عيش في حما
أواه ما أحلى أوبر قات مضت أواه آه
عيشٌ لذينة ناعمٌ وزماننا بالأنس زاه

البعْدُ قد سحقَ الفؤادُ دَفْصارَ مَيْتًا في حِشَاءِ
 لَيْتَ التَّداني عائدٌ فنَدوقَ من شَهِدِ جَناءِ
 ولما أقامَ في حَلبَ ، أحبها وأحبَ قراها التي كان يَتَنَزَّهُ فيها ،
 فقال فيها :

يا رِيحَ إِمّا جُزْتَ جَنَّةَ تادِفَ فترَفِقي بِمساكنِ الأصحابِ
 وإذا وُصِلتِ إلى رِياضِ بَزاغَةٍ فاقْرِ السَّلامَ على فِسيحِ رِحابِ
 هلا تَذْكُرتُم مَشوقًا نائِبًا يَهْفُو إلى صَحبٍ لَه أَحبابِ
 يا لَيْتَ أيا ما لَنا قد صُرِّمَتْ في قُربِكم دامتْ مَدى الأحقابِ
 ولا تَسألُ عن مَدى تَألمه عَندما فارَقَ مَصرَ بَعْدَ أنْ أنهى دَراسَتَه
 فيها ، يَكفِيكَ أن تَسمِعَه يَقولُ :

ذَبْتُ يا مَصرَ مَذا عَزَمْتُ رَحيلاً ولو اسطَعتُ عَشتُ فيكَ طويلاً
 صانَكَ اللهُ من صَروفِ اللَّيالي وتَنائَتْ عَن جانِبِكَ قُفولاً
 لَيْتَ شِيعَري يا مَصرُ هَلْ عَوْدُ بَعْدَ بَعْدٍ وهَلْ أُنالُ وُصولاً
 أنا إنْ عَشتُ عَن حَماها بَعيداً تَخِذْ القَلبَ نَحو مَصرَ سَبيلاً
 وإذا كانَ حَنيَنه إلى الأوطانِ والبُلدانِ هَكَذا ، فَكيفَ كانَ
 حَنيَنه إلى القُلُوبِ التي أَسَكَنَها في قَلبِه ، وإلى الأرواحِ التي امْتَرَجَتْ
 بِروحِه ، وهو الَّذي كانَ يَصْرِّحُ أَنه من كَثَرَةِ تأثيره على فِراقِ أَحبابِه
 عَند نَهايةِ دَراسَتِه في حَلبَ ، جَعَلَه حيناً ذَهَبَ إلى مَصرَ يَودُ ألا يَصابِحَ
 أَحداً ؛ كي لا يَتَأثَّرَ حينَ فِراقِه .

ذروة الحنين والشوق في قلبه كان لرسول الله ﷺ .

يا حبيب الرحمن يا صفوة الخلد
 يا ولي وسيدي وإمامي
 لا أي لا أخي ولا صدر أمي
 بلغوا شأوك العليّ ببري
 يا بنفسي لفقاً ولو طرف عين
 حبّ هذا النبي سرّه انقيادي
 والحق أن سيدي - رحمه الله تعالى - من الذين وصفهم رسول
 الله صلى الله عليه وآله وسلم في الحديث الذي رواه مسلم عن أبي هريرة
 رضي الله تعالى عنه : « من أشدّ أمتي لي حباً ، ناسٌ يكونون بعدي ،
 يود أحدهم لو رأياني بأهله وماله » .

ثم حينئذ لشيوخه ومرشده أبي النصر ، ولقد حدثتكم عن تعلق
 سيدي به في حياته ، وأزبدك الآن عن وفاء سيدي له بعد وفاته .
 وقبل أن تقرأ حديثي ، اقرأ معي للسيدي - رحمه الله تعالى -
 هذين البيتين :

خليّ ما فوق البسيطة كلّها ولا بين أحبابي على القلّ والكثير
 ولا في فؤادي ساكنٌ أبد المدي سوى سيدي الشيخ الإمام أبي النصر
 قلّ أن تجلس مع سيدي - رحمه الله تعالى - في مجلس ، إلا
 ومجدتكم عن شيخه العظيم أبي النصر ، وما من مرة زار فيها حمص أو مرّة
 منها ، إلا زار قبر أبي النصر - رحمه الله تعالى - بل إن أكثر زياراته
 لمحص كانت من أجل زيارة قبر أبي النصر . هذا الوفاء تجلّى بصورة
 عملية في حب سيدي واحترامه لأولاد أبي النصر وأحفاده ، وهل
 تصدق أن شيخاً مثل سيدي بجلاله الديني ووقاره العلمي ، يقبل أمام

الناس يد شاب في سن أولاده ! لقد رأيته بعينيّ يفعل هذا في أحد شوارع إدلب المزدهمة بالناس ، في أحد أيام العيد بأحد أحفاد شيخه أبي النصر رحمها الله تعالى .

هذا الوفاء ما كانت الأيام تزيد به إلا ثباتاً ورسوخاً، ولكم كنت أسمع منه هذين البيتين للشيخ الرواس - رحمه الله تعالى - يعبر بهما عن رسوخه وثباته على حب شيخه ووفائه له :

لو تقطعتُ بوجدي إرباً قدمي عن نهجكم ما زلنا
وذراعي لو بسيف قطعتُ أبداً وجه السّوى^(١) ما طرقا

الوفاء عند سيدي - رحمه الله تعالى - سجية من سجاياه التي فطره الله تعالى عليها ، لا تجد فيه أي تصنع أو تكلف ، زاده الخلق الديني صفاءً وجلالاً ، فمن الوفاء أن تشكر الناس وتكافئهم على معروفهم ولو كانوا كفاراً ، ورسول الله ﷺ سيد الأوفياء القائل في أسرى بدر : « لو كان المطعم بن عدي حياً وكلمني في هؤلاء لنتنى لأطلقهم من أجله » وذلك لأن المطعم أدخل النبي صلى الله عليه وآله وسلم مكة في جواره ، بعد أن منعه المشركون من دخولها بعد خروجه إلى الطائف ، وهو القائل أيضاً في الحديث الذي رواه الترمذي عن أبي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه : « من لم يشكر الناس لم يشكر الله » ولقد تمثل سيدي بهذا الخلق النبوي الكريم ، فما من أحد صنع معه معروفاً إلا شكر له الشيخ صنيعه وكافأه عليه ، مهما كان

(١) السوى : الغير

هذا المعروف قليلاً ، ولقد سمعته ينثي على شخص ثناءً كثيراً، ويدعو له أكثر من مرة ، لأنه ناول الشيخ إبريق ماء طلبه منه . وهذه المناسبة أحب أن يعلم الذين قدموا دماؤهم لسيدي - رحمه الله تعالى - أثناء مرضه ، سواء في حماة أو في بيروت ، والأطباء الذين تفاقوا في خدمة الشيخ وفي السهر عليه ، والأحباب الذين كانوا يبيتون حول بيت الشيخ في الليالي العصيبة ، أحب أن يعلموا جميعاً ، أن سيدي - رحمه الله تعالى - لن ينسى معروفهم هذا ، وأن الله سبحانه وتعالى سيكافئهم عليه أضعافاً مضاعفة ، ببركة هذا الوارث المحمدي العظيم .

ولما كان الوفاء سجية عنده - رحمه الله تعالى - فقد شمل كل الخلق حتى الحيوانات . وكم تدهش عندما يحدثك عن حبه لهر لجأ إلى بيته ، فرباه وحنأ عليه ، ولكن الهر لما كبر عاث في البيت فساداً ، فاضطر الشيخ بعد إلحاح أهل البيت ، أن يبعد الهر إلى بيت صديق له في أطراف البلد ، وكان الشيخ - رحمه الله تعالى - يزور صاحب البيت من أجل رؤية الهر والاطمئنان عليه .

الظرف واللفظ

وفوق كل هذا ، لطف نفسه ، وظرف لسانه ، وعذوبة روحه ، واسألوا كل من أسعده الحظ بجالسته ، هل شبع من لطفه وظرفه ؟ ! وهل ارتوت نفسه من أنسه ؟ ! .

إذا جلست إليه ، غبت عن زمانك ومكانك ، وانطلقت

بنفسك وروحك ، تسبح في بحار الجور والسرور ، وإياك إياك
أن تطرح موضوعاً للبحث ، أو تستفسر عن مسألة ، فأجل المجالس ؛ المجالس
التي يترك الشيخ فيها إلى طبيعته وسجيته ، ففيها يفتح لك الشيخ قلبه ،
فتفيض أنواره ، وتهتز أوتاره ، فتجد نفسك أمام مائدة أدبية أخاذة ،
تحيرك طعومها ، وتبهرك ألوانها ، وتنعشك روائعها .

عرف تلاميذ الشيخ هذا ، فكانوا إذا خرجوا مع الشيخ في
نزهة ، تواصلوا فيما بينهم بالصمت وترك الأسئلة . وإذا أردت صحبة
الشيخ في نزهة ، فاترك للشيخ اختيار المكان ، فهو - رحمه الله تعالى -
ذواقة للجمال ، فيما أن يأخذك إلى الجهات الشرقية من حماة ، لتجلس
قرب قمة نواخير العوجيات مشرفاً على العاصي ، وهو يتهادى بين
البساتين . أو يصعد معك إلى مشارفها الغربية ، لتطل على حماة ،
فتشهد قمم المآذن بين أشجار الحور المتناثرة على ضفاف العاصي . أو إلى
السهول الخضراء الجنوبية قرب المصافي ، حيث المياه المنحدرة من المصافي
إلى الوديان . أو يجلسك قرب ساقية الري عند غروب الشمس ، تتأمل
معه الغروب . وإذا وجدك متعباً اكتفى بمحديقة البشريات ، وأجلسك
معه تحت شجرة ضخمة ، تكاد غصونها تلامس الأرض ، مسنداً
ظهره إلى ساقها ، مستقبلاً النهر وأشجار الصفصاف السابجة فوقه .

يا بنفسي وروحي تلك الأيام ما أعذبها وما أحلاها ! ذهبت
بذهابه ، وانتهت بوفاته ، ولم يبق منها إلا ذكريات ، ذكريات
تنثني بها النفس ، ويحترق أسفاً على فراقها الفؤاد .

ولطفه وظرفه - رحمه الله تعالى - لا يفارقانه ، سواء في دروسه

الخاصة أو العامة ، يتحف تلاميذه كل فترة بأنواع الدعابات ، ويروي لهم أجمل النوادر الأدبية ، يروّحهم بها ساعة بعد ساعة ، ويحمّضهم بها فترة بعد فترة . وكذلك شأنه في المدرسة بين طلابه ، إذا أحس بتعب في أجسامهم وخمول في تفكيرهم ، شدّ عزائمهم ، وأزاح خمولهم بالمسح اللطيفة والنكات الظريفة .

واسألوا أصدقاءه الحمصيين والمصريين ، عن مجالسه معهم ومنادماته لهم ، خاصة مع الحمصيين ، فله معهم جولات كثيرة ، فإذا أكثروا عليه وهو الحموي بينهم ، التفت إليهم قائلاً : والله لو لم يكن شيخى حمصياً ، لقلت كذا ، وقلت كذا ، مشيراً إلى النوادر الحموية الكثيرة عن أهل حمص .

وفي مصر التقى ظرف الشيخ ولطفه مع ظرف أهل مصر ولطفهم وحبهم للدعابة ، حتى اشتهر بينهم ، ولما كانت أكثر نكاتهم تنصل بالفول - طعام عايتهم الرئيسي - أصبح الشيخ عندهم ملكاً للفول ، وبايعوه على هذا ، فقال رحمه الله تعالى :

يا عصبّة الفول دمت لي ودمت لكم	ودام مربعكم بالفول مزدانا
عشقتم الفول أشياخاً وشباناً	واقدم أقمتم لهذا العشق برهانا
هذي قدوركم بالفول زاخرة	أزيناها ملاً الأكوان ألحانا
وريجها عطّس الأرجاء قاطبة	حتى غدا كل قلب فيه ولهانا
وقد أحبك من ليس يعرفكم	(والأذن تعشق قبل العين أحياناً)
يا عترتي يا أهيل الفول مجدكم	سأمر وحاسدكم قد بات حيرانا
أكلتم الفول حتى جل قدركم	ونلتهم بهواه في الملا شانا

يا ويل من لا له في جمعنا صلة
فالقول من رغبته سريره
ومن يكن راعياً فيه على شغف
وقال - رحمه الله تعالى - أيضاً :

ألا يا محب الفول أصغ لقولتي
يسيل لعابي إن شممت غيره
وعيني قرت مذ رأيتي مقبلاً
ألا يا محب الفول خذني مريباً
فقول فؤول فاحترس من تشاؤم
وإنك إن تأكله كل صبيحة
فكله بليمون وزيت طحينة
ولا ترهق في هذه فهي عنصر
ألا يا محب الفول إنا لمعشر
فكن راسداً واقبل نصيحة وامق
ألا ليت شعري هل أذوم مصاحباً
وإن غرامي فيه غير مفارقي
وقد علم الأقبام أنني مدنف
أهيب بقومي أن يهبوا لأكله
ألم يعلموا ما فيه من طيب مطعم
عسى قدرة الفوال يعبق ريحها

فقد عاد هذا الفول موضع فتنتي
ويخذلني صبري وتضعف قوتي
عليه بقلب صادق وبهمة
وكن سامعاً قولي مجلاً نصيحتي
فإن اسمه يقضي بحسن المظنة
تَرَ الخير سحاً في الضحى والعشية
وثوم وفجل واصطحبه بشطة
له الفضل في تحصيل طيب ولذة
بلغنا بأكل الفول حد البطولة
وعن حب هذا الفول لا تتلفت
له إن بعدي عنه يسفك عبرتي
وذاك لعمر الفول أصل بليتي
عُرفت بحب الفول بين عشيرتي
وإني لأرجو أن يدينوا بنحليتي
ومن حسن لون قد تجللى بشقرة
فيظهر فضل الفول في كل بقعة

وأنتم أهيل الفول أزكى تحية لكم من فؤاد عامر باحبة
وفي حماة ، كتب إلى أحد أصدقائه الحمويين رسالة ، يسأله
عن كيفية صنع المشمش ، فقال :

« سيدي أبا عبد الله سابقاً ، وأبا أيمن لاحقاً . السلام عليكم
ورحمة الله وبركاته ، وبعد أداء فروض التبجيل والتعظيم لمقامكم
الرفيع الكريم أبدي ما يلي :

قيل إن لكم مهارة عظمى ، ودقة كبرى ، ويداً طولى ، في
صنع المشمش الممروس الممعوس الممروس إلخ . . . فهل هذا
صحيح مولاي ؟ وما إخال الخبر إلا حقاً ، وصدقاً صدقاً ، فهل
لكم - ويلكم - أن تدلونا على كيفية صنعه صنعاً جيداً ، بحيث
يسيل اللعاب شوقاً إليه ، ويشط الريال والريق انصباباً عليه ؟
أنحفونا بهذه المعرفة ، ودلونا على طريقها ، فقد أحضرناه ،
ومن نواه فصلناه ، وبقي الآن جريماً طريخاً ، فأمدوه بيدكم الشريفة ،
- ولومن بعد - فإنكم أهل المدد ، وإنكم سيد سند ، وفي الختام
تقبلوا مولاي الهمام ، أعطر التحية وأزكى السلام . . . إهه .

وسطا اللصوص مرة على غرفته في مصر ، فسرقوا ملابسه كلها ،
واضطر إلى شراء ملابس جديدة غيرها ، فكتب إلى شيخه يقول :

« قد أنبت الله تعالى ريشي ، بعد أن سطا السارقون على غرفتي
في غيابي ، وسرقوا منها ثيابي ، وقد شاء الله تعالى أن يلبسني ثياباً
جديدة ؛ فالجبة جديدة ، والثوب جديد ، والطاقيّة جديدة ، والعمامة
جديدة ، والجراب جديد ، واللباسة أيضاً جديدة ، ولا ينقصني إلا

عروس جديدة ، وفرح بها جديد ، ولعل هذه العروس في طريقها إليّ ، ولعلكم تدعون لي بهذا ، فقد طال الأمر عليّ ، وكاد صبري ينفد ، وأنا في بلاد السفور ، ألقى من العنت والضيق ما يرهقني ، ويضيّق عليّ الدنيا .

معلوم لدى سيدي - قدس سره - أن الله حرم كل سبيل لقضاء الوطر إلا الأزواج والإماء . والزواج غير ميسور لي في مصر ، والإماء لا وجود لهن ، فكيف أصنع والجسم متين والدم غزير وو... إلخ ..

الذي أرجوه من سيدي ، وهو أرحم الناس بي بعد المصطفى ﷺ ، أن يتوجه اتجاهاً قوياً إلى الله تعالى في أن يزوجني في هذا الصيف الآتي ، امرأة حسنة ذات دين وفضل ، أرتاح إليها وترتاح إليّ ، وأسكن إليها وتسكن إليّ ، فقد كفاني تعباً وعناءً . . إهـ^(١)

وبعد أن كشف الله عنه الضيق النفسي الذي اعتراه في مصر ، كتب أيضاً إلى شيخه يقول :

أي سيدي ، لقد كشف الله تعالى الضر عني بكم ، فعدت إلى غرفتي وإلى دروسي ، ودخلت الامتحان ، والله تعالى أرجو أن تكون النتيجة سارة جميلة . وكذلك عادت إليّ شهوة الطعام ، فصرت آكل ولكن بشره عظيم ، حتى خشيت ألا يكفيني ما آخذه من الراتب شهرياً ، وقد شكوت هذا إلى بعض إخواني المصريين ،

(١) من رسائل مصر .

فقال لي : اكتب إلى شيخك : (علشان يخلصني التوجه للأكل شوي شوي ، أما لاتسراح الصدر معليش خلتني يكون كثير قوي) ثم طلب مني أن أبلغكم تحياته وجه لكم .. إهـ »^(١)

ثم بعد هذا ألت معي في أن الشيخ - رحمه الله تعالى - كأنه يعني نفسه عندما كتب قائلاً :

« ومن الناس من يعضق من حين يرى ، فيملاً قلبك حبه ، وتحس بانجذاب عميق يقتاذك إليه ، ثم إذا ما جالسته وجدته - حلو الحديث ، حسن المحاضرة ، في فكاهة وظرف ، بصحبها لطف ، يزيدك به تعلقاً وله حبا ، وقد تكون من قبل في هم وحزن ، فيزولان عنك ويبدلان بالأنس والسرور ، فتتمنى ألا تفارقه ، ومهما طال مجلسكما وجدته قصيراً ... إهـ » .

بعض أوصافه رحمه الله تعالى

كما سجلها الدكتور محمد عثمان بخار

كان - رحمه الله تعالى - زهر الربيع في هيئته ، وفي قوة الإنابات حاله ، في تواضعه كالغصن أنقلته قطوفه ، فكلامه ثمرناضج . مهيّب في أنس ، لا يمنعه الوقار من الدعابة وقد يبدوها ، لا تحبسه الهيبة من الضحك ، فطن لموضع النكتة ، سريع البديهة ، مستحضر العلم ، حجة . يجود بعبوته حبا وشوقا ، ورقة ورحمة ، خوفاً وطمعاً .

(١) من رسائل مصر .

دائم الفكرة ، طويل الزفرة ، غزير الدمعة . إذا تكلم تود ألا يمك
لعذوبة بيانه ، إلا إذا غضب ، تمتد له ذلك وفقاً به ، والغريب أن
بديته في غضبه لا تفارقه ، فتقوى حجة ويسطع برهانه .

يقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ، صدام بالحق ،
صريح في دين الله ، وإذا صمت لا تمل صمته لما يسري لك من
قوة حاله .

كانت عصاه تخيف ، كأنها درة عمر رضي الله تعالى عنه ، إذا رغب
أوقف سامعيه على أبواب الجنة كأنهم يعاينون النعيم ، فتطير أرواحهم
شوقاً إليها ، وإذا رهّب كأنهم على شفير النار ، يرون العذاب الأليم ،
فتحقق قلوبهم خوفاً منها ، فكنا نعيش معه بين الخوف والرجاء .

كان حديداً في دين الله ، حاداً على من خالف الشرع والأدب ،
صديقي الرقة ، عمري الحدة .

يتجرى الصدق في أقواله وأفعاله وأحواله ، حتى احتسبته عند
الله صديقاً ، كان عليمًا بزمانه ، ينزل الناس منازلهم ، ويخطبهم على قدر
عقولهم ، شديد الملاحظة في كل شيء ، تكاد نظراته تقع على حركات
جلاسه ، فيعطي كل جليس منهم شطراً من وجهه . وكان صدرًا حيث
جلس ، وما جلس في مكان قط إلا وظننت أن سيضيق عليه لمهافته .
قوي الفراسة ، صادق الكشف ، يكاد يحدثك بجيئة نفسك ،
يدخل إلى الناس من زوايا الخير فيهم ، وينمها لهم ، ولا يقابل أحداً
بما يكره ، يقل عثراتهم ، ويسارع في حاجاتهم .

كان إذا مشى فهمة الشباب ، يقتلع قدميه من الأرض اقتلاعاً ،

لا يلتفت ، يتخير لموضع قدمه وعصاه ، ينتهي بصره حيث ينتهي قدمه ، يكره فضول النظر كما يكره فضول الكلام .

وكان جهوري الصوت ، فيه غنة خفيفة ، تريده عذوبة وجمالاً ، إذا سمعته أخذتك قشعريرة العبقريّة .

فيه حدة يطفئها بالحلم ، لا يغضب لنفسه ، ولا يدع لأحد في عتقه ظلامة - ولو بشرط كلمة - إلا استسمحه ووفاه حقه .

وكان من سادات أهل الفتوة والكرم ، تأوي إليه الضيفان ، ويطلق يده في الإحسان ، ويحب كثرة الأيدي على الطعام ، يحسن إلى الجوار ويتحمل بوائقهم .

كان رقيق الشعور مرهف الإحساس ، يضم بين جنبيه نفساً شاعرية ، لكل لون من ألوان الجمال في الطبيعة وقع خاص في نفسه الشريفة ، يطرب لصوت الميزاب ينهمر بالمطر ، أو خفيف أوراق الشجر . منور القلب جميل الصبر ، كثير الشكر سليم الصدر ، سريع الرضى . تحدثك ملامح وجهه الشريف بما انطوى عليه من الصفاء ، فكأنما تنظر إلى الماء أو إلى البدر في كبد السماء . يؤثر قضاء حوائجه بنفسه على كثرة المتسابقين إليها ، ولا يرى لنفسه حقاً على أحد ، ويقول : « أخشى أن يكون حظي من العلم التعظيم » . زهد في الدنيا فأجبه الله ، وزهد بما في أيدي الناس فأجبه الناس ، فرّ من الشرف فاتبعه الشرف ، زهد في المناصب فمعت إليه ، ثم رفضها وتوقفت عليه .

يحب الوفاء ويحث عليه ويتمثل له ، فيقول : إذا أردت أن

تعرف وفاء إنسان، فانظر حنينه إلى الاوطان ، وشوقه إلى الإخوان ،
والبكاء على ما مضى من الزمان .

إذا أردت أن ترى إيماناً متجسداً ، فانظر إليه ، تترّ جوارحه
ومنافذ روحه قد استقامت على أمر الله ، فكيف بحقيقة روحه الشريفة ،
ونفسه الزاكية المطمئنة ، فكأنه قرآن يمشي على الأرض . ما رآه أحد
من أهل القبلة إلا أحبه ، ولا عدو إلا هابه . يدقق فكره بالحلال
تورعاً ، حتى كاذ يضيق عليه رزقه ومنزله ، ويوصي بعدم الشبع والتوسع ،
ويقول : **إننا في زمان من لم يأكل الربا أصابه غباره .**

ديدنه العلم ونشره ، ودرء الشبهات ، فعلمه جامع لشتى العلوم ،
يكرم العلم ويجل العلماء ، يشغله ذكر الله ، رضي الله عنه وأرضاه

تطرقه الأحوال الشديدة ، فلا تفارقه حتى على المنابر ، فتبدو
عيناه الشريفتان كأنهما جمرتا نار تتوقدان ، لا يطاق النظر إليهما ، فيصبح
تارة ويبكي تارة ، فيسري ذلك إلى من حوله بالصياح والبكاء
والاضطراب .

كنت استعذب النظر إلى بحياه — رحمه الله تعالى — فأسارقه
الطرف ، وما استطعت أن أملاً عينيّ منه مرة واحدة ، حريص على
طهارة ثوبه وبدنه ، وما وقعت عينيّ منه إلا على لطيف جميل طاهر
نظيف ، وما اتصل نظري بنظره الشريف ؛ إلا وشعرت بأن قلبي
جناح عقاب دائم الحفقتان ، يريد أن يقفز إليه قفزاً ويهتز ، وما جلست
إليه مرة قط وتمنيت أن أنصرف ، وما فارقت إلا وبفارغ الصبر
انتظرت لقاءه .

الباب الخامس

محامدُه الأدبيّة

وجميع الآل والصحب الكرام
يا أحيائي بكم قلبي هام

وعلى الهادي صلاة وسلام
ما شدا الحامد يوماً قائلاً

محمد الحامد

تمهيد

هذا الفصل ليس دراسة لأدب الشيخ - رحمه الله تعالى - إنما هو عرض لبعض آثاره الأدبية : الشعرية والنثرية ، تكميلاً لمهمة الكتاب في تسجيل مآثره وملامح شخصيته العظيمة رحمه الله تعالى .

أما الدراسة ، فأتراكها لأهل الاختصاص والمتفرغين لهذا الشأن ، ومن المعلوم أن الشيخ - رحمه الله تعالى - جمع الله له العلم والأدب ، فلقد كان عالماً وشاعراً ، ولكنه - رحمه الله تعالى - رجّع جانب العلم على الشعر ؛ حرصاً منه على خدمة دينه . بيّن - رحمه الله - ذلك في الرسالة التالية التي أرسلها إلى أحد تلاميذه :

« يا بني ، لأن تكون عالماً فقيهاً خير لك والأمة من أن تكون شاعراً أديباً ، إنما إلى أن يكون منك عالم يحقق أحوج منا أن ينشأ منك شاعر مفلق . ولقد كنت في الماضي أعاني النظم والشعر ، ثم انقلبت إلى العلم ، وإليه توجهت على ما في من خلقة شعرية عاطفية عنيفة ، حتى إنني لأهتز أقوى اهتزاز لبيت من الشعر يلامس مني مكان الحس الروحي الديني ، وقد اضطرب ، وقد أبكي ، وقد تغشاني الحال التي تغشى أصحابها بشدتها ، ولكنها تقلع عني بسرعة لانشغالي

بالعلم ، وهذا من فضل الله عليّ وعلى الناس . لا بأس بقليل منه
ينظم في الأغراض الشريفة والمقاصد الحسنة ، أما انصراف الهمة إليه
فخسران أرباباً بك عنه ، لا سيما في هذا الزمان الذي كثرت فيه الشعراء
والمتشعرون ، وإن في منظوماتهم ما هو رصف كلام فقط ، دون أن
يكون للروحانية صلة به . . . إله .

ولعل ما في هذه الرسالة يغنيني عن كل حديث في هذا الموضوع ،
(فأهل مكة أدرى بشعابها) ولقد تحدث سيدي عن نفسه ، فوصفها
وصفاً يتعرف القارئ منه على الملامح الرئيسية لشخصية سيدي الأدبية
وأبعادها ، ونظرته إلى الشعر وعلاقته به . ونظراً لاهتمامه - رحمه
الله - بالعلم لم يعتن بجمع شعره ، لذلك ضاع أكثره ، وما بقي منه
حرصت على جمعه ، وقد ذكرت قسماً كبيراً منه في ثنايا الكتاب ،
وأذكر فيما يلي قسماً آخر منه .

قال - رحمه الله - في مدح سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه
وآله وسلم :

يا حبيب الرحمن يا صفوة الخلد	ق ويا منيتي وراحة روحي
يا وليي وسيدي وإمامي	أنت لي خير مشفق ونصيح
لا أبني لأخي ولا صدر أمني	لا ولا ذو الإخاء خيدن الروح
بلغوا شأوك العليّ بير	أو وفاء أوفي الخنان الصريح
يا بنفسي لقا ولو طرف عين	وبأهلي وكل غال ربيع
فنعيم اللقاء فيه حياتي	وهنائي وفيه تشفى جروحي

حب هذا النبي سرُّ انقيادي
والمحبون طائرون قلوباً
ملك الحب أمرهم فاستكانوا
ويخافون أن يكون انفكاً
حبذا العيش والرضى عيش قوم
وعليك الصلاة مسمى ومتغدي
وعلى آل والصحاب وأهل الـ

وأخو الحب ما به من جموح
وباب الحبيب كم من طريح
لهواه أسرى إسرائي مريح
أو براح يريح من تبريح
في غرام كم فيه من مستريح
تتوالى مع السلام الرجيح
حب والمدح بالبيان الفصيح

وقال - رحمه الله تعالى - يصف أشواقه للنبي صلى الله عليه -

وآله وسلم :

خطرات الهوى تروح وتغدو
وأخو الحب بالوفاء مواف
شوقه طائر إلى الحب ما لا
والهوى مالىء الجوانح منه
وعذاب التبريح يلقاه عذبا
إن حداه الحادي جرت من جواه
كله للرضا رجاء ويخشى
يا هنائي إن كان يوم منائي
إن راجي الرضى يسير حثيثاً
وأراني صفر اليدين فما عندي
لا خبيء من صالح في وفاض

ولقلب الحب حل وعقد
أمره في الغرام صدق وعهد
شوق في مذهب المحبين حد
إن تراخى وجد تجدد وجد
وفناء الهوى فلاح ورشد
أدمع في الحدود تشدو وتحذو
أن يعوق الوصال صد ورد
مُدْعماً باللقا وحسي وعد
شأنه في المسير سبق وجد
سعي وهل لمثلي عند ؟ !
إن زها العاملون فيما أعدوا

ربّ عبدٍ بالحنان وارحم عبّيداً ما له من سؤال عفوك بُدّ
وأذقه من الرضى نفحاتٍ ما إليهنّ في المذاقة شهّد
صلّ ربي دوماً على قلبٍ حيٍّ وعلى الآل ما تروّد حمّد
مع سلامٍ تنها به الروح منه ما تغنى حادٍ وأقر سعد
وله في مدح سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قصائد
كثيرة ، عبّر فيها عن تعلقه الكبير بالجناب المحمدي ، ولكنها - مع
الأسف الشديد - ضاعت . ومن جملتها قصيدة أرسلها عام ١٣٥٧ هـ
مع أحد الحجاج ، لتتلى قبالة الحجرة الشريفة ومطلعها :

باعتاب طه لي مثال متيم يلوذ لى الأعتاب بالذلّ معلّم
أما أكثر قصائده المحفوظة ، فهي التي قالها في مدح شيخه
ومرشده العظيم محمد أبي النصر - رحمه الله تعالى - والسبب في حفظها
أن سيدي - رحمه الله تعالى - كان يرسلها إلى شيخه ، فيعطيا الشيخ
إلى ولده فضيلة الشيخ عبد الباسط حفظه الله تعالى ، ليحفظها ، فجزى
الله الوالد العظيم وولده الكريم خير الجزاء .

ولقد سبق لي ذكر بعض هذه القصائد ، وأزيد القارئ قسماً
آخر منها .

ففي الثالث من شوال ١٣٥٦ هـ كتب - رحمه الله - وهو
في مصر :

هي الروح تسري في الهوى حيثما يسري
وتصعد في نجد وتهبط في غور

وكل منها أن يكون أليفاً
 وأنكر منه أن يكون مُتَّيماً
 فذاك أسيء فوق الأسيء ومرارة
 ولولا له الآمال بالقرب واللقاء
 ولكنها تبدو فيغدو بفرحة
 خليلي ما فوق البسيطة كلها
 ولا في فؤادي ساكن أبد المدى
 فروحي به هامت وقلبي له عنا
 أجل إمام قام في الناس مرشداً
 ونادى بهدي فاستجاب له الألى
 فقاموا خشوعاً ثم تاهوا بجمعهم
 وما مثله فيهم وقد لاح نوره
 هو القطب في الإرشاد والمدد الذي
 كريم المحيّا في جلال وهبة
 له الهمة العليا علني مقامه
 تقي سخي طيب القلب خاشع
 يقوم ظلام الليل والناس هُجِّعُ
 وإن سمع القرآن أطرق باكياً
 تبارك ربي خصه بفضائل
 لقيتُ شيوخاً غيره غير أنني
 وكيف ولي عهد وثيق بحبه

بمشهدها والبعد من أنكر النكر
 قصياً ومرمياً بشيء من الهجر
 بجانبها يحلو الزعاق من المر
 قطي حزناً أو غاص في أبحر الضر
 ويكن مرتاحاً ويأمل باليسر
 ولا بين أحبابي على القل والكثر
 سوى سيدي الشيخ الإمام أبي النصر
 وذكراه في جهري وسري في سري
 فسقت له الأرواح من عالم الذر
 أريد بهم خيراً وخير على خير
 هياماً لشيخ الكل في محفل الذكر
 عليهم إلا البدر في الأنجم الزهر
 تلبن به صم الجنادل والصخر
 وسم إذا تلقاه يلقاك بالبشر
 وبين زجال الله مرتفع القدر
 أجر ضعة في نفسه واسع الصدر
 فيجد مولاه إلى مطلع الفجر
 ووالى بدمع في التحدر كالقطر
 وفتح ربي من يشاء بلا حصر
 وحق الهوى ما ملت عنه إلى غير
 وإني وافٍ لست في الحب ذا غدر

على أنه للروح أعظم قائد - بصير بأحوال القلوب أخو خبر

•••••

أيا سيدي حتى م أبقى مقصراً	أسير على بطة وأعرج في سيري
وحتى م أفني العمر لا أنا آخذاً	نصيلاً من التقوى ولا مصلحاً أمري
وكم أتمنى أن تحول حالتي	فأقرب من خير وأبعد عن شر
فبالله يامولاي جُدْ لي بدعوة	تنير بها قلبي وتصلحني عمري
ومنْ أيا شيخ الرجال بنظرة	أعود بها في الناس منجبر الكسر
ويا صاحب القلب الرحيم تخنناً	على ابن لكم يشواقكم وهو في مصر
أحبكم مولاي حباً مبرحاً	وحسبي هواكم مؤنساً لي في قبوري
وأرغب في أن تلحظوني بسركم	وحسبي رضاكم عدة لي في حشري
وإني والله الفقير بذلة	وعزيّ أني للكرم أخو فقر
وحبي رسول الله للقلب مالىء	وحبي رسول الله من أنفع الذخر

•••••

لقد نبت يامولاي عن خير مرسل	وخير حبيب من به معقد الفخر
رسول إله العالمين وحبته	وسيد خلق الله في البر والبحر
عليه صلاة الله ما أن مغرم	وما دام مشتاق بسير الهوى يسري

•••••

وفي مفكراته كتب رحمه الله تعالى :

الخميس - ٧ صفر - سنة ١٣٥٣ هـ

في هذا اليوم ، سافرت من حماة إلى حمص ، لزيارة سيدي العالم
العامل والمرشد الكامل ، السيد الأستاذ محمد أبي النصر قدس الله
تعالى سره :

تترامى روحي إلى أرض حمص وفؤادي تهزه الأشواق
وبروحي حُبُّ أقام بقلبي هو للداء كله ترياق

•••••

وفي ٢٥ - صفر - ١٣٥٣ هـ قال رحمه الله تعالى :
هبت علينا نسمة حمصية فازاحت الأكدار عنا والعنا
والروح تسعى قبل جسمي للقاء ولقاؤكم فيه المسرة والهنا
أضحى فؤادي في هواكم عالقاً وبجبكم يا سادتي متمكنا
فلكم آثار الوجد مني ساكناً يدع الكئيب الصب في حال الضنا

•••••

وفي ٢٦ - صفر - ١٣٥٣ هـ قال رحمه الله تعالى :
يا سادتي والله أنتم مقصودي وهو لكم ديني فجودوا بالمني
قد خالط الشوق المبرح أعظمي والحب في الأحشاء أمسى ساكناً
منوا علينا بالقبول تكرمنا أنتم أولو الأفضال أرباب السنن
صلى الإله على الجيب محمد ما ذاب قلب الصب والظهر انحنى

•••••

وفي ٨ - شوال - ١٣٤٨ هـ قال رحمه الله تعالى :
هو البدر إلا أنه ليل تمه غدا مشرقاً وسط السماء منيرا
هدى الله أقواماً به كان دأبهم فهاداً وغيثاً في الديار وزورا
فإن رمت رشداً من ضلالك فاتخذ أباً النصر شيخاً واتخذ أميراً
ألست ترى نور الهدى بجبينه وفي حلبة العلياء كان جسوراً

فيا سيدي إني ببابك واقف
وأنسى لمثلي أن يُصدولي بكم
لك الله نرجو من إلهك نفحة
ويدخلنا جمعاً فراديس جنة
بجرمة خير الخلق أحمد من به
وقد نهت في بحر الضلال كثيرا
صلاتٌ تبدت حين كنت صغيرا
بها نتقي يوم المعاد سعيرا
ونملا من بحر الهناء صدورا
نؤمل من رب السماء أمورا



وفي ١٢ - ذي القعدة - ١٣٥٢ هـ قال رحمه الله تعالى :

يا نسيماً سرى إلى أرض حمص
وإذا ما وردت دار حبيبي
يا أبا النصر زاد وجدي وقلبي
آه لو كنت في حماك قطيناً
يا إمامي وأنت قرة عيني
فقوادي من حبكم في عناء
غير أني من فيضكم في نعيم
ولو أني أبعدت عنكم لضاقت
أنت روحي وأنت في القرب أنسي
يا عدولاً في جهله يتارى
وحبيبي له المحاسن تتلى
برضاء الإله فاز وحاز الوصل
والقرب في أعز المراق



وفي ٢٣ - ذي القعدة - ١٣٥٢ هـ قال رحمه الله تعالى :
 بين الحين سر ليس يفشي خط ولا قلم عنه فيحكيه
 نار تقابله أنس يازجه نور يخبره عن بعض ما فيه
 شوقي إليه ولا أبغي به بدلاً هندي سر اثر كتمان تناجيه

•••••

وفي ٢٤ - ذي القعدة - ١٣٥٢ هـ كتب رحمه الله تعالى :
 وقلت في سيدي ومولاي وقرة عيني ، الأستاذ العالم العامل ،
 والمرشد الكامل ، الشيخ محمد أبي النصر خلف الحمصي النقشبندي
 قدس سره :

يا أجبائي بكم قلبي هام فالوحوا الصب الضعيف المستهام
 واقبلوا من ينتشي من ذكركم وله قلب عن الأغيار صام

•••••

آه ما أحلى مقامي عندهم أملتقي من دنكم في كناسكم
 وأراعي شمسكم في حيكم وحياتي تردهي في قربكم

•••••

إن روعي في غيابي طائفة وبأكناف حماكم دائرة
 أنتم أنسي وروحي فيكم علقت والنفس فيكم حائرة

•••••

ليتها دامت سويعات هنا إذ أفؤاد الصب يحظى بالمني
 يشهد الحب وقد زال العنا قد دنا ثم دنا ثم دنا

•••••

إن في حمص لنا كل الشؤون وأبو النصر بها نور العيون
فهو البحر وناهيك به وهو في الإمداد والفيض المhton

•••••

أنا مقتون بشيخ ذي جمال وجلال وعلاء وكمال
في سويداء فؤادي ساكنٌ وحيبي كرمتم منه الحُصَال

•••••

آه كم همت بكم يا سندي ولكم طبتُ ومنكم مددي
ولكم ألستموني حللاً يا أهل الفضل بل والسودد

* * *

وعلى الهادي صلاة وسلام وجميع الآل والصحب الكرام
ما سدا الحامد يوماً قائلاً يا أحباي بكم قلبي هامٌ

* * *

وفي عام ١٣٦٠ هـ بعد وصوله إلى مصر، كتب إلى شيخه أبي النصر
— رحمه الله تعالى — رسالة قال فيها :

سيدي ، قد أسمعتُ الشيخ محمد خالد الأنصاري لما كان في حماة
بعض أقواله فيكم ، فرأيت منه عتياً ، إذ لم أقل فيه شيئاً ، مع أنه
أجازني بالأذان ، وبأعلى السند إلى النبي ﷺ عن طريق الإمام البخاري
رضي الله تعالى عنه ، وقد يسر الله تعالى لي نظم القصيدة الآتية ، وتوارد
عليّ معظمها ، وأنا في السيارة بين بيروت وبافا ، وقد شاء الله سبحانه
— وله الفضل — أن يزيناها بالنبي صلى الله تعالى عليه وسلم وبكم ، فاسمه

الكريم مشرق فيها واسمكم قال له . ولعمري إن مقام سيدي - قدس سره - أحق بأن أقول فيه من مقام الشيخ الأنصاري ؛ مع احترامي إياه وتبركي به ، وهل يحسن المرء إلى غير أصله ؟ وأيضاً فهل فرع الشجرة إلا منها ، وعلى هذا فقد يكون من أسرار ابتدائي به واختامي بكم ، أن الأمور بالخراتيم ، وأنا أسأل الله ختاماً حسناً كحسنكم . هذا وإن أوصاني الشيخ الأنصاري إلى النبي ﷺ بسبعة عشر شيخاً هو منهم ، فأنا أعتقد أنه ليس بيني وبينه ﷺ عن طريقكم سواكم ، فأنتم الباب وعن يديكم الوصول القريب إن شاء الله تعالى . أما القصيدة فهي :

انتجع حمص مطيع الأتار	والخط فيها بالجهد الأنصاري
سيد ربحه ينم عن الصدق	كريم الحصال بـ بدر ساري
علم في العلوم حبر عظيم	طيب القلب ساطع الانوار
يا أبا الفضل أنت فرد بعناك	وفيض العرفان عندك جاري
كم سمعنا منكم حديثاً طريفاً	والكم شقنا بحلو السمار
ولكم كنت بالفوائد شتى	ها معاً كالسحابة المـدرار
نظر ثاقب وفكر صحيح	في ثناياه نخبة الأفكار
فإليكم حقاً تـبحث المطايا	يلجليل الأعمال والآثار
لكم سيدي نسبت وقد نـا	ت بعطف منكم عظيم الفخار
إذ وصاتم هذا الحقير بقوم	هم نقاة التقاة والأبرار
رأسهم أشرف الخلائق طراً	أحمد الرسل سيد الأخيار
يا بروحي حديثه وحللاه	كم بذاك الحديث من أسرار
ليت عيني تراه يالـهف نفسي	بـدمي شم عرفه المعطار

ساعة الأنس بالرسول لعمرى
يا أبا الطيّب الأمان فإني
وقديماً عيذك نالوا أماناً
هذه وصلتي إليكم بإسناد
قد علا واستنار فهو قريب
فباشياخي الكرام أجرتني
فدعائكم حاشا يردوكم حط
وبولاي ذي الأيادي أبي
سيد الأولياء بدر سنهم
هو والله في فؤادي مقيم
كم سقاني من الشراب لذيداً
ولكم بت في حماة أراعي
ولكم هاجر المنام يناجي
يا رسول الإله هذا أبو النصر
فاقبلوني بحبه فأخو الحب يحا
أدخلوني به رحاب التداني
وصلاتي كذا السلام عليكم
وعلى الآل والصحاب جميعاً

ساعة لا تقاس بالاعمار
جئتكم في مذلة وافتقار
منك لما تجلببوا بانكسار
جانيه شيخى الأنصاري
وقد ازدانت بالإمام البخاري
يا ضيا العين - من عذاب النار
به ذو الجلال من أوزار
النصر أرجي دخول دار القرار
الحبيب النسيب رجب الدار
حاضراً أو أكون في الأسفار
وليكنم حائني من الآصار
وجهه المستنير بالأذكار
ربه في دياجر الأسحار
بكم قد بدا عيلى النار
زى بالعفو والإغفار
خالصاً من شوائب الأكدار
كلما ذرّ شارق الأثمار
والحسين يا كريم الجوار

* * *

ومن شعره الوجداني القصيدة التالية التي قالها في مصر سنة

١٣٥٧ هـ :

فتولى وصفوه في النجيب
وعلاه من فوق موج الكروب
وهو إن أن قلت أن حريب
عرض الحظ عابساً بقطوب
بعصيب يجيء إثر عصب
فهو بك من شدة التعذيب
وهذا البلاء كان نصيب
أمل رحمة القريب المجيب
وإذا ما دجى ظلام الخطوب
فأعذني من لوعة التنجيب
وارحم غربة الشئ الغريب
نفحات من فيضك المصوب
وأبلي من الرضا مطلوبي
صلوات على الرسول المهيب

سأقت الأرض بالغريب الكئيب
غرقت نفسه بلجة هم
زفرات له تحال ججيماً
كلما لاح بارق برجاء
وتوات سوء المصائب تجلى
حيل بيني وبين راحة قلبي
وأشد العناء ما كان في القلب
غير أني وإن دهنني الدواهي
في ليالي الآلام يرتقب الفج
رب إني إليك محض افتقاري
وأجب دعوتي وحقق رجائي
وأفص نعمه على القلب فيها
وأدم لي كما تحب رشادي
ومن الله كل آن توالى



وفي مصر استبدت به الأشواق إلى أحبابه فقال :

آه بما تلقى سويداً فؤادي
قد ألع الوجده المبرح في القل
وتهافت مدنفاً من هواهم
آه من مهجتي ومن حر قلبي
إن تراءوا للروح في النوم أصبح
من غرام محرق وقتاد
ب وثاقت روحي لأهل ودادي
والهوى قد يذيب قلب الجماد
زاد رجدي في يقظتي ورقادي
س وأنسي وفرحتي في ازدياد

أوأتاني منهم لطيف كتاب
يا أهيل الوفا تحية قلب
إن هجرتم ففي حناياه بالك
عظمت منهم لدي الأيادي
قلبه نار الجوى والبعاد
أو وصلمت ففي الجوانح شادي



وقال في الاستغفار :

يا أرحم الرحماء مالي حيلة
أنأقد أسأت وأنت رب غافر
يا سيدي يا من إليه شكايتي
أدرك بلفظك نادماً ذا حيرة
مستغفراً مما جنته يدها
إلا الدعاء الله يا الله
وأرحمه مما قد عنا ودهاه
مالا للضعيف إذا أملت كربة
يا رب نفس عن عبيدك كربة



ومن الاستغفار أيضاً قوله :

يا الله باب العفو باب واسع
وبرحمة الغفار أطمع أن أرى
يا رب إن الذنب أثقل كاهلي
بدل بفضلك حالتي وإساءتي
يا قلب حلّ عزيمة الإصرار
فعساه يرحم مثقلاً بقيوده
هو الألى عكفراً على الأوزار
أبدأ بعيداً من عذاب النار
وغدت محسوباً من الأشرار
حتى أضاف لزمرة الأخيار
والجأ إلى الرب الكريم الباري
ويحلّه أمناً وحسن جوار



وقال يرني أخاه شاعر العاصي بدر الدين الحامد :
 يا لها ليلة كوتني بنار طالعتني بأسوأ الأخبار
 غاب فيها بدر فطال سهادي ونوارى أنسي وشب أواري
 سكن الرمس صامتاً بعد شدوي وحدا وحلوي كسجع الهزار
 لهف نفسي عليه أمسى وحيداً ولقد كانت نزهة الشمار
 يلاً القوم حكمة وبياناً ونظيماً من طيب الأشعار
 وله صرخة إذا الحضم أزرى بكرم الأبطال والأحرار
 كنت في حجره صغيراً يتيماً فرعاني رعاية الأبرار
 حاطني من حنانه بإطار وبه انجذب غيب الأكدار
 ولقد كان ذا جنان رفيق بهواني وتلك حال الحيار
 ماله للأذى اعتماد وما كا ن لقلب الرحيم من أضرار
 أمّل الخير والرضا أنت عبد مؤمن بالعلي ذي الاقتدار
 عالق السر بالرسول أمين الله به ذي الفضل أحمد المختار
 سيد الرسل وافد قد أتاكم يرتجي منكم كريم الجوار
 وشفاعاتكم حديثاً وقدماً لجليل الأخطاء والأوزار
 رب فارحم بدر أو عامل بلطف مثلك عبداً أفضى لدار القرار
 واجعلته في جنة الخلد جدلاً نأنت العفو أكرم جار
 صل مولاي - ارضيت على حب لك نور الأنوار شمس الفخار
 وعلى الآل ما ترتل وحي وتلاه العباد في الأسفار

★ ★ ★

وقال في الرضى بقضاء الله وقدره:

رضينا بما قد خطه قلم القضا ولولا الرضا ضاقت بناسعة الفضا
ويا أيها الثاوي وحيداً بحفرة من الأرض إناذا كرون لما مضى
عزاء قلوب ناضجات من الأسى لفقدك، أن العيش كالبرق أومضاً
وكتب - رحمه الله تعالى - بين يديّ الأبيات التالية :

قلت رثاءً على لسان أحد إخواني يبكي صديقاً له مات اسمه
عبد الله :

رعى الله عهداً كنت فيه رفيقي وأنت أعبد الله خير صديق
لقد نعمت بروحي بروحك حقبةً وما بيننا من نكرة وفروق
وها هو حزني مذكوبت مصاحبي وإني بالسلاوات غير حقيق
وأنى لقلبي أن يسر وإنه من الهم والإحراق غير طليق
سقى الله قبراً أنت فيه موئدهً وجادك غيث الفضل كل شروق
وله في الحنين إلى الأصحاب والأوطان قصائد كثيرة مر بنا
بعضها ، ولنستمع إلى قسم آخر منها :

قال - رحمه الله تعالى - يمدح صديقه الأول عالم المعرفة الشيخ
أحمد الحصري حفظه الله تعالى :

حييت يا أرض المعرفة فيك الكرامة والمبرة
فيك الحياة وفي حما لك الروح تسرح في مسرة
منك الذي هو ساكن في القلب إمساءً وبكرة
إن غاب عني غبت عن أنسي ولاقتني المضرة
أو كان عندي كان يـ تي فوق دارات الهجرة

حبّيه قد ملأ الفؤاد
وكتب إلى بعض أصدقائه في مصر بعد عودته إلى حماة :
رعى الله دهرأ سعدت به
وحسب زماماً مضى وانقضى
أجباي هذا فؤادي لكم
لقد فعل الشوق بي فعلة
تركت بمصر صحاباً كراماً
رجال لهم في التقى مارب
وفي حلب حنّ إلى حماة ونواحيها ، فقال :

أهأ على وادي حما
أهأ على تلك الربو
النهر يخترق الريا
دولابه يبيكي ويسه
أنى أرى ذاك الحمى ؟
مدغبت عنه بكى الفؤاد
يا من بقلبي ودءهم
لا تقطعوني إنني
ولما عاد إلى حماة حنّ إلى حلب وإلى أصحابه فيها ، فقال :

(١) عذرة : قبيلة عربية اشتهر أفرادها برقة قلوبهم ونبل مشاعرهم

(٢) اسمان لصديقين له من مصر .

يا رياح الشمال هبي عَلَيَّ
 آه لو دمت لي ودام زمان
 يا أخلاي هل معاد إليكم
 مذ بعد تم أعقبتموني حزناً
 إذ سروري بكم عظيم وعيشي
 إليه يا صاحب هل شجا كم بعادي؟
 واملئني من نفع طيبك رَيَا
 كنت فيه عن اللغوب قصيا
 يرجع العهد عهدنا الذهبيا
 كنت منه وقت التداني خليا
 يا أحباي كان عيشاً هنيا
 فلقد سقت الكروب إلَيَا

ولسدة حبه للجمال وتذوقه له ، أقبل على محاسن الطبيعة يصفها ،
 ويتغنى بمحاسنها ، ويمجد مبدعها ، وبارئها سبحانه وتعالى .

وفي إحدى مفكراته كتب في ١٠ / ذي القعدة / ١٣٤٨ هـ ،
 فقال :

« يوشك الربيع أن يقوِّض خيامه الرحيل ، فودعوه بشم وروده
 ولثم حدوده ، واغتنام أوقاته ، وشرب كأساته ، وإني بادئكم بهذا ،
 فسأقوم إن شاء الله تعالى برحلة أطفئ بها أوامي ، وأروي بها غلتي ،
 من التمتع بجمال هذا الفصل ، والضرب في أرض الله بالطول والعرض ،
 هابطاً بطون الأودية ، وصاعداً قمم الجبال ، فقد فتنني الأرج اللطيف
 لا القد الظريف ، والحدائق الغناء لا القامة الهيفاء ، والجنان الخضرة لا
 الحدود النضرة ، ولا تعجبوا من هذا وإن كان جنوناً ، كذا خلقت
 وما لذة العيش إلا للمجانين .. ! هـ » .

ولما كان في مصر ، قام برحلات كثيرة في بلادها وقراها ، حتى
 وصل إلى أقصى الجنوب إلى الأقصر وأسوان ، وزار الفيوم ورأى فيها
 جو بلده حماة وخاصة نواحيها ، فقال في رحلته هذه قصائد متعددة

ضاح - ويا الأسف - كلها ما عدا القصيدة التالية ، وجدتھا في مفكرته بتاريخ ١٥ ذي الحجة ١٣٥٦ هـ قال - رحمه الله - في أولھا :

في هذا اليوم خرجت إلى منتزه القناطر الحيرية ، وعدت إلى القاهرة بعد العشاء :

خرجنا بكرة نبغي القناطر	وقد علقت بيهجتها الخواطر
وكنا اثنين ليس لنا سوانا	وكل برّ صاحبه يبادر
ولما أن بلغناها بلغنا	منى قد كان مكنون الضمائر
ورحنا نبتغي ربعاً خصباً	لتحلو منه للعين المناظر
فإن القلب ذو شغف مجسن	وحب الحسن قد سكن السرائر
جلسنا في بسط قد تحلى	بأعشاب له منها ستائر
وملنا هكذا حيث انتحينا	ظلالاً تنقي حر الهواجر
وكان مرافقي خير الندامى	يشارك في حديثي أو يشاطر
أخو فضل وذو نبل سليل	لأجادي لهم تتلى المآثر
له شيم وأخلاق ويغني	صلاح الدين عن كل المفاخر
أنسنا في الخائل واغتبطنا	واقدم نعمت بها منا النواظر
وأغصان تميل بالأزاهر	كما مال العذارى بالغدائر
ظهرنا فوق ظهر اليم كيما	يراف لنا الهنا أجلى المناظر
وعدنا والسرور لنا قرين	يسايرنا ويا نعم المسامر

وحب الجمال حب للرحلة ، وسيدي - رحمه الله تعالى - كان كثير السياحة دائم التنقل ، ولما كان يدرس في حلب قام برحلات كثيرة في نواحيها وقراها والأقاليم القريبة منها ، حتى وصل إلى الاسكندرون

ومر في طريقه على مدينة أنطاكية ، ولقد سجل الأبيات التالية في
مفكرته عنها ١ محرم ١٣٥١ هـ :

في هذا اليوم سافرت من حلب إلى أنطاكية .

سرنا نرومك أنطاكية الروم ونبغي حسن منظور ومشوم
الشوق يحدوبنا والحب يدفعنا وفي جنانك تفريج لمهموم
يا ليتني عشت دهرأ في حمى بلدي في مربع هو من خير الأقاليم
الغصن يختال والأرواح باردة والطير يصدح مسروراً بترويم
وعن دمشق كتب مايلي : ١٩ ربيع الأول ١٣٥١ هـ .

إن رمت تنظر جنة الدنيا ففي مغنى دمشق يسر طرف الناظر
وإذا أردت محاسناً قد جمعت فاشرع إلى بحر الجمال الزاخر
فهي الحريدة تردهي في حسنها وتقيه إذ تجلى بوجه زاهر
وفي ١٢ جمادى الأولى ١٣٥٩ هـ وقبل رحيله عن مصر قال رحمه
الله تعالى :

ذبت يا مصر مذ عزمت رحيلاً ولواسطعت عشت فيك طويلاً
كنت بمن رموك بالنكر لكن عاد صوت النكير قولاً جميلاً
صانك الله من صروف الليالي وتناهت عن جانبيك قفولاً
وكذا دمت ما بقيت مناراً لفخار وللعلاء مقيلاً
ما أحيلي خمائلاً ومروجاً مرتع الروح بكرة وأصيلاً
هب فيها النسيم يسحب ذيلاً يؤنس الروض فاتراً وعليلاً
وجرى النيل صافياً سلسبيلاً يملك القلب أو يبل غليلاً

يا رعى الله ما وقفت عليه حين أن نلت بالهنا المأمولا
 ليت شعري يا مصر هل تنم عودٌ بعد بُعدٍ وهل أنال وصولا
 أنا إن عشت عن حماها بعيداً تخذ القلب نحو مصر سيلا
 وللصوفية غزل رمزي يرمزون به إلى معاني رفيعة ، وليسيدي
 - رحمه الله تعالى - في هذا الشأن بعض القصائد ، منها قوله :

فرقت بيني وبين عقلي	بفرقة منك يا حبيبُ
ورحت حيران ذا ولوع	وإن أمر الهوى عجيب
يجرق الشوق في فؤادي	ونار حي لها لهب
وها حشائي بها حنينٌ	وهاك قلبي به وجيب
وقد أضر الهوى بروحي	وأنت ياسيدي الطيب
ألا حنان على غريب	فأنا لله ولهانكم غريب
ولو رحمتم بكاه يوماً	لزال بأس وزار طيب
وقوله :	

ما كنت أحفل بالسواد مزوقاً	حتى جننت بعينك السوداء
سهم مريش من عيونك صائب	أصمى الفؤاد ومر في الأحشاء
يا أسود العينين سحرٌ فيها	هلا رثيت لعلتي وضائتي
حنك السقام وفي رثاك شفائي	ولأنت مبعث راحتي وعنائتي
يا ويح قلبي مذرأى عين المها	ترنو أقام على عظيم الداء
قلب بأعطان المحاسن موثق	يرعى الجمال بعفة ووفاء
طيب الحياة إذا خلا بجيبه	متسترأ عن أعين الرقباء
بعثت عيونك ما تحب من الهوى	فابعث لنا في الحب نور رجاء

إني أرى هذا السواد تالفاً لي دون رتبته سنى الأضواء
وعاه يغمرني فأغدو نائراً وأتبه في بحر من السراء
وقرله :

جذبت يدي إليك فسرت أسعى وقلبي قائلاً سمعاً وطاعة
لعمرك ما المحب أخا امتناع إذا ناداه من يهوى أطاعه
حبيب الروح إما شاء أمراً رآه المدنف المضى متاعه
لدى هذا الحبيب دمي وروحي فيا ويله إن شاء الإضاعه
وليس له - رحمه الله تعالى - في الهجاء شيء سوى قصيدة واحدة
هجا فيها الذباب ، وهي :

قبحت من طير يقوم ويرتمي فوق الموائد بالوقاحة مُعلّم
مها طردت تعود ، تلك وقاحة وبها لعمرى عدت غير مكرّم
قد صرت معروفاً لدى كل الورى بدناءة وبها وُسُمت بيمس
كم ترعج الأجباب في خلواتهم ولكم تغير على الرثود النوم
يا أثقل الثقلاء حسبك ما مضى وكفاك شراً وامتيحاً من دمي
أرقتني وحرمتني طيب الكرى بشنيع ظناتٍ وسوء تهجم
لاصفوا إلا إن رأيتك نائياً إذ أنت يا مشؤوم أصل تدمي
ومن شعره بالدعابات .

قال رحمه الله تعالى : وقد ألفتني هرة ، وكنّت أشعر
بشفقة عليها ، فولدت في هذه الأيام ثلاث قطط صغيرة ، فقال الأخ
الكريم الشيخ سعيد المسعودي البابي مهنئاً لي بذلك :

هنيك هرتك البيضاء قد ولدت
عاشت برغدو عاشوا حامدين لكم
فقلت بحياً له :

وهبتك الهرة البيضاء وما ولدت
فكن لهم محسناً برأ وإن فعلوا
ذليلاً فدونك ضرباً بالسكاكين

ولما ولد للأستاذ الشاعر منذر شعار ولده نعيان ، أرسل له الشيخ
— رحمه الله تعالى — هنيئته بولده ، فقال : دعوة وتهنئة لولدي البار وأخي
الوفي ، الشاعر منذر الشعار بولده نعيان ، على معتبتي عليه بخمريات أبي
النواس ، والخمر رجس من عمل الشيطان^(١) .

يا نعيان عشت في خير نعي
وتسامت بك المعالي لأسمى
وتلاقت بك الخطوط جيلا
ت حسناً وصرن وصفاً ووسما
يا هلالاً ينمو ، سميئك في النسا
من عليك قد حاز حزماً وحلما
في فؤاد يفيض حكماً وعلمها
مد غداً والداً لهذا المسمى
ولعل أعظم مداعباته الشعرية قصيدة الفول التي سبق ذكرها ،
ولقد حظيت بشهرة كبيرة بين طلاب الأزهر في ذلك الزمن ، حتى إن

(١) بين الأستاذ منذر سبب العتاب ، فقال : كنت قبل ذلك بيومين
أو أكثر كتبت فصلاً في صحيفة الغداة قلت فيه : إن خمريات أبي النواس من
رائق شعر العرب ، وكلاماً كهذا ، وأطلت الحديث وأنا أستغفر الله مما كرهه
لي أستاذي الصالح رحمه الله .

الشيخ عبد الباري خطاب قام بتشطيروها، أذكرها فيما يلي تتيماً لصورة
الدعابة الشعرية :

ألا يا محب الفول أصغر لقولتي لقولة حق كالشعاع مضية
ولا تعذر لنسي واقصد في ملامتي فقد عاد هذا الفول موضع فتنتي
ومها أجد قدراً بفول مليئة بخار حشاها من حرارة مهجتي
وربح شذاها كالأمانى تحققت أعد لا شياقي في خبال وحيرة

•••••

يسيل لعابي إن شممت عبره وتهضم أمعائي وتختل فكرتي
ومجذبني هذا العبير بسحره فيخذلني صبري وتضعف قوتي
ولا تعجبن حيه حقاً أضرّ بي فعدت كـيضاً^(١) في تلافيف ظلمة
وحيرني مذرت في الجوع قدره وأرقني فيه لذقني ولحيتي

•••••

وعيني قوت منذ رأيتني مقبلاً على ربحه من بعد يوم وليلة
وأشعر أني حين أقدم هائلاً عليه بعزم صادق وبهمة
ألا يا محب الفول خذني مريباً تسير بتوجيهي إلى خير وجهة
ولا تهاون في نصيحة عارف وكن سامعاً قولِي بجلاً نصيحتي

•••••

فقول فؤول فابتعد عن تشاؤم وحسبك أن الشؤم شر مصيبة
حذار تظن السوء بالفول مرة فإن اسمه يقضي بحسن المظنة

(١) النضو : بالكسر حديد اللجام . والمهزول من الإبل . إه قاموس .

وإنك إن تأكله كل صبيحة حظيت إذن منه بأطيب لذة
فقر به إذاذا الشوق في كل أزمة تر الحير سحاً في الضحى والعشية

•••••

فكله بليمون وزيت طحينة رويناه عن أسلافنا خير أمة
أضفنا إليه قولهم في رواية وثوم وفجل واخلطنه بشطة
ولا ترهدين في هذه فهي عنصر كريم يزكيه بخير شهية
يقولون عنه في الأسانيد إنه له الفضل في تحصيل طيب ولذة

•••••

ألا يا محب الفول إنا لمعشر ذوو عزمات من شيوخ وقية
وتسألنا عن مجدنا ، وجوابنا بلغنا بأكل الفول حد البطولة
فكن راشداً واقبل وصية وامق^(١) له في اختيار الأكل أبرع خطة
ولا تتحير بين لحم وكففة وعن حب هذا الفول لا تتلفت

•••••

ألا ليت شعري هل أعيش مصاحباً من الناس مشغولاً بتأييد فكري
فتبقى بأنصاري مع الحب صحتي له إن بعدي عنه يسفك عبرتي
وإن غرامي فيه غير مفارقي أروح وأغدو وهو قبلة معدتي
إذا الجوع أصلاني تخيلت قدره وهذا لعمر الفول أصل بليتي

•••••

أما وعير الفائحات بعطره وصاد يحب الفول في كل نعمة

(١) ومقه : أحبه فهو وامق . إله قالموس .

ينادي جياع البطن في كل وجبة له القلب مرعى في منام ويقظة
وقد علم الأقباط أني مدنف وقد ذوبت قلبي تباريح لهفتي
وذاع به اسمي كالنسيم وأنني عرفت بحب الفول بين عشيرتي



أهيب بقومي أن يهبوا لأكله كأنني أدعوم لفعل الفريضة
وما زلت أدعوم بشتى وسائلتي وإني لأرجو أن يدينو بنحلي
ألم يعلموا ما فيه من طيب مطعم وشدة إشباع بأرخص قيمة
وما فيه من تمثيله قلب عاشق ومن حسن لون قد تجلّى بشقوة



عسى قدرة الفوال يعبق ريجها كما عبت بالعطّر أرجاء روضة
وتنشي به الركب أن شرقاً ومغرباً فيظهر فضل الفول في كل بقعة
وأنتم أهيل الفول أذكى تحية لكم وأمان صاغها ذوب مهجتي
دعوت بأكل الفول في كل جوعة لكم من فؤاد عامر بالحبّة



دعاني لتشطير القصيدة أنها تشيد بحب الفول أكل الكتبية

تم هذا التشطير في ٢٤ صفر ١٣٦٠ هـ بالقاهرة - مصر .

وأما نثره - رحمه الله تعالى - فقد مرّ معنا الكثير منه ، فيما
عرضت من رسائله وخطبه ، ولهذا سأختم هذا البحث بذكر نماذج من
رسائله الخاصة تلاميذه ، لأنها لون خاص متميز من أدبه النثري ، وهي

تظهر لنا أسلوبه - رحمه الله تعالى - في مخاطبة تلاميذه وإرشادهم وتوجيههم .

أرسل إليه أحدهم من مصر - حيث يدرس في الجامعة الأزهرية - رسالة ضمنها قصيدة يمدحه فيها ، فأجابه رحمه الله تعالى قائلاً :

« من الحقير الفقير إلى الله تعالى الغني الحميد إلى ولده الحبيب...
وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته وبعد : فإنني أحمد الله العظيم الذي لا إله إلا هو سبحانه ، وأصلي وأسلم على حضرة رسوله الكريم صلى الله تعالى عليه وآله وسلم تسليماً .

قرأت كتابك الكريم ، وإن ما أفضيت فيه من العاطفة المحيطة ، كنت أحسه من نظراتك إليّ ، وبما يظهر على صفحات وجهك ونبرات صوتك . فإذا أفضت في كلامك به من بعد ، فإنما تترجم عن واقع أكيد ، وحب عتيق ، والله المرجو أن يجعله منه سبحانه وإليه ، وفي سبيله اجتماعاً وافتراقاً عليه .

يا ولدي ، الأرواح يحاضر بعضها بعضاً ، وتتجاذب على القرب والبعد جميعاً ، بل لقد يكون البعد أمتع ، وعن الانحراف أمتع ، فإن الشوق حارس الأقدمة من التحول ، وباعثها على التعلق ، فيكون التأخي في الله قوياً سوياً ، ومجيداً ومديداً معاً .

ثق أنني أحمل لك في نفسي عاطفة هي بالأبوة أشبه منها بالاستدانة ، على ما لهذه من شرف وعلاء ، وإن كان هناك استخلاص قلبي مني لبعض

تلاميذني الصادقين في الولاء ، كفلان وفلان وفلان إلخ . . . فأنتم
 منهم ، أنت من هؤلاء الذين أتمنى لهم على الله سبحانه أطيب الأمانى ،
 وأرغب إليه عز وعلا في أن يجعلهم من أهل الحسنى في الآخرة والأولى .
 وبعد : فالحمد لله عز وجل على ما وفقك إليه من تيسير الانتساب إلى
 الجامعة الأزهرية ، هو المشكور على هذه النعمة ، وإن الاغتراب في
 العلم مبرور ، فيه ثبوت الأجر ، وانتفاء الوزر منها صحت النيّة
 وخلصت الطوية .

ما كنت أحسب أنك شاعر ، وشاعر مسموع ومطبوع ، إلى
 أن قرأت قصيدتك التي أنحفني بها ، وما أنا لها بأهل ، ولكنه الصدق
 في المودة ، إنه لينطق الأبكم ، ويحيل الباغم^(١) صادحا ، بلنة
 الذكي المين ، وإنك لناطق وامق ، ومحب صادق . . . هـ
 وأرسل إلى آخر ، فقال في مطلع رسالته :

« ولدي الحبيب . . . »

وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ، وبعد : فإن القلوب متقابلة
 والأرواح متناجية ، والدنيا راحلة ، والبقاء في دار القرار ، وحسبنا
 الحب في الله ، والسير في ركب الصالحين ، والانضمام إلى قافلهم المباركة
 التي رضى عن الله ورضي الله عنها . . . هـ .

وفي رسالة أخرى إلى تلميذين من تلاميذه قال :

« أوصيكم بتقوى الله ، والبعد عن مخالفة أمره سبحانه وتعالى ،

(١) الباغم : الذي لا يفصح لصاحبه عن معنى ما يحدثه . كذا في القاموس

وإني أرجو لكما ولي ولأبنائي الطلاب الصالحين خير الدنيا وكرامة
الآخرة... إله.. » .

وفي رسالة أرسلها قبل العيد لبعض تلاميذه ، قال فيها :

« إن لكم في السر منازل حية ، ولكم لاصق بقلبي ، وعالق
بروحي ، والذي يسلي ، أن أيام الغياب وشيكة الانقضاء ، وباللقاء
يتضاعف السرور بالعيد... إله.. » .

ولقد كان - رحمه الله تعالى - ربيعاً كله في أنسه ولطفه ، ربيعاً
في روحه ، ربيعاً في نثره وشعره ، ربيعاً في أخلاقه ومعاملاته ، ولم كان
يحب الربيع!! ونستمع إليه ، وهو في شبابه ، يتحدثنا عن الربيع وآماله
وأمانيه في الربيع :

« الربيع شباب الزمان ، وروح الحيوان ، به تلبس الأرض
زخرفها ، وترهو السماء بزرقها ، ويخلص أديمها في الغائب من السحب
الكثيفة ، إلا ما كان من بعض قزعات ترين الجر وتريده رونقاً وجمالاً ،
وبالجملة فإن الدنيا في هذا الفصل تظهر بلباس جديد ، جمعت فيه شتى
الحاسن . فالتناس به مغرمون ، وعلى حسنه مجمعون ، فهو مضرب الأمثال
في الرقة والجمال ، والضالة المنشودة في الحل والترحال .

حسن الربيع أمر مسلم لا جدال فيه ، والذي يحسن بنا أن
نذكره ، أنه متفاوت بحسب الأمكنة ، فليس كل ربيع ربيعاً ، وما
ربيع الصحارى القاحلة كربيع البقاع النضيرة ، وليست الوديان
ومنحدراتها وبطونها ذات الحماثل البهجة ، كالخزون والأراضي الصعبة

في المفاوز المهلكة ، وإن على طالب حسن الربيع ومبتغي وصاله ، أن يرتاد لنفسه منزلاً رجباً جميلاً ، يجمع جلّ المحاسن إن لم يجمعها كلها ، حيث تحلّو فيه الإقامة ويطيب العيش .

يسرح بي الحيال أحياناً ، فتتمنى عليّ النفس أماني مستلذة ، يصعب حصولها ، ويعز نوالها ، فأصغي إلى حديثها شاعراً باللذة منه ، شأن من يندفع وراء آماله الحلوة . وهاك بعضاً منها .

أريد منزلاً في جبل خضر نضر ، تنحدر منه الأنهار ، وتكثر فيه الينابيع ، تتناوح أغصانه ، وترق نسباته ، مشرف على قسم من البحر ، وجانب من البر ، فيتمتع الطرف بمشاهدتها ، وكلّ له جمال .

وأرغب أن يكون هذا المنزل في جانب قرية إسلامية ، يحرص أهلها على دينهم ، فلا يعكس صفو الحياة رؤية الفجور والفسوق ، وأن يكون لي قرين حسن النعت والصفة ، موطاً الأكناف ، في دماثة أخلاق وحسن عشرة ، وأن يكون عندي من الكتب ما يرواه قلبي ، فأدرس العلم الذي أحبه ، غير متكلف لما استصعبه ، ويستعصي عليّ من غيره ، وأن يكون لي وارد بسيط ، فأعيش كفافاً مطمئناً ، وادعاً في ظل الهناء ، تاركاً متاع الدنيا وكدوراتها ، أشهد شروق الشمس وغروبها ، وطلوع الكواكب وأفولها ، وأرقب سير الفصول وتقلبات الكون ، وهكذا حتى يأتيني اليقين .

وما أحسن الأمر إذا قمت أحياناً برحلات ، انتجع فيها الرياض والجنان ، ذائقاً لذة التنقل من مكان إلى مكان .

هذه بعض أمانتي نفسي ، وأذكر أني كنت حدثت بعض إخواني
بنحو هذا ، فقال لي : إنك تجد أمنتك في الجنة ، والله المستعان في
التوفيق للعمل الصالح ، ونوال رضوانه ، وما ذلك عليه بعزير ..
لعلك يا سيدي وجدتها بفضلها ورحمته ، مع النبيين والصديقين
والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً .

وبعد : فالحديث عنك يا سيدي لما يئته بعد ، ولا تزال له بقية ،
واقّة أرجو أن يهيء فرصة مواتية لتكميله . كما أسأله تعالى حسن
الختام ، والوفاء على الإيمان ، وأن يجمعني بكم يوم القيامة ، تحت لواء
سيد المرسلين ، عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم .

تنويه وشكر

لقد كان للجهود التي بذلها الأستاذ الكريم محمد علي دولة في
تصحيح الكتاب وتنسيقه ، فضل كبير في إخراج الكتاب
بهذا الشكل ، فجزاه الله خير الجزاء ووفقه لكل خير
المؤلف

المراجع

- ١ - إحياء علوم الدين للإمام الغزالي
- ٢ - إرشاد الناس إلى أحكام الحيض والنفاس لعبد الحميد طهراز
- ٣ - الأنوار القدسية للشعراني
- ٤ - بوارق الحقائق للرواس
- ٥ - التوغيّب والتوّهيب للمندري
- ٦ - التعرف لمذهب أهل التصوف للكلاباذي
- ٧ - التعريفات للجرجاني
- ٨ - تفسير البيضاوي
- ٩ - تنبيه الفكر إلى حقيقة الذكر لمحمد أديب كلكل
- ١٠ - تيسير الوصول للشيباني
- ١١ - حضارة الاسلام (مجلة دمشقية) عدد خاص بالشيخ الحامد رحمه الله
- ١٢ - ١٣ - ١٤ - ردود على أباطيل، الخطب المكتوبة، الرسائل المحفوظة للشيخ الحامد رحمه الله
- ١٥ - رفرف العناية للرواس
- ١٦ - ١٧ - صحيح البخاري ، صحيح مسلم
- ١٨ - ١٩ - الفتح الكبير للسيوطي ، فيض القدير شرح الجامع الصغير للناوي
- ٢٠ - ٢١ - القاموس المحيط للفيروز أبادي، كشف الحفا للعجلوني
- ٢٢ - ٢٣ - مجمع الأمثال للميداني ، مختار الصحاح للرازي

فهرس

٣

مقدمة المؤلف

٧

الباب الأول (مراحل حياته رحمه الله تعالى)

حماة ٩ - الشيخ محمود الحامد . - ولادته ١٢ - اليتيمان ١٤ -
نشأته العلمية ١٧ - المدرسة الشرعية في حماة ١٨ - المدرسة الحسروية الشرعية
في حلب ٢٠ - العودة إلى حماة ٢٤ - الرحلة إلى مصر ٢٧ - الاستقرار
في حماة ٣٦ - جهاده الوطني ٣٦ - جهاده الاجتماعي ٤١ - جهاده
التعليمي ٤٥ - المرحلة الأخيرة ٤٨

٥٠

ذكر ياتي عن العلامة الراحل في آخر المراحل

ظهور المرض ٥٣ - تطور المرض ٥٦ - السفر إلى بيروت ٥٧ -
في مستشفى المقاصد الاسلامية ٥٩ - النزفة الرابعة ٦١ - قبيل العملية
الجراحية ٦٤ - العملية الجراحية ٦٥ - فترة الصحو ٦٦ - حفاوة
العلماء بعالم الأولياء ٦٨ - قبيل العودة إلى حماة ٧١ - وداعه الدنيا ٧٣ -
العودة إلى حماة ٧٤ - إلى جوار الرحمن ٧٤ - تشييع الجثمان الطاهر ٧٥ -
الطريق إلى الله تعالى ٧٧ - خاتمة ٨٠

٨٣

الباب الثاني (محامده العلمية)

تمهيد ٨٥ - القرآن الكريم ٨٦ - السنة ٩٣ - السيرة الشريفة ٩٤ -
الحديث الشريف ٩٨ - الفقه ١٠٠ - آثاره العلمية ١٠٦ - إنتاجه
العلمي ١١٠ - الاستفتاءات الشرعية ١١١

الباب الثالث (محامده الصوفية) ١١٥

تمهيد ١١٧ - الصوفية ١٢١ - الصوفية والسلفية ١٢٣

أركان التصوف ١٣٢

أولاً : الذكر ١٣٢

حقيقة الذكر ١٣٢ - الذكر وسيلة لا غاية ١٣٣ - شروط ذكر
اللسان ١٣٤ - تحريم التحريف في أسماء الله الحسنى ١٣٥ - ذكر
القلب أفضل من ذكر اللسان ١٤٢ - الأحوال ١٤٤ - تهذبة الحال
بالإكثار من الصلاة والسلام على النبي ١٤٧ - التمكن في الحال يوصل
إلى المقام ١٤٩ - الأحوال عند الصحابة ١٥٠ - صاحب الحال لا يقلد
أثناء غلبة الحال عليه ١٥١ - القبض على ناصية الحال ١٥٢ - الأحوال
والأعمال ١٥٣ - الشطح والتحذير منه ١٥٤ - رسالة الشيخ إلى شيخه
أبي النصر في رد بعض الأمور الباطلة ١٥٧ - رده على من قال بنجاة
إبليس يوم القيامة ١٥٩ - رده على من يقول بأن المطيع والعاصي سواء
أمام الحق عز وجل ١٦١ - رده على من يقول بأن أهل النار يتلذذون
فيها ١٦٢ - رده على من يقول بخروج الكافرين من النار ١٦٣ - رده
على من يقول بنجاة فرعون ١٦٥ - رده على من قال بوحدة الوجود
١٦٨ - المجاهدات والمكابدات ١٧٠

ثانياً : الشيخ المرشد ١٧٣

ضرورة صحبة المرشد ١٧٤ - تعريف الشيخ المرشد ١٧٥ - شروط
المرشد ١٧٥ : (١) الإجازة بالإرشاد ١٧٥ (٢) العلم الواسع والعمل

بالعلم ١٧٦ (٣) الترفع عن مال المرید ١٧٧ (٤) المرشد ليس، معصوماً ١٧٧ (٥)
 الإخلاص ١٧٨ - المرشد الكامل نادر في هذا الزمن ١٧٨ - الصلاة على
 النبي تقوم مقام المرشد عند فقده ١٧٩ - الكرامات ١٨٠ - الطريق
 ١٨٢ - الطريقة النقشبندية ١٨٨ - آداب الذكر ١٩١

١٩٤ الشيخ محمد أبو النصر خلف رحمه الله تعالى

٢٠٥ الشيخ محمد سليم خلف رحمه الله تعالى

٢٠٩ ذكر سلسلة شيوخ الطريقة النقشبندية ورحمهم الله تعالى

٢١١ الباب الرابع (محامده اخلاقية)

تمهيد ٢١٣ - الورع ٢١٥ - الرحمة ٢٢٣ - الأمر بالمعروف

والنهي عن المنكر ٢٢٧ - الزهد والتواضع ٢٣٣ - الوفاء ٢٣٦ -

الظرف واللفظ ٢٤١

بعض أوصافه رحمه الله تعالى كما سجلها الدكتور محمد سلمان نجار ٢٤٧

٢٥١ الباب الخامس (محامده الأدبية)

٢٨٥ الفهرس